

مغامرات مؤرخة

في أدب التراجم

تأليف: كاثرين درينكر بوين

ترجمة: محمود عزت موسى



مغامرات مؤرخة

في أدب التراجم

تأليف

كاثرين درينكر بوين

ترجمة

محمود عزت موسى

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

مغامرات مؤرخة

في أدب التراجم

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مـــع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة ـ نيويورك

ابريل سنة ١٩٦٢

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلفة : كاثرين درينكر بوين

ولـــدت ســـنة ١٨٩٧ بمدينـــة هارفـــارد بولاية بنســـلفانيا • أغرمت بالموسيقى فى سن مبكرة فرفضت الالتحاق بكلية الفنون والتحقت بمعهد بيبودى للموسيقى بمـدينة بلتيمور ثم بمعهـــد الفنون الموسيقية بمـــدينة نيويورك •

تركت الموسيقى عندما تزوجت ، وعادت الى ميدان الكتابة ، وكان كتابها عن حياة تشيكوفسكى بعنوان « الصديق المحبوب » كتابا ناجحا فقد بيع منــه أكثر من مائة وخمسين ألف نســـخة ، وترجم الى معظم اللغـــات الأوربية والاسكندنافية •

وللسيدة كاثرين درينكر بوين طفـــلان • وهى تتتبع البرامج الموسيقية كهواية الىجانب الكتابة•وقد نالتاحدىالجوائز الأدبية فى ميـدان التأليف غير القصص • وكتابها « أمريكى من جبل أوليمب » الذى بيعت نسخه جميعا ، هو تاريخ حياة قاضى القضـــاة أوليفر ويندل هولمز الصغير •

المترجم : محمود عزت موسى

حائز على شهادة الليسانس فى الحقوق وأحرز الجـائزة الاولى فى الأدب العربى من الجامعة الأمريكية عندما كان طالبا بها عام ١٩٢٩ • ونشر مئـات الابحاث الأدبية والاجتماعية والتراجم والقصص العالمية فى صحيفة السياسة الأسبوعية والبلاغ اليومى والبلاغ الاسبوعى والمقتطف والأسبوع ومجلة الحديث الحلبية ومجلتى والاهرام والمساء • وأصدر أول قصة طويلة باسم «الزحام» عـام ١٩٣٠ كما أصدر عدة كتب لمجموعات من القصص العالمى والتراجم وفاز بجائزة التمثيليات الاذاعية عام ١٩٤٨ •وانتدب رئيسا لقسم آلتحرير والتأليف بمصلحة الاستعلامات من عام ١٩٥٤ الى ١٩٥٨ ومنح وسام الاستحقاق •

يشغل الآن وظيفة مفتش أول الثقافة العمالية بوزارة العمل •

مصمم الغـــلاف : امين لبيب رزق

التحق بكليـة الفنون الجميلة « قســـم الفنون الزخرفية » سنة ١٩٥٦ اشترك في مسابقات عدة ، أهمها الدعاية والاعلان لمصلحة السياحة ، وطوابع البريد والدعاية للمؤتمرات العامة التى أقيمت فى الجمهوريات العربيـــة ٠
حصل على جائزة التقدير لاعلان الدعاية لمؤتمر الشـــباب الأفريقى الآسيوى ٠
اشترك ببعض التصميمات فى معرض للجمهورية العربية المتحدة فى روما عامى ١٩٥٩ ، ١٩٦١ ٠

المحتـــويات

صفحة

مقدمة

بسطت فى هذا الكتاب الحياة التى يعيشها كاتب التراجم . وهى فى نظرى حياة جميلة ممتعة ، وأملى أن أمضى فيها بضع سنوات أخرى . وليس للفصول التى ضمنتها كتابى هذا ، موضوع بعينه أو غاية محددة رميت اليها كأن تستهدف التثقيف أو نحو ذلك ، وهو ليس بالبحث العلمى الذى قصدت به أن يكون هاديا ونبراسا للكتاب من بعدى . واعداد ترجمة وافية لحياة علم من الأعلام ، ان هو الا عمل يمارس داخل الجدران وفى خارجها أيضا . ولقد دفعتنى كتبى الى القيام بكثير من الرحلات . ولم أحاول فى هذا الكتاب أن أقتاد القارىء على طول الطريق الشاقة التى قطعتها خطوة خطوة ، كما لم أثقل عليه بذكر مراحل البحث التمهيدية فى بطون الكتب أو ذكر الجهد الحقيقى اليومى الذى يبذل فى اعداد تاريخ عظيم من العظماء . بل ما قصدت اليه هو أن أحيط القارىء بالأشخاص والأماكن التى صادفتها فى أسفارى المتعلقة بالبحوث التى كنت أعدها ، والتى قادتنى من فيلادلفيا الى كاليفورنيا ثم الى ليننجراد وبرلين وبوسطن وماساشوستس ، والى حيثما اقتضت الظروف .. كما جمعت بينى وبين المرشدين السياحيين واللوردات الانجليز وأساتذة التاريخ فى الجامعات وسيدات بيكون هيل ، وحجاب المحاكم والمحامين وأمناء المكتبات والقضاة والمستشارين .. كما دفعت بى الى النقاد والأصدقاء والأعوان الكرام والأغراب الذين كانوا يرشدوننى الى الطريق .

وانى لأجد فى معظم الأحيان متعة فى استعادة هذه الذكريات جميعها ،

ولم أغفل فى سردى هذه الرواية الجانب المؤلم منها أيضا . يقول ادوارد جيبون فى ترجمة حياته التى كتبها بنفسه : « ولطالما استنكرت تلك الفعلة الشنعاء التى تمسخ ذكرى فرد من الأفراد فتجعلها مطية للسخرية منه أو للثناء عليه » . وهذا شعور طيب نبيل يليق بمؤلف كتاب « انهيار الامبراطورية الرومانية وسقوطها » . ولكننى لا أستطيع أن أبلغ هذا الشأو . ثم اننى لا أعتقد بأنى أومن فى واقع الأمر بضرورة بلوغه . ان الماضى الذى يخلو من الآلام ليس له وجود ، ولو وجد فعلا لكانت قصته أدعى الى السأم والملال . لقد كان لكل كتاب من الكتب التى ألفتها ، مواقفه وأناسه ممن هبوا لمناهضتى والوقوف فى وجهى ، عن عمد أو عن غير عمد . وهذه هى العقبات التى تصادف كاتب التراجم ، وعليه ان اعترضت طريقه أن يكافحها ويقهرها ، ولا حرج فيما يفعل أو فيما يقول .

ولم أحاول فى هذه الذكريات التى سجلتها ، أن ألتزم دوما الترتيب الزمنى الدقيق . وقد أوردت فى بعض الأحيان الأسماء الحقيقية ، واستعنت بأسماء مستعارة فى أحيان أخرى . ولى أمل وطيد فى ألا أثير حفيظة أحد فيما قلت ؛ لأنى لم أقصد الاساءة قط . ان كتابة ترجمة لحياة علم من الأعلام انما هو عمل مثير حقا . انها كالعشق ، له لحظاته من الرضا ، وأيامه الطويلة من اليأس ، عندما تغلق آلهة التاريخ أبوابها وتأبى أن تطل بوجهها الصبيح . ولكل كاتب وجهان للحياة : وجه الحقيقة والواقع ، ووجه الوهم والخيال . وهو يعيش مع كل منهما فى آن واحد ، أما كاتب التراجم الذى يريد أن يبرز شخصياته فى صورة أدعى الى ايمان الناس بها ، فعليه أن يطلق لخياله العنان . ولا تتطلب مهمة بعث الماضى جهدا فنيا يقل عما يبذل فى تأليف قصة أو نظم ملحمة شعرية ، فيتحتم البحث عند بعث الماضى ، عن المادة العلمية فى ميدان الحياة مثلما يتحتم التماسها فى بطون الكتب

والوثائق القديمة . ولقد قيل انه يجب على المؤرخ أن يتعرف طرائق الحياة لدى من ليسوا بمؤرخين ، ويتحتم عليه أن يهتم بجيرانه ، لأن هــذا هو السبيل الى دراسة أوجه التشابه بين عادات الأقوام التى تتخذ من التاريخ أقنعة غريبة تخفيها عن الأنظار .

ولا مراء فى أن هناك ذكريات خاصة كثيرة يستشعر الكاتب بالحرج فى سردها . ثم ما الذى يدعو المرء الى الاعتقاد بأن حادثة بعينها تعد حادثة طريفة ، لا لشىء الا لأنها وقعت له ! لقد نشرت منذ عشرين سنة مضت كتابا يحوى مقالات شخصية تحت عنوان « الأصدقاء والعازفون » — صحيح أن الكتاب كان يدور حول حياتى الخاصة ، بيد أنه كان يهتم فى المكان الأول بالموسيقى التى تعزف فى الأماكن غير العامة ، والمتع التى يجنيها المرء من اللهو مع أصدقائه . غير أن هذا الكتاب الثانى من كتب الذكريات الذى أضعه بين يدى القارىء يتعلق فى اعتقادى بالتاريخ وطرق البحث والدرس أكثر مما يتعلق بشخصى . لقد بدأت كتابة التراجم منذ أربعين سنة مضت ، ولو كان لى الخيار لوددت أن أعيش حياة كاتب التراجم هذه من جديد . ولست أتصور وقتا يمضى على هذا النحو الطيب المتع ، مثلما يمضى الوقت فى كتابة ترجمة من التراجم ، هذا هو شعورى على الأقل .

وأود هنا أن أسجل شكرى لمجلة « اتلانتيك » الشهرية اذ سمحت لى باعادة نشر فصلى « كأس جون آدمز » و « تحية الى أمناء المكتبات » وأعرب عن امتنانى لمجلة هاربر لاذنها لى باقتباس بعض فقرات مقال « عظمة العصر » . أما عن بقية الفصول التى نشرت بالكتاب فلم يسبق لها أن نشرت الا من بعض الفقرات التى اقتبستها أو بعض الأسطر التى شرحتها نقلا عن تراجمى السابقة .

١

موسكو : بين الحاضر والماضي

ابتدرتنى فون مك قائلة : لا تذهبى الى روسيا .

وكنا — أنا وهى — قد فرغنا من وضع ترجمة حياة تشايكوفسكى ، بعد أن تآزرنا معا فىهذا الجهد ، ودفعنا بالكتاب الى المطبعة ، وبدأت أترجم سيرة أساتذة تشايكوفسكى ؛ وهما الأخوان : أنطون ونيقولاس روبنشتين .

وكانت السيدة فون مك ، من الروس البيض الذين لاذوا بالفرار عندما اندلعت نيران الثورة عام ١٩١٧ .

ثم مضت « بربارا فون مك » تستوفى حديثها قائلة — وهى تحدجنى بنظرات جامدة : لقد شاهت معالم الحيــاة فى البلاد ، وأمسى أهلها غير أولئك الذين ألفت والذين تعرفين ، وقيل لى ان الأغنياء والفقراء يرتدون فى الطرقات ثيابا متماثلة فصلت على نمط واحد ، ولقد انتهكت قدسية الكنائس فى موسكو ، وخرست نواقيسها عن الرنين ، واختفت كلاب الحراسة الرابضةعند بواباتالقصور . ولست أدرى ماذا ستشهدينولكنها على أية حالة لن تكون روسيا الأم التى عرفها تشايكوفسكى ، أو التى عهدها الأخوان روبنشتين . ثم أشاحت برأسها قائلة : ان الصــور التى نسجها خيالك ستذهب بددا .

وكانت الساعة قد آذنت بالحادية عشرة ليلا ، عندما شارف القطار الذى يقلنى حدود بولندا ، كنت قادمة من برلين ، وكنا اذ ذاك فى عام ١٩٣٧ والطيران لم يبلغ شأوه الذى بلغه اليوم ، وكانت الرحلة من نيويورك الى موسكو لما تزل سفرا مضنيا يستغرق أسبوعين .

ولقد منحنى السفير الروسى ترويانوفسكى اذن « تأشيرة » الدخول بعد لأى ، وزودت برسائل الى مراقب التعليم ومعهد موسيقى موسكو وآخرين ، وآثرت أن أتجاهل تحذيرات بربارا فون مك . لقد سبق لى أن ألفت كتابا عن روسيا دون أن أراها بتاتا ، ولست مقبلة فى هذه المرة على مثل هذا الموقف .

ان الروس الذين طالعوا كتابى « الصديق الحبيب » قد راسلونى تعقيبا عليه بأن ما تناولته من وصف محبب أثار فيهم كوامن الحنين الى الوطن ، وأردفوا بأننى لابد قد عشت سنوات طويلة فى وطنهم حتى تيسر لى أن أغوص الى أعماقه . وهذا ، دون ريب ما عنته السيدة فون مك عندما ألمعت الى قوة تصورى .

اليوم ، اندثرت معظم صور الماضى التى سجلت لمحاتها الكتب السياحية القديمة التى صدرت عن روسيا خلال القرن التاسع عشر ، تلك الخصائص التى انفردت بها ، كهراوة الشرطى مثلا عند ارتطامها بأرصفة موسكو الخشبية ، وصليله وضجيجه خلال غدواته وروحاته أثناء نوبته الليلية (وكانت الكتيبات السياحية تحذر الوافدين اليها من ذلك الضجيج ، ناصحة اياهم أن يستأجروا حجرات المنازل الخلفية ليهجعوا فيها خلال اقامتهم بالمدينة) .

وبالنسبة الىّ ، فان الأثر النهائى لهذه التفصيلات المختزنة ، كانت تبدو لى من المصادفات التى وفقت فى سردها ، أكثر مما تكون من قبيل التصور ، كأنما كان كتابى الذى دبجته حجابا أو رقية أثمر تأثيرها .. وفوق هذا فان ما أنفقته من الأعوام فى الاطلاع ، زادنى لهفة واشتياقا الى روسيا ، كنت فى حاجة الى أن أعرف ما أسبغته من وصف .. ألم يزل قائما ؟

لم يحدث فى التاريخ ، أن تغيرت أوضــاع أية أمة على وجه السرعة تغيّرا شاملا جذريا . عفت الامبراطورية الروسية حقا ، واستحالت الندوات التى كان يغشاها أنطون روبنشتين عازفا على البيانو للقيصرة ، كما استحال بهو النبلاء فى بطرسبرج .. والنادى الانجليزى بموسكو الذى طالما غامر نيقولاس روبنشتين فيــه بأمواله فى لعب الورق . كل هــــذه الأماكن انقلبت رأسا على عقب وأمعن فيها الرفاق يد التبديل ، فصارت أندية لعمال السكك الحديدية ، ومتاحف للادينية ، أو مراكز ثقافية للطبقة العاملة .

بيد أن معهد موسكو للموسيقى لم يزل قائما ، يدب النشاط فى جنباته وتهتز فى أرجائه الألحان — اذا صح ما قيل لى — وكذلك الحال أيضا بالنسبة لمعهد موسيقى أنطون روبنشتين فى سانت بطرسبرج ، أو بالأحرى لينينجراد كما يجب أن أقول ، وكما أنبأتنى بذلك فون مك وهى مبتئسة .

حسنا ، ولقد ذكرت لها أننى اذا لم أكن أعرف شيئا آخر عن روسيا فان فى استطاعتى أن أعرف أن الأشجار أورقت فى الربيع أسبق من سواها على طول طريق نفسكى بروسبكت . وهكذا مضينا نتجادل .. ثم قلت لها بغباء : ان البلاشفة على أية حالة لم يغيروا « الطقس » .

أما هى فهزت رأسها ارتيابا مظهرة أنها غير متأكدة من ذلك أيضا ..

والآن .. كنت فى طريقى ، ذات الطريق الذى اجتازه منــذ مائة عام أنطون روبنشتين الصغير بعد أن أمضى سنوات التحصيل والعزف فى القارة الأوروبية . كان غلاما عبقريا فى العاشرة لما نزح من روســيا مع معلمه فرانسوا فيلونج ، وكان قد سافر لأجل الاستزادة والتفقه فى فنــه . وعاد عام ١٨٤٨ وأوروبا تمور بالثورة ، والآن ، هأنذا أجتــاز نفس الطريق الشرقى مخترقة سهول ألمانيا الشمالية العظيمة . وكنا فى مستهل أبريل

والحقول قد أترعت بماء ثلج الشتاء المذاب ، والطرقات لما تزل مليئة بالأخاديد وحفر العجلات العميقة المتجمدة . وقبل أن ينسدل ستر الظلام ، استبان لى من بعد الغدران ، خمائل الشجر التى تتحرك من ورائها السفن القادمة من فنلندا .

واستطعت — وأنفى وراء زجاج نافذة القطار — أن أرى أنوار محطة الحدود تقترب ، والقطار الكبير يتهادى استعدادا للوقوف . وكانت صاحبتى الوحيدة فى « الديوان » الذى أشغله ، سيدة خلاسية الدم ، بولندية أمريكية ، قادمة من شيكاغو فى طريقها لزيارة أقاربها فى وارسو . كانت عصبية المزاج من السفر ، جالسة طيلة سفرها وقد افترشت تحت قدميها شالا قرنفلى اللون ، كما لو كانت أرضية القطار تلوثهما ، ومضت تردد قولها : « لا أثق بأحد فى هذا القطار سواك » . وكنت متوترة قلقة أتوقع شيئا مجهولا ، فانفجرت ضاحكة من حديثها مما جعلها تزداد تجهما وتحفظا .

وانتهى الى مسمعى صوت مقبل من القطار يقول : « مراقبة جوازات السفر » فتواثبت الى ذهنى ذكرى أنطون روبنشتين اذ مرت به محنة عصيبة خلال عبوره أرض بولندا عام ١٨٤٨ عندما صادر ضباط الحدود الروس حقائبه المليئة بمدوناته الموسيقية . كل ألحان صباه التى أفنى خمس سنوات فى وضعها . فقد سألوه جاهلين : مدونات ؟ أى نوع تلك المدونات تكون ؟ انها ولا شك رسائل الفوضويين والثوريين اختزلت بالشفرة على هيئة علامات موسيقية .. لابد أن نتحرز على هذه الحقيبة حتى يتم تحقيق ما تحتويه » .

وقلت لنفسى .. كل هذا حدث منذ زمن طويل ، فى عام تأجج بالثورة . واليوم فاننا فى عام ١٩٣٧ وكل أوراقى تامة وقانونية .

وسمعت وقع أقدام تقترب فى الممر ، وعلى باب الديوان ، ظهر أربعة

رجال من الشرطة البولنديين ، يرتدون زيا قوامه الأزرق والأحمر ، وكل منهم يعلق على صدره فانوسا بداخله شمعة مضاءة ، وكان لدىّ فسحة من الوقت لأستبين أن الأربعة فى سن الشباب ، متأنقين ، وأن رئيسهم أخذ ينطق بكلمة « جرين كار » فى صوت منغم .. ثم تعالى نطقه بهذه الكلمة كما لو كان يأمر بوقف القطار !

ولقد كرر هذه اللفظة نحو ثلاث مرات ، قبل أن أفطن الى أنه يعنينى ، مكررا الاسم : درينكه ! كاترين درينكه باون .. ان اسمى ليبدو مألوفا فى أوروبا التى طالما اتصلت بها ، وكان الشرطى الشاب عطوفا عندما ردد اسمى ، وكما أدركت بعدئذ ، فابتسمت وتقدمت بجواز سفرى ، فبادلنى الابتسامة ، وكان وراءه أعوانه الثلاثة ينتظرون . ومضى يقلب صفحات جواز السفر ، ثم لم يلبث أن قطب جبينه ، واستدار الى أصحابه ، وأخذوا يتهامسون جادين باللغة البولندية ، وهم يهزون أكتافهم ورءوسهم .. وبعد أن فرغوا من حديثهم ، التفت الرئيس وأخبرنى بأننى لا أحمل اذنا « تأشيرة » بالدخول الى بولندا . ان جواز سفرى يحمل تراخيص « تأشيرات » بالدخول الى روسيا ، وفرنسا ، وألمانيا ، ولكن لا توجد ثمة « تأشيرة » لبولندا ، ولابد للمرء كى يصل الى روسيا أن يجتاز أرض بولندا ..

فأجبت بأدب ، وصوت مشوب بالحزم ، بأننى لا شك أحمل ترخيصا بالمرور ببولندا ، فقد تولى مندوبى فى نيويورك تدبير كل شىء ، وهو سيد حصيف لا يخطىء ، فهل يتفضل السيد بالقاء نظرة أخرى على جواز السفر . لابد أنه سيجد ما يريده ..

وقلت : انظر ! هاهى ذى « التأشيرة » ..

فأجاب : لا . لا ليس ثمة « تأشيرة » توجد .. ان الجواز يحمل اذنا بدخول روسيا .

وكان عليّ أن أغادر القطار وأن أظل فى المحطة حتى يقدم القطار المضاد ليعود بى الى برلين . ربما بعد عشر ساعات أو ربما بعد عشرين ساعة ! .

واستبد بى مزاج من الجزع الطاغى والدهشة معا .. وأحس رجال الشرطة ذلك ، وعلى أية حال فقد ظلوا صامتين وبدأ رئيسهم يسألنى :

— لماذا أنت ذاهبة الى روسـيا ؟ فأجبت بأننى محررة .. فقالوا : محررة ؟ وفى أية صحيفة ؟ فقلت موضحة الموقف : ناقدة موسيقية .

وفى الحقيقة ، كان قد سبق لى أن حررت بضع مقـالات موسيقية فى الصحف . أما هم فكأنما تنفسوا الصعداء قائلين : اذن أنت ناقدة موسيقية .. وعلت وجوههم ابتسامة الارتياح وبدأ قلبى الذى كاد يغوص بين ضلوعى هلعا .. تنتظم نبضاته .. وناجيت نفسى :

« يا أطياف شوبان ووينيافسكى ، سلام على بلاد الموسيقى الحبيبة ! » .

وبادلتهم تحية رقيقة ، وانحنيت قليـلا ، مبتسـمة ، قائلة : وأنا أيضا عازفة كمان ..

ولو أننى قدمت نفسى اليهم باعتبار أننى تيتانيا آلهة الأساطير .. لما نلت مثل هذا الاعتبار عند رجال الشرطة الأربعة ، فقد تصايحوا ضاحكين : أأنت تعزفين الكمان ؟ وأخـذوا يتحادثون فيما بينهم مرة ثانية باللغة البولندية ، واستدار رئيسهم قائلا لى : لو أنك كنت رجلا .. لما أقدمت على ما سأفعل ، ولكنك سيدة ، فتعالى معى الى المحطة ، وستدفعين فقط رسما قدره دولار . وسأمنحك الترخيص .. ونزلنا من القطار نحن الخمسة ، وتأبط الرئيس ذراعى ، وأنا أرمقه باعجاب . كان هذا الشرطى — حقا — ينحدر من سلالة نبيلة ، وكان مصيرى بين يديه ، وبينما كان يتداول فى

أمرى ، بالمكتب الجمركى ، أكد الضباط الثلاثة الآخرون ، أننى لا أدرك مدى الحظ الذى واتانى .. فلن يمكن لأى انسان أن يجتاز البلاد دون اذن ، وخاصة فى الآونة الأخيرة منذ وقعت القلاقل فى موسكو .. فأدركت لفورى ماذا يعنون . كانت أنباء أولى محاكمات قضيتى التطهير قد أخذت تغص بها الصحف كافة ، ولم تكن عبارة « عملية غسيل المخ » أو « حمام الاعتراف » قد عرفت بعد ، اذ ذعر العالم من الاعترافات الاجبارية المنتزعة من أولئك المسجونين وتسليمهم المروع المهين بادانة أنفسهم ..

وقدمت لى استمارة ، فملأت بياناتها ، وختم جواز سفرى بالمرور — وما كان أنغم صوت ختم المرور عندما طرق أذنى ! — وفتح ضابط الجمرك حقائبى ، وتناولت سجائرى الأمريكية ووزعتها الى آخر سيجارة شستر فيلد ! وانحنى الرئيس ، فبادلته الانحناءة وتصافحنا . وهرولت الى القطار ، وقد استخفنى سرور غامر ، عدت الى ديوانى مع السيدة البولندية الأمريكية ، ولا بد أنها شاهدت ما حدث لى اذ انتصبت واقفة ورسمت علامة الصليب . وتحرك القطار مجتازا الحدود .

وظللت طيلة اليوم التالى أرقب من القطار السهول الممتدة ، وهى سهول جرداء مملة قاحلة فى حين نفرت جياد المزارع عندما مر بها القطار وارتفع كثيب من الرماد أثارته دراجة سائرة .

سبق لى أن اجتزت سهول كانساس وتكساس ومروجها ، ولكن الأرض لم تكن مثلها ؛ ففى تلك السهول الداكنة الواسعة الأرجاء كانت الشجيرات هنا وهناك هى علامة الحياة الوحيدة فى فلواتها التى تقع الأنظار عليها .. وكانت تلك الشجيرات تتخلل السهول البدائية على هيئة أحراش صغيرة ملتفة ، أو شجيرات متناثرة ، وقد بدت فى تلك السهول الشاسعة

الجرداء ملاذا ونعمة . ولا غـــرو ، اذا كان الروس يتغنون فى أهازيجهم الشعبية بها ، مترنمين « فى الحقول .. تقوم خمائل الشجر .. » .

وكانت الماشية تجرى نافرة .. وهى تقفز وتتدافع ، وأسراب الأوز تهرع جافلة بأجنحتها ، بينما ارتدى الرجال « سترات » من الجــلد وهم يحرثون الأرض لابسين أحذيتهم الطويلة ، ونساؤهم حافيات يسرن الى جانبهم وفى أثناء هذا العمل الدائب تدور طواحين الهواء مسرعة .

وأخذت التلال تتبدى لنا بعد ظهر اليوم التالى وقد اختفرت المحاريث خطوطا ملتوية فى فجاج الأرض ، على حين يرى أحد الفلاحين ممتطيا صهوة جواد معربد دون سرج وهو يعدو به ويروضه قافزا مسرعا ، وكانت قريته تقع بعيدا وراء دغل من الأشجار الباسقة ، تتكون من أكواخ خشبية هى دون شك ، ملاذ لقوم تعساء ، وكان فى استطاعة المرء أن يستروح نسمات الشمال حتى وهو فى ذلك القطار الحار ، عند الغسق تبدو ســماء شهر أبريل باردة صافية الديباجة كما تبدو ظلال السحب الوانية . على الحقول — أروع ما تكون سحرا ، والثلج يكسو المنازل ، وعلى ضفاف الأنهار ، وفوق قضبان السكك الحديدية ، وأحراش الشجر . وتدافع هـــذا المنظر أمامى نحو ميل وأنا شاخصة اليه حتى ساءلت نفسى :

هل أجتاز الآن أرض « نيوانجلند » ؟ بيد أن الفارق أنه لم يكن هناك أحجار .. أو جدران حجرية ، أو حتى سياج يفصل ما بين الحقول .

أثبت كل هــــذه المشـــاهد فى مذكراتى وأحسست أنهـا حركت كوامن نفسى . لطالما تفاخر تشايكوفسكى بهذه البــلاد الفقيرة ، وبهذه الحقول الجرداء القاحلة ، وكذلك حذا حذوه الأخوان روبنشتين مع أنهما من مواليد الجنوب — من بساربيا — وان أنطون كان فى أسلوب حياته نزاعا الى الغرب .

وذات مرة ، بينما كان تشايكوفسكى عائدا من ايطـاليا ، ولم يكد القطار يقف لأول وهلة على أرض الوطن حتى سجد على أديمه يقبل ثراه ، وحتى أنطون روبنشتين بكل ما اشتهر به من أسـلوبه الأوروبى الرفيع ما لبث أن طفرت من عينيه الدموع عندما وطئت أقدامه أرض وطنه قائلا : هاهى ذى .. هنا .. روسيا الأم .

وواعجبا ! كيف يمكن لشخص احتواه الموت أن يخترق تفكيره جمجمة شخص آخر فيجعله فجأة — باعجازه — غير أجنبى ، بل انسانا مقبلا على أحضان وطنه !

ودخل القطار محطة موسـكو ، فترجلت عنه ، ووقفت على الطوار « الرصيف » أصافح الوجوه وأتطلع الى الأشكال المتباينة من الناس وهم مهرولون فى سيرهم خارجين .

ربما أكون قد منيت بالخيبة فى هذه الحجة الطائشة .. وربما تكون « فون مك » على صواب .. وان ما نسجه خيالى وصوره وجدانى سيتبدد ، وانهم سيضعون العقبات فى سبيلى — كما قيل لى — وان رجال الشيوعية الحمراء ، هم قوم مروعون ، سفاحون .

ولكن . مهما كانت أوصافهم ، فانهم لن يستطيعوا أن يستلبوا منى مشاهد رحلتى فى السهول الشـمالية ، أو أن يستلوا أو يسترقوا كل ما شاهدت وأحسست .

قالت اميلى ببرود : لست أدرى : أهذا اليوم هو الأحد أم لا . ولكن الذى أدريه أن غدا يوم الراحة وبعده أيام العمل الخمسة . ولقد أخبرتك من قبل أيتها الرفيقة باون — عن تقويمنا السوفييتى ، فلماذا لا تزالين تحيين على الطراز القديم ؟ ..

كانت اميلى هى مرشدتى السياحية ، وكنت قد دفعت أجر خدماتها

لثلاثين يوما وأنا فى نيويورك . كانت فى الثالثة والعشرين ، صغيرة ، هيفاء ، ذات عينين زرقاوين وبشرة بيضاء ناعمة ، وكانت ترتدى — باستمرار — ثوبا من الصوف وقميصا ورباط رقبة ، وكانت السيجارة لا تفارق فمها ؛ حتى خيل الىّ أنها ولدت لتنفث الدخان فى وجهى فى كل لفتة .

ولقد اشترطت وأنا فى نيويورك ، أن يتوافر فى مرشدتى علمها بالموسيقى وأن تكون مهمتها الرئيسية القدرة على الترجمة من الروسية فى دور الكتب التى سأغشاها بموسكو ولننجراد ، وانها ستكون قليلة النفع لى اذا لم تكن ذات دراية بالموسيقى .

وكانت اميلى ، كما اتضح لى ، خريجة جامعة موسكو ، ولم تكن لتعلم كلمة عن الموسيقى أو عن تاريخها ، الى ما قبل عام ١٩٠٥ ، ولما سألتها أن تترجم لى الكلمات المنقوشة على القبور أو عند مداخل الكنائس وقفت صامتة حيرى . وقالت وهى مضطربة : لا أعرف هذه الكلمات . انها ليست كلمات سياسية . ربما كانت من الكتاب المقدس وسأسأل جدتى عن معانيها .

ولا أدرى ماذا كنا سنفعل ، بدون الاستعانة بجدة اميلى ، واستطعت بالاتصال التليفونى مع جدتها أن أعرف متى يكون يوم الاثنين ، ومتى يكون يوم السبت . كما أرسلت الىّ قصاصات من الورق مكتوبة بالروسية تحتوى تفسيرات لسطور دينية أو ايضاحا لأمثال قديمة ، فى كلمات مسهبة يمكن لاميلى أن تترجمها للانجليزية كما تمكنت فى نهاية الأمر أن تتغلب على اميلى بأن تنادينى وفقا للأسلوب القديم باسم « ايكاترينا جنريشوفنا — معناها كاترين ابنة هنرى — بدلا من لفظة « الرفيقة » التى كانت تدعونى بها ، والتى كانت تعكر صفوى كما أنبأتها بذلك (ثم توالت بعد ذلك المسرات عندما ألفتنى اميلى ، وارتاحت الى معاشرتى) وبدأت تضحك..

وكانت اميلى فى خلال الأسابيع الأولى شديدة الصرامة والجد . وكنت

قد ضقت ذرعا بما فرض علىّ ، فيما يجب أن أتجنبه ، وما أتوجه اليه . ولقد بعثت برسالة ، اذ ذاك الى أحدهم فى وطنى أقول له : ان موسكو مدينة فقيرة مغلقة الأسوار تتراكم فيها الأقذار والروائح الخبيثة ، الشوارع مزدحمة بالشبان وليس فيهم من نال قسطا من التهذيب ، فى عربات الترام لا يتورع أحدهم أن يركلك ويطرحك أرضا ولا تبدو منه حتى مجرد التفاتة . وفى المسارح كانت البراغيث تلسعنى فى ساقى حتى جعلتنى أقفز من مكانى كما لو كنت قد أصبت بمرض مباغت .

وما كانت البراغيت ولا الأقذار كل ما أضجرنى . فان البلاد لم تكن قد استفاقت بعد من الثورة . كانت فى دور النقه ، ان ما استثارنى أن أحدا لم يكن يصدق ما أقول ، كانوا يحملقون فى وجهى بنظرات فظة تافهة لمجرد دعواى بأنى قادمة لأدرس سيرة الأخوين « روبنشتين » .

كانت هيئة مكتب السياحة تزداد شكا فى أمرى ، وطرحت علىّ هذا السؤال : « لماذا تجشم سيدة أمريكية نفسها عناء الكتابة عن الأخوين روبنشتين ؟ » ولما أطلعتهم فى الفندق على ترجمة حياة تشايكوفسكى التى وضعتها مع فون مك ، لم تكد أبصارهم تقع على اسمها تحت اسمى على غلاف الكتاب حتى زادت ريبتهم . كان آل فون مك من الأرستقراطيين ، ووصفوهم لى باحتقار بأنهم قوم منفيون . خونة لوطنهم .

كانت تلك هى المرة الأولى فى حياتى التى ينظر الىّ فيها على أننى مخادعة ، أتلمس المعاذير . ولكن هذه المحنة لم تخرجنى عن صوابى ، واستولى المكتب السياحى على المقدمة التى كتبتها واحتفظ رجاله بها ، وفى كل يوم ، أخذوا يراوغوننى بالوعود . أو يهزون أكتافهم مما زادنى توجسا وارتياعا ، وفتشت حقائب ثيابى بالفندق ، وانتزعت مقابض أبواب شرفتى حتى لا يمكن اغلاقها ، وبدا لى هذا الاهتمام الزائد مضيعة كبرى

للوقت ، فان الأيام النفيسة كانت تمضى سراعا ولم أكن قد زرت بعد ، كونسرفتوار نيقولاس روبنشتين بموسكو ، أو منزل تشايكوفسكى فى ضواحى كلين ، أو متحف روبنشتين .

لم يرفضوا طلبى أو يمنعونى . ولكننى بكل بساطة وجدت نفسى أزور معالم وأماكن أخرى فرضت علىّ فرضا ، وفى ساعة من اليأس تبعت اميلى فى جولة يومية الى متحف اللادينية وعيادة أمراض الزهرى ، ومتحف الثورة وأحد المصانع حيث تصطخب الآلات بالحركة ، وكانت اميلى تشرح لى — لتثير فىّ الاعجاب — كيف يجب أن ألاحظ أن العمال السوفييت ينعمون بالسعادة أضعاف أضعاف ما يناله العمـــال من رعاية فى الولايات المتحدة الأمريكية الرأسمالية .

ولقد قدمت أخيرا احدى صديقاتى الى الاتحاد السوفييتى لتشاهد المسرح الروسى ، وأفضت الى المكتب بأنها لا تريد أن تزور مصنعا أو عيادة فكان من نتيجة ذلك أنه لم يسمح لها أن تطأ قدماها مسرحا ولو مرة واحدة. من أجل هذا مضيت — على سبيل الاقناع لا الاقتناع — أردد لاميلى صباح كل يوم أن هذه المشاهد : متحف اللادينية ، وعيـــادة الأمراض الزهرية ، ومحطة السكك الحديدية تحت الأرض المصنوعة من رخـــام سيبريا ! كلها من أروع ما شاهدت فى حياتى . ولقد كانت كذلك لأسباب واضحة . وفى المساء عندما كانت اميلى تتركنى ، كنت أتوجه الى المسرح أو دور السينما الملاصقة للفندق ، حيث كان « المنادى » يعلن عن رواية « توم سوير » وفيها شاهدت بطل الرواية « نيجر جيم » يجلد بقسوة ، وكان يجلس خلفى ثلاثة من الشبان السوفييت وقد مالوا برءوسهم نحوى يشيرون الى مناظر الرواية تارة ، وتارة أخرى الىّ ، لأستخلص المغزى الواضح من انتصار مبادئهم .

وفى مسرح بولشوى أحرزت تقدما أكثر .

جلست فى احدى المقصورات مع خمسة جنود تبدو عليهم سمات التهذيب ومعهم شرطى على وجهه آثار ندوب كبيرة للجدرى ، وشاهدت مسرحية « نادى بيكويك » .. وعلى المسرح ، وعندما رفع الستار حاملا مستر بيكويك على أريكته والفتى البدين السابح فى نومه وافجوستا ستوت جراسا ودودسونا ومستر بيكويك يتسلق الحائط .. ما لبثت بعد أن رأيت هذا المشهد أن استغرقت فى الضحك .. حتى شهقت صياحا .

ليس ثمة ممثلون انجليز يمكنهم اتقان أداء هذه المسرحية ولو نصف ما فعلوا ومثلما نهض هؤلاء بأدوارها وبنفس الطابع الانجليزى الصميم . انهم قوم موهوبون للمسرح الى أبعد مدى يطوف بخلد الغرب .

شاهدت أوبرات تشايكوفسكى : أوجين أونيجين وبيك دام فى أفخم أداء مسرحى . كل هذا شاهدته ، وأعجبت به ، ولكننى لم أكن سعيدة . كان الأخوان روبنشتين لا يزالان بعيدين عنى أكثر مما كانا حين وطئت قدماى محطة موسكو منذ عشرة أيام . وربما كانت فون مك على صواب وانه كان ينبغى لى ألا أجىء الى هنا .

كنت أناشد اميلى كل صباح ، عندما تقدم الى حجرتى بالفندق : « اميلى ألا تستطيعين أن تنظمى لى جولة فى مكتبة الكونسرفتوار بعد الظهر حتى يمكننا أن نقوم بترجمة بعض ما أريد ؟ » .

ولترتيب هذه الجولة ، كان علينا نحن الاثنين فى هذه الحالة أن نجتاز خمس مجموعات سكنية من فندق موسكو الى الكونسرفتوار الذى يقع فى شارع هدتزن وهو منزل أصفر مصقول البناء خلف سياج حديدى . ومنذ وصلت ، كنت أتوجه نحوه يوميا وأقف محملقة اليه بلهفة ، كسجين وراء القضبان لا يجد لنفسه فكاكا .

ولقد تمكنت بعد عدة محاولات استفهامية حاذقة يشوبها حب الاستطلاع أن أعرف الطابق الذى تقع فيه المكتبة . والمكان الذى توجد فيه قاعة موسيقى الطلبة . وكان متحف روبنشتين — الذى آليت على نفسى أن أراه أو أفنى دونه — يقع فى المبنى الجديد فوق قاعة الموسيقى .

وذات صباح ، لم أنتظر مقدم اميلى ، بل ذهبت وحدى ، وفجأة ظهرت هى حيث كنت أتطلع من خلال العمد الحديدية للسور وبدون أن تبدى لفتة وراء ابتسامتها الغامضة المعتادة ، استدارت واقتحمت أبواب الكونسرفتوار الضخمة وأشارت الىّ أن أتبعها .

أما كيف لانت هيئة المكتب السياحى ، واستجابت لما طلبت فهذا لم أدركه أبدا .. ربما أحصوا علىّ حسناتى أو اعجابى الصاخب المثير الذى اصطنعته فى المصنع أو العيادة .. وعلى أية حال ، فانه منذ تلك اللحظة فتحت مغاليق الأبواب أمامى . ولا أستطيع أن أقول بأننى كنت ألقى حفاوة وترحيبا . ولكن على الأقل لم تكن تغلق دونى المنافذ .

وصعدنا خفافا ثلاث درجات تؤدى بنا الى متحف روبنشتين حيث توجد المكتبة ، فمضينا نبحث فى أرجائها ، ثم نفتش بين بطاقاتها وقوائمها عن الكتب ، واتخذنا مجلسنا ، ومضينا نطالع ، وكررنا هذه الزيارة المثيرة ستة أيام كل صباح ، وأخذت أمينة المكتبة تأنس الينا بتحية تبديها ، وحتى المرأة الريفية الحارسة على باب المكتبة كانت تناولنا ترخيص الدخول بدون الجدل المعتاد ، وكنا نتخلى عن معاطفنا وقبعاتنا فى البهو « منعا للأمراض » كما لمحت بذلك اميلى .

كنا نجلس الى الطاولة المستطيلة لنترجم ، فى همس ، صحف الموسيقى الروسية القديمة ، وكان كل مقعد بالمائدة يشغله الطلبة ، فتيات وأولاد ، وجال ونساء ينسخون المدونات الموسيقية أو يستذكرون .

كانوا أعجب مجموعة من الناس رأيتها فى حياتى بين جدران أربعة .. يرتدون أسمالا مهلهلة ، وتتهدل شعورهم دون تهذيب ، وكانوا من أعظم من شاهدت لهفة وانكبابا عـلى المعرفة . وكانت مشاعرى كلها تتدفق نحوهم .

ولكن أحدا منهم لم يحاول أن يبادلنى مشاعرى ، أحيانا كانوا يبتسمون لى ، بيد أنهم عندما كانت تستقر عيونهم على شارة المكتب السياحى التى تحملها اميلى على صدرها لا يلبثون أن يخفضوا أبصارهم بسرعة .

ولقد أسرّ الىّ بعض المسئولين أن هيئة مكتب السياحة هى ابنة عم البوليس السرى وكنت أكاد أصدق هذا فى بداءة الأمر ، وكانت صـورة نيقولاس روبنشتين الفوتوغرافية معلقة فى اطار كبير على الحائط الواقع خلفنا وقد بدا فيها بكامل ثيابه وشاربه المتهدل .

كان هذا هو معهده حقا ، وأنشـأه وشيده بالمـال الذى أغدقه عليه النبلاء ، وكان يديره ويدرس فيه الموسيقى الغربية لأبناء موسكو ، موسيقى بتهوفن ومدنلسون وباخ ، ولقد أضفت عليه المدينـة تمجيـدها لفنـه وتقديسها اياه .

كان رجلا له سحره الذى لا يجارى سواء عندما يجلس على البيانو أو عندما يكون فى رفقته البهجة مع خلصائه .

كانت عينا نيقولاس حزينتين فى الصورة ، وقد خفض طرفه « ياقته » وربطة عنقه الرفيعة ، وكان يبدو على محياه الاجهاد والمرض والجد والرقة .. طابع الفنان الأصيل . تلمح فيه السمات المميزة لوجه الموسيقار فى كل مكان . حتى فى استرخائه تلتمع ومضات التوثب وسرعة البادرة ، وأحسب أن هذه الصورة الفوتوغرافية لابد أخذت له عندما تقدمت به السن قبيل رحلته القصـيرة المميتة الى باريس . وأى وصف مميز أدل عـلى طباع

نيقولاس من أنه طلب أثناء استرخائه فى فراشه الباريسى الوثير ، دستة من المحار البارد ومثلجات يتناولها بشهية ورضى ثم يموت ! وتحت الصورة مباشرة تمثال نصفى من البرونز للينين لابسا قلنسوة العمال ونظراته زائغة نظرات سفسطائية تبدو كما لو أنه يعض على نواجـذه استعدادا لابتلاع المعهد وابتلاعى .

لم أكن أبحث عن الأصول الخطية هنا فى موسكو ، وان الجانب المضنى فى عملى والاحاطة التاريخية كنت قد فرغت من أدائهما فى بلادى ، كما أنى لم أكن أبحث عن العلامات الموسيقية التى تفسر أنواع الأنغـام والآلات والسلم الموسيقى ، فان هـــذه المصـادر توجد فى دار الكتب الحكومية ببرلين وهى مجموعة مجلدات ضخمة لأنطون روبنشتين مهـر صفحاتها بتوقيعه وعلى هوامشها شروح مستفيضة خطتها يده . ولقـد درست جميع أوبراته ، كالاشنكوف والشيطان ، والفردوس المفقـــود وسيمفونية المحيط والباليهات وكانت كل واحدة منها فى استيعابها أشـق منالا من سابقتها .

كانت أوبرا « داى راب » تزدحم بحوريات البحر والمخلوقات الخرافية ومناظر بلاط باخوس ، وساتير اله الغابات ، ونصفه رجل ونصفه الآخر جسم حيوان يؤدى دوره الموسيقى على الآلات النحاسية والطبول الصاخبة وقد اشتملت المدونة على وصف شامل لكيفية الأداء الموسيقى ، فى حين أن بطلة الرواية محمولة وقد فارقت الحياة على المسرح فى غمار من الأسى الشامل .

كانت عيناى تتواثبان بسرعة على مخطوطاته ، فقد بلغ اهتمامى مداه ، ومنها استطعت أن أدرك أن عبقرية أنطون روبنشتين كانت تتمثل فى الأداء أكثر منها فى التأليف والانشاء .

ووهت عزيمتى — عجزا وتسليما — من فرط غزارة وفيض الألحـان

المتناسقة المألوفة وسطور الألحان الجميلة المتقاطعة ! حتى عبرت عن ذلك فى مذكراتى بقولى :

اقتصد فى أنفاسك وأنت تسمع اهتزاز الألحان ورفيفها وطبقاتها العالية المدوية ، وأمسك زمامك عندما تكون سوليكا فى أعلى طبقاتها ، ثم أردفت بسطور أخرى أشد توكيدا : « أحمد الله أننى لم أكن جالسة لأحتمل هذا الأداء الرائع الذى يفوق الاقتدار » .

ومما يثير التعجب أن العلامات الموسيقية المعقدة لم تكن بأية وسيلة لتنقص اجلالى لروبنشتين ، فلم تشهد الكرة الأرضية كلها أحدا لعب على البيانو كما عزف .

لقد أفاض أنطون روبنشتين قدرته على أصابع البيانو فى باريس ، ولندن ، وستوتجارت ، ونيويورك .

كان أنطون هو لب البيانو ذاته وأداته !

ولكم وددت لو استطعت أن أسمعه عندما كان يعلم تلامذته ! انه فى كلمات قصار ، كان فى مقدوره أن يشكل ويسك العبارة الموسيقية سكا .

وكان أنطون شديد الاعتداد بنفسه ، مرهفا ، حاد الطباع ، فى قسوة أحيانا ، ففى ذات صباح بينما كانت احدى تلميذاته — وهى انجليزية — تعزف مقطوعتها على البيانو لم يلبث أن ضربها على كتفها مسفها . ولم يكن يخشى القيصر أو الشيطان .. كان يعزف فى القصور وهو يتضور جوعا فى الأقبية . كان فى حياته يعيش للموسيقى .

ان ما كنت أنشده فى تلك المكتبات الروسية لم يكن التاريخ الموسيقى ، ولكننى كنت أنشد تفصيلات لترجمة حياته وسيرته ، الشائعات الخاصة

بحياته ونوادره ، وذكريات أصدقائه وأقاربه . ولقد عثرت فى المجـلات القديمة والرسائل والصحف الموسيقية على فيض منها ، وكان كتابها غاية فى الصراحة والابانة . وأزاحوا الستار عن حقائق لم أكن أتصورها . فمثلا عن سيرج تانييف صديق تشايكوفسكى الوفى ، والموسيقار المتضلع ، الذى اتسمت شخصيته فى عصر الازدهار بسمات الأستاذية والعصمة والمجد والاستقامة .. تولتنى الدهشة لأننى لم أستكشف حقيقة أخلاقه من قبل وزيف ما وصف به ! ولو أن كامنسكى العجوز لمس طرفا منها عندما كان يحادثنى فى باريس عن حياة تشايكوفسكى . واعتمادا على ما جاء فى رسائل ووثائق معينة .. فان الخطايا التى ارتكبها تشايكوفسكى كانت تتضاءل الى جانب ما اقترف الآخر .. كان تانييف مفسدا متلافا فى شبابه حتى كاد المعهد يهوى الى الحضيض بسبب سوء ما اقترفه ، ولقد أثبت فى مذكراتى — التى اصطخبت بما تنعاه — هذه الكلمات تعليقا على ما تكشف لى .. الموسيقيون ! حاول أن تكتب سير حياتهم فلن تجد فيها مثالية . مرة أخرى يتحطم أحد الأوثان . تانييف النظيف ، النقى ، الورع ، وكيف تيسر أن يصفوه جميعا بهذه الصفات ! ها قد عرفت أنه كان فى حياته الخاصة غارقا فى الشذوذ والمباذل والاباحية . ألأنهم فنانون يرتكبون هذا .. لكم أوثر أن أكتب عن رجل طيب !

وازاء هذا ، كان رد الفعل بالنسبة لى ، مثيرا للعجب ، تبعا لتلك الظروف التى يصعب تبريرها ، ولست أستطيع أن أعرف ما اذا كان من الممكن أن أباشر وضع ثلاث تراجم وفقا لتلك القاعدة التى أريد أن أستنها .. فان عبارة « الرجل الطيب » تثير الشك ، وتحديد مدلولها يتباين ويختلف فى كل أمة .

ربما كان من الممكن أن أعثر فى بلادى على مثل تلك الشائعات التى

تلوكها الألسن فى موسكو ، وكذلك كان يمكن أن أجد فى المكتبة الأهلية بنيويورك ذخيرة منها بين مصنفاتها وصحفها .. أو فى أى مكان آخر .. ولكننى لم أكن لأستطيع أبدا أن أعثر على مثل هذه الصورة الفوتوغرافية فى وفرتها وكثرتها كما وجدتها فى موسكو . فهنا عثرت على صور تلك الشخصيات الفنية التى تشغل خاطرى فى مناظر عديدة ، أتأملها وأتفحصها فى بطء حتى غدا أصحابها من فرط تبيانى لصورهم المتلاحقة ، أصدقاء لى .. كصورة نابرافانك بطلعته الملكية وسلسلة ساعته الذهبية .. وصورة سرج تانييف وصورة الناشر الموسيقى جيرجنسون ذى اللحية الكثيفة كما لو كان براهمس ، وصورة تشايكوفسكى واقفا على درج المعهد وصور ستاسون وريمسكى كورساكوف وأوسيب جابر ليوفتش عندما كان غلاما بياقته البيضاء الموشاة وردائه المخملى وصورة أنطون روبنشتين كما رسمها « ربين » بكامل ثيابه ممسكا عصا القيادة ، وعينيه الزرقاوين ، وشاربه الضارب الى السمرة ، وجبها كالفنان ليسزت ، وصورة نيقولاس روبنتشين بشعره المموج وفمه المعبر تحت شاربه وجبهته الشماء ، انه قيصر الموسيقى فى موسكو واسمه نيقولاس . وصورته أيضا وهو لصيق بصدر حبيبته تاندر هولر المغطى بطيلسانها ، هذه الغادة التى هامت بنيقولاس روبنشتين وانتحرت فى روعة الشباب انتحارا رومانتيكيا ، أقدمت عليه اثر جفوة منه فى حفلة موسيقية أقيمت ذات ليلة فى بهو النبلاء .

وذات مساء ، استطعت بحيلة ابتكرتها اميلى أن أصعد الى متحف روبنشتين وهو منطقة محرمة على الزائرين ، ولست أدرى الى اليوم كيف وفقنا الى ذلك — ولا تزال تلك الحادثة تشغل بالى — فهل جاء التصريح بدخول ذلك القسم اعتباطا أم عن قصد ؟

ان معهد كونسرفتوار موسكو يعتبر مشرفا على الفرق الموسيقية كافة

ومشتركا فى توجيهها فى الاتحاد السوفييتى . وقد ذكر لى المدير فى عبارة جازمة ، لم أكن أنتظرها ، أن كل مقاعد قاعة العزف مشغولة ، وأن المتحف يقع فوق تلك القاعة البعيدة المنال عن أى شخص لا يحمل تذكرة بالدخول اليها . وفى ذلك المساء بالذات وقفت أنا واميلى عند درج المكتبة ، ثم دخلنا البهو المؤدى الى قاعة الموسيقى فى الساعة السابعة والنصف ، فى نفس الموعد المحدد لبدء العزف ، وكان يقف عند باب القاعة ، شاب حيا اميلى بحرارة ، وكان ناقدا صحفيا ، كما عرفت ذلك بعدئذ ، وكان واضحا أنه يحب اميلى ، ودون تردد اصطحبنا فى طريقه الى القاعة ، وتبعته اميلى وأنا من بعدها فى أثرها كما لو كانت ساحرة تستحث خطاى .. وألفيت نفسى أخيرا بين يدى مدير القاعة — وهورجل عجوز كان يدرس العزف على البيانو مع نيقولاس روبنشتين — فرحب بى وأمضى ساعتين عازفا كنوز فنـــه .

وعندما هبطت الدرج ، كان العزف قد انتهى ، وكانت صحائف مذكراتى زاخرة بالتعليقات وقد استبدت بى النشوة الى أقصى حد ، وظللت طيلة الأسبوع التالى ، أحضر العزف وحدى كل ليلة ، وكان الحارس الخارجى يحييني آذنا لى بالدخول ، كان الطــلاب يعزفون كالملائكة لحن الجيش الأحمر ، ويرقصون متقدين حماسة لا نهاية لها . وفى الليلة الثانية كانت تجلس الى جوارى سيدة كهلة ، صغيرة الجسم ، وكان رأسها محبوكا بمنديل ريفى ، وكانت يداها وقد وضعتهما على ثيابها الصوفية الســوداء تبدوان وقد اخشوشنت من العمل العنيف الذى تؤديه . وبعـــد عزف المقطوعة الأولى ، غمزتنى بمرفقها ، مبتسمة فى استحياء ، وهى تشير الى المسرح متسائلة عما اذا كنت قد استمتعت بالأداء .. فعبرت لها عن اعجابى بكلمة روسية حفظتها قائلة « رائع » . وبدا لى أن السيدة العجوز قد

سرها ذلك ، وقدمت لى خلسة قطعة من الشكولاتة ، وصرنا صديقتين . وفى خلال الاستراحة مضيت أجوس خلال البنـاء القديم . البناء الذى شـاده نيقولاس روبنشتين . وأخذت أنصت — مفعمة القلب بالرضا — الى عزف الطلبة على البيانو وأوتار الكمان داخل حجراتهم المغلقة . وكان رأسى مشحونا بالمناظر والوجوه التى عرفتهـا . وبدأت أفكر فى وضـع عناصر كتابى .. ثم طبعه .

وفى اليوم التالى ، أخبرتنى اميلى بأن السيدة العجـوز التى كانت تجاورنى هى جدتها قائلة : « كنت أريد أن تتعرف جدتى اليك » ولم تزد ، وكذلك لم أسألها لماذا لم تعلمنى بذلك من قبل ؟ وعرفت أنه لم يكن من صالحى أن أحيّى احدى قريبات اميلى علنا كأصدقاء ، فربما أدى ذلك الى اختفائها بكل بساطة . ولن يستطيع أحد أن يقول بأنها رحلت الى سيبريا .. بل يقال انها « رحلت شرقا » وكان التعبير السائد : « ان فلانا — دون ذكر اسمه — قد أرسل الى الشرق ؟ » .

فى مسرح بولشوى — بالأمس واليوم — تجد مقصورة القيصر وقد اكتست بالجوخ الأحمر القانى الشيوعى وطبع عليه المطرقة والمنجل . وتحمل ستائر المسرح الصفراء سنوات الثورات الروسية : ١٨٧١ و ١٩٠٥ و ١٩١٧ ولكن عندما يرتفع الستار تجد نفسـك انتقلت الى روسيا التى عرفها تشايكوفسكى . روسيا التى كنت أبحث عنها ، حيث كان كبار دوقاتها يختالون فى الأبهـاء وقد انحنت السيدات تبجيلا لهم .. فى تلك الأيام الخوالى التى أطلق يوجين أونجين طلقة غدارته عند الفجر فى مبارزته !

وفى صبيحة اليوم التالى ، جبت الشوارع التى حول ميدان الكرملين رأيت جنود القوزاق يتيهون بقبعاتهم المصنوعة من الاستراخان الأسود

ويختالون مغتبطين بمعاطفهم ذات الأحزمة والتى تكاد تلامس الأرض . وعلى كثب منهم ، مخلوقات رقيقة ، النساء الروسيات ، وهن شاحبات وقد وقفن صفوفا لدخول ضريح لينين ، وكما رأيت رجالا لهم عيـــون الصقور النفاذة المفترسة ، سمر الجلود يرتدون قبعات عسكرية مدببة . عليهم طابع أهل منغوليا ، ولقد أخبرتنى اميلى وهى تتطلع اليهم باحترام بأنهم من آسيا الوســطى . ونظرت اليهم وأحسست بالشرق . فى تلك الوجوه الغريبة القاسية يكمن شيء يخيفنى ، ولو أننى مت فى مكانى فاننى لأوقن بأن هذه الأيدى السمراء لن تمتد لتنتشلنى . فى هذه المدينة قد يداهم الموت الانسان فى أية لحظة . ويستطيع المرء أن يتوقع هذا المصير دائما . ولقد سمعت فى السفارة الأمريكية قصة الفتاة الانجليزية السائحة التى وقعت فى حفرة عميقة أثناء سيرها فى أحد الشوارع .

ان مدينة موسكو تكثر فيها الحفر العميقة التى يسير الانسان على الألواح الخشبية التى تغطيها . ولقد سقطت الفتاة واختفت بكل بساطة . وبعد أسبوع وجدها أصدقاؤها فى المستشفى ، وهى لا تزال فاقدة الوعى ، وقد استدل عليها من ثيابها الملونة الاسكتلندية .

وبعد الظهر ، عندما تتركنى اميلى ، كنت أجول وحدى خلال المدينة حول سور الكرملين ، وبمحاذاة النهر حيث كان تشايكوفسكى يسير وئيدا وحيث حاول ذات مرة أن يغرق نفسه من فرط الحزن .. فى المياه التى تكاد تصـــل فى عمقها الى وسط الانسان . وفى تلك الجــولات كنت أحاصر بالمتسولين ، رجالا ونساء ، وهم تعساء يتضورون جوعا ، لا تكاد تسترهم أسمالهم . وذات يوم رأيت رجلا فارع الطول ، فى زى أنيق مستندا على باب مغلق دون حراك وكان وجهه شاحبا شحوبا مخيفا كأنه قطعة من جلد رقيق مدبوغ .. ولما دنوت منه تملكه الرعب متظاهرا بأنه لم يرنى ولم أكد

أمر به حتى انهار كتلة واحدة على الأرض متمددا ، وحسبته قد مات ، واستدرت وانحنيت عليه أتحسس نبضه فاندفع أحد الجنود نحوى صائحا متهجما وهو يشيح بى أن أذهب بعيدا .. وفى اليوم التالى عندما أفضيت الى أميلى بما حدث أجابتنى بأن أولئك المتسولين هم قوم لا يساوون شيئا ، فهم يرفضون العمل ، كما يأنفون من دخول ملاجىء المسنين .

كانت روسيا عام ١٩٣٧ فقيرة حقا ، وكانت مظاهر الفاقة تبدو فى كل مكان ، كان ذلك بعد المجاعة التى اجتاحت أوكرانيا منذ أربع سنوات خلت ، عندما رأى ستالين أن يميت جوعا ثلاثة ملايين من البشر .

ولكن روسيا لم تسمح أن يغشاها الفقر وقدرت على أن تصحح أوضاعها تحت ظلال أول حكومة شيوعية .. وأن تبقى مساوىء الحياة مستقرة فى الدول الرأسمالية !

لقد قلت لنفسى اننى لم أكن واثقة تماما بما أقول مثلما أرانى اليوم . وأية عقلية هذه التى تدير هذه المشاهد المسرحية فى موسكو .. داخل المسرح وخارجه ! ففى المساء يبدو الميدان الأحمر شعلة من النور ، وعندما تدق الساعة اثنتى عشرة لا يلبث المرء أن يسمع فى الكرملين الألحان صادرة منه بالنشيد الدولى . ويخيل الى أنه ما من أحد يأوى الى فراشه فى موسكو . فحتى الساعة الثانية صباحا ، تبدو الشوارع ولا يزال تنيرها أضواء الأمس . وعندما يقدم شهر يونيه ، فان الصيف فى تلك الأصقاع الشمالية يبدو دون ليل (وفى تلك الأوقات ، فى بواكير الصباح ، كان نيقولاس روبنشتين ، يشاهد ذاهبا الى النادى الانجليزى ليلعب الورق ، ثم يعود الى داره بعد ساعات حيث يستقبله محييا تابعه الوفى المتذمر آجاتون) .

اليوم والأمس .. وبينما كنت واميلى نصعد الدرج الى قباب سان باسيل وأبراجه الخيالية الرائعة .. اذا بموجة عاتية تزأر من فوقنا ، من السماء ، جعلتنا نتعثر ونحن نهبط الدرج جازعين الى الميدان الأحمر . كانت بعض وحدات السلاح الجوى ، تطير فى تشكيلات جميلة استعدادا للاحتفال بيوم مايو ..

وكان فورشيلوف ، ماريشال الجيش يشهد المنظر واقفا على منصة بجوار قبر لينين يحيط به ضباطه .

وقلت لاميلى وأنا شبه حالمة : فى أيام نيقولا الأول .. كان لموسكو استعراضاتها العسكرية أيضا . وكان كبار دوقاتها يقفون كذلك فى نفس المكان الذى يقف فيه المارشال فورشلوف لازجاء التحية .

أما اميلى فقد أجابتنى قائلة :

— كل السياح سواك — يا اكاترينا جنريشوفنا ! — عندما يفدون الينا يتوقون الى مشاهدة ما هو الجديد فى الاتحاد السوفييتى . أنت وحدك تريدين مشاهدة معالم الماضى . أنت وحدك التى تتحدث عن الماضى كما لو كان الأمس هو اليوم . حسنا .. غدا سأصحبك الى سوق الكلاب القديم . انه لا يحوى كلابا .. لأن الكلاب قذرة . آكلة للحوم نحن فى حاجة اليها .. ولكننى سأصحبك الى ذلك المكان .

وكان هذا من اميلى أول اذعان صريح ، وتسليم واضح لما أريد ، وهممت أن أعانقها مقبّلة اياها على وجنتيها شكرا ، لكننى تراجعت حتى لا أشعرها بأنها أذعنت أو استسلمت ، فاننى أدركت — وقد دفعت ثمن دروسى غاليا — ان كل ما أفدته فى تلك الأيام والليالى التى أمضيتها فى روسيا انما يعود الفضل فى احرازه اليها وليس لى . وان الرفاق لا يذعنون

أو يستسلمون لغلبة المنطق .. ففى البلاد الشيوعية تعتبر المداهنة رأس مال النجاح !

وأنا التى كنت فى حاجة الى معاونة اميلى كل يوم ، قد اضطررت قسرا أن أتعلم المداهنة .

وفى الطريق انحنيت لاميلى ، وقد ضممت يدى على صدرى قائلة :

باسم أنطون جريجورفتش روبنشتين وموطنى بنسلفانيا أحييك وأشكرك يا اميلى .

وضحكت اميلى .. وقد بهرها هذا الامتنان .

٢

الحاضر والماضي
لينينجراد وكلين

غالبا ما تحتفظ كل المدن — عبر الأجيال والقرون — بطابعها المميز ، ولمحات من أمجادها وأعراقها الأصيلة ، وتقع لينينجراد على مبعدة أربعمائة ميل فقط من موسكو ، ولما تزل هي مدينة بطرس الأكبر ، أو لقد بدت لى كذلك عندما زرتها برفقة اميلى ، متباينة فى شكلها وطبيعتها عن موسكو القديمة ، اختلاف نيويورك عن مدينة بوسطن .

أقام القيصر بطرس ، هذه المدينة مكان المستنقعات الكائنة عند خليج فنلندا فى القرن الثامن عشر ، وجعل منها عاصمته ، مضفيا عليها أناقة الطراز الغربى ، ورقته ، تتخللها الميادين الرحيبة الأنيقة التى ازدانت بتماثيل الفرسان على جيادهم ، تجاورها القصور الصخرية أو المنازل التى يكسوها الجص «المصيص» الأصفر ، ذات الأعمدة الكلاسيكية البيضاء ، التى وضع تصميمها توماس جيفرسون .

قام برسم وانشاء هذه الأبنية الكلاسيكية الفنان « روسى » ، وافدا من ايطاليا لهذه الغاية . أجل ، فان الذى خطط مدينة بطرس الأكبر هما روسى وراسترلى اللذان أسبغا عليها لونا من سمات الفن المعمارى الروسى ، وقد اتسمت القصور التى شيدت بعد قصر فرساي بتماثيلها المموهة المقامة على أسطحها . واليوم ، تهدمت وأزيلت تلك التماثيل ، بعد أن عدت عليها عوادى الطبيعة ، أو أيدى الرفاق .. ولكنى لقيت فى الميادين العامة فى كل جنباتها ، تماثيل القياصرة والقواد على ظهور جيادهم . ورأيت فى ميدان مجلس الشيوخ القديم تمثال القيصر بطرس ، مرتديا حلة محارب رومانى ،

ممتطيا صهوة جواده الأصيل على قاعدة حجرية باذخة . وفى مواجهة قصر ميشيل ، تمثال نيقولاى الأول حفيد بطرس ، يتيه فوق جواده الحربى ، فى أبهة وعظمة .

وذكرت لاميلى ، وأنا أسائلها ، كيف احتمل حكام موسكو بقاء تماثيل هذه الشخصيات القيصرية المختالة ؟ !

فقالت اميلى : « ان السوفييت لا يحبون أن ينسوا تاريخ بلادهم . ولقد قال ستالين : « اننا يجب أن ندرس الماضى حتى نستطيع أن نفهم الحاضر » .

فأجبتها : « انها ولا شك فكرة صائبة » وأضفت الى ذلك قولى بأنه مما لا شك فيه ان الكرملين قد استن هذه السياسة فى كثير من اتجاهاته .. وكانت هذه الايماءة منى أبعد ما وصلت اليه لابداء النقد .

ومن العجيب — وهذا رأى السياح وأبناء البلاد على السواء — أنه فى هذه البلاد التى يحكمها الثاثرون يضيقون ذرعا ، ولا يحتملون أى اتجاه ثورى !

بعد شهر من مقامى فى موسكو ، صحبتنى اميلى الى الشمال ، لنرى الأمجاد التى خلدها أنطون روبنشتين — ابن بطرسبرج البار — لهذه المدينة مثلما خلد شقيقه نيقولاس لموسكو .

ولقد تقاسمنا أنا واميلى ، فى فندق آستوريا المواجه لكاتدرائية القديس اسحق ، فراشا رحيبا من طراز قديم صنع من النحاس الأصفر فى غرفة النوم التى حللنا بها .. لقد أقام القياصرة هذه المدينة ، وأحسست لأول وهلة بأن القيصر استهام بها ، وأن هذه التماثيل القائمة تسبغ عليها ذلك الجو الذى يضفيه الكرملين على موسكو ، فيعطيها أريجها ولحنها المميز . وبالرغم من اتساع مساحة موسكو وما أعملته فيها يد الشيوعية

من تبديل ، فلا تزال وهى قائمة على تلالها السبعة محتفظة بجوها الاقليمى الجو السلافى الروسى الأصيل ، هكذا كان طابعها فى أيام نيقولاس روبنشتين كما ظلت كذلك عندما قدمت اليها عام ١٩٣٧ . وكان أنطون روبنشتين ، ساكن بطرسبرج ، يباين فى ذوقه نيقولاس ساكن موسكو ، واختلافهما بقدر ما فى المدينتين من تباين ! نيقولاس بأدائه السهل ، وأنطون بأدائه الفخم .

وفى كل مساء كان الأمير دولجوريكى العجوز يستقبل فى موسكو نيقولاس روبنشتين لابسا رداءه الطويل المقصب بخيوطه الذهبية والفضية. وكان معنى هذا أن بطرسبرج لم تكن تطيق ، أو تحتمل التجاوز عن سلوكها الامبراطورى المفروض فى الثياب الموشاة ، والأحذية اللامعة ، سواء أكان ذلك فى قصورها الشامخة أم من صغار التلاميذ فى مراحل الدراسة الأولى. كانت بطرسبرج تعتبر معرضا للأزياء ، والأسلوب القيصرى الرفيع فى أرجاء أوروبا قاطبة ، فى حين يسمع المرء رنين المهماز ويرى الانحناءة التقليدية فى الأبهاء ، وكانت هذه التقاليد الفرنسية قد اتخذت سبيلها الى روسيا بفضل بطرس الأكبر ، واستقرت فى المجتمع الروسى حتى بعد غزوة نابليون وما خلفته من كراهية للأساليب الفرنسية .

ان أبناء موسكو — كما علمت — كانوا يكرهون من أهل مدينة بطرسبرج ذلك الضيق والتبرم الذى يستحوذ عليهم عند زيارتهم لمدينتهم ، ولا يلبثون أن يبارحوها مسرعين ، بمجرد وصول أول قطار يقلهم ، سعداء بطرقات موسكو الموحلة ، عن السير فى رحاب نفسكى بروسبكت ، بما فيها من حوانيت تحاول أن تكون فى أناقتها على غرار حوانيت باريس وما اشتملت عليه من الأزياء النسائية التى تحمل بطاقة صنعها اسم «بطرسبرج» وكانت الحكومة القيصرية قد اجتلبت حشــــدا من الكتبة ومساعديهم

وأسكنتهم فى شقق المبانى بالمدينة ، وكان أولئك الكتبة يتقاضون مرتباتهم فى اليوم العشرين من كل شهر ، حتى لقد قيل ان مدينة بطرسبرج تعيش وفقا لفسيولجية اليوم العشرين .

ذات مساء قالت أميلى فجأة : لماذا يبدو البرد قارسا فى لينجراد التى عليها لعنة الله .

وكنا جالسين فى حجرة الفندق قائمين بأعمال الترجمة وقد تدثرنا بملابس الشتاء الثقيلة ، مع أننا كنا فى شهر مايو ، وهبت ريح رطبة حتى خيل الينا أنها تخترم عظامنا . كانت هذه أول مرة أسمع فيها أميلى تذكر اسم الله ، ولقد غمرنى السرور اذ اشتمل حديثها على الأقل على مبدأ الاعتراف بوجود الله . وفى الأيام الأولى لزيارتنا كانت تبدو أميلى قلقة متبرمة راغبة أن تعود الى منزلها فى موسكو ، فكان علينا أن نمضى ساعات أطول فى أعمال الترجمة وأن نسرع فى عملنا . ولقد ذكرت لها بأن الآية قد انعكست ، اذ أن أميلى فى موسكو كانت كثيرة الاحتفال بمحادثتى ومحاضرتى . تغيرت طباع أميلى منذ اللحظة التى وطئت فيها اقدامنا لينينجراد ، كانت تتكلم بحرية ، وتتجاذب أطراف الحديث ضاحكة ، فى حجرة الفندق وعندما كنا نشعر بالجمود ونحن جالستان لنقوم بالترجمة كنا نقذف بمعاطفنا وملاحفنا بعيدا ، ثم تمضى أميلى تعلمنى خطوات الرقص الروسى وهى تغنى بصوت يشبه الهمهمة وتصفر بفمها وتطقطق بأصابعها بأسلوب الخبير المدرب ، وكان هذا التحول مثيرا ولا يمكن أن يعزى سببه الا الى أننا قد بعدنا عن الكرملين وعن رقابة المكتب السياحى . فى أوقات الضيق تبدو العاصمة متوترة الأنفاس ، ولقد كنا نعيش فى موسكو فى شبه دوامة .

وفى الليلة السابقة على رحيلنا حاولت أن أقدم لاميلى هدية ونحن

فى حجرة الفندق ، وهى عبارة عن دمية صغيرة لم تكن لتساوى أكثر من دولار واحد ، بيد أن اميلى ما لبثت أن أطاحت بها بعيدا ومضت تعاتبنى بعنف كأنما كنت أحاول رشوتها .

بينما سمحت لى هنا فى ليننجراد بأن أهديها قلم حبر ، كما كانت تستعمل عطورى « وكانت أوعية العطور فى أى مكان فى روسيا تعتبر من المعجزات » وفى ذات صباح أخبرتنى اميلى مستحيية أنها آسفة لما بدر منها عندما قذفت بهديتى الأولى ولم تبد تفسيرا ، ولكننى كنت متأكدة وما زلت أن حجرتى فى موسكو كانت مزودة بأسلاك التجسس ، وأن اميلى كانت خائفة .

وان مجرد واقعة أننا نقوم بالترجمة فى حجرة الفندق ينم على أننا بعيدتان عن الكرملين وحكم الارهاب .

فى موسكو لم يكن فى استطاعتنا أن نستعير الكتب من المكتبات ، وكانت مجرد الهمسات التى نفوه بها عندما نقوم بالترجمة تعكر صفو الجالسين بقاعة المطالعة ، فكان حديثنا فى تلك الحالة شبيها بالفحيح أو الهمهمة . وفى الوقت ذاته سمح لنا كونسرفتوار ليننجراد بأن نستعير الكتب ، بل ونأخذ المخطوطات معنا . ومن وقت لآخر كان أمناء المكتبة يتصلون بى تليفونيا ويسألوننى عن سير العمل الذى أقوم به وعما اذا كانت هناك أية وسيلة ، فى مقدورهم ، لمعاونتى .. وكنت أجلس فى مكتبة الكونسرفتوار أتحدث الى أمينتى المكتبة اللتين لا تكفان عن طلب المزيد من الحديث .. كانتا تريدان معرفة المكانة التى تحتلها الموسيقى فى أمريكا قائلتين لى بأنه لم يسبق لهما أن رأتا أحدا مثلى عالما بكل دقائق حياة الأخوين روبنشتين وأعمالهما ، وكانت الذكرى الخامسة والسبعون لانشاء كونسرفتوار ليننجراد قد اقتربت ، وكان قد أعد لهذه المناسبة

كتيب عن حياة منشئه أنطون روبنشتين حاويا كل البيانات المناسبة .

تحدثت الى السيدتين عن أنطون ورحلته الى أمريكا عام ١٨٧٢ ، وكيف أحبه الأمريكيون ، وكيف مضى أفراد أوركسترا فيلهارمونيك نيويورك يعزفون موسيقاهم تحت نافذة غرفته بالفندق خلال الليل . وكيف هبّ الحاضرون بعد الاستماع الى عزفه فى نيويورك وكأنما كانت موسيقاه قد استلبت مشاعرهم . فمضوا هاتفين بحياته وهو على عتبة خشبة المسرح ماثلا أمامهم ، وأنبأتهما أيضا كيف أحاط به طلبة الموسيقى الأمريكيون بعد أن وضعوا موسيقى « فانتازيا الأمريكية » وكيف استشاط غضبا عندما قال الأمريكيون له بأنه بالنسبة الى أنه ولد عبقريا ، ليس فى حاجة الى المرانة على البيانو لأداء تلك المعزوفة . وفى رحلته الى شيكاغو أبدى أنطون شكواه من مياه الشرب التى يعكرها الطين وقتئذ ، فقال له سكان المدينة بأنها مياه مغذية وفى سينسناتى وفيلادلفيا وبوسطن وديترويت ، عندما كان أنطون يأوى الى غرفته بالفندق ومعه البيانو الذى استأجره ، كان يبدأ مرانته فى الحال .

أفادنى هذا الحديث الذى أفضيت به اليهما . وبدا طبيعيا أن نجلس فى تلك الحجرة الزرية التى تغص بالكتب وأدوات الموسيقى نتحادث عن أنطون جريجور فنتش .. وكانت أمينتا المكتبة تصغيان الى وقد حملقت عيناهما استغرابا .. وعندما كنت أعود ، كانتا تطلعاننى على صور أكثر .. الصور الفوتوغرافية لفيلا أنطون الكائنة فى ضواحى بيترهوف .. والتى تقع فى قمتها تلك الحجرة — أشبه ما تكون بالبرج — حيث كان يعمل ، ونضده « طاولته » وأدواته الموسيقية .. والبيانو الأبيض فى حجرة الاستقبال والمصباح الكروى ، والتماثيل النصفية المرمرية .. وأرضية مسكنه اللامعة البراقة ، وتلك المظلة الخشبية التى أقامها فى حديقة الفيلا

التماسا للراحة فى الصيف .. وصور بيته الحجرى المسقف بالقش فى بسارابيا حيث ولد الأخوان بين أحضان التل . وكانت السيرة التى أترجم حياتها واضحة الملامح .. فأنبأت أمينتى المكتبة بالمزيد عن أسرة روبنشتين التى كانت — أصلا — يهودية المنبت ، ثم نبذت شريعتها واختارت المسيحية دينا ، وعمّد أعضاؤها الستون فى كنيسة نيقولاس ببرديشف ، ثم ذكرت للسيدتين ، أنه فى أيام نيقولاس الأول ، كان من المحظور على اليهودى أن يبرح شمالا الى موسكو ، أو يتخذ الموسيقى حرفة . وكان كل يهودى يعتبر بين الناس مواطنا من الدرجة الثالثة ..

وبينما كنا نتحادث ، تارة بالفرنسية ، وأخرى بالانجليزية ، كانت اميلى قابعة فى ركن من القاعة ، لا تريم أو تبرح مكانها . ولكننا عندما كنا نغادر الكونسرفتوار لا تلبث أن تستوقفنى عند منعرج الطريق ناظرة الىّ قائلة :

أنت تنتمين الى طبقة الأعداء . ولكننا فى زمن السلم ، فانه حتى الأعداء يمكن أن يصبحوا أصدقاء . خبرينى يا أكاترينا جنريشوفنا ما هو رأيك فىّ ؟

ولم تلق على مثل هذا السؤال فى موسكو . فقد كنت اذ ذاك عزلاء لا حيلة لى ، وقد بدا منى ذلك وأدركته عنى .

وفى اليوم التالى ، توجهت بمفردى الى الكونسرفتوار لمقابلة مديره ماكسيمليان ستينبرج ولأرى الكمان الذى يقوم بتعليم طلبته بالأداء عليه وذكرت لى اميلى بأنها ستوافينى بعد قليل ، ولكنها لم تحضر . وأمضيت ثلاث ساعات متنقلة من حجرة الى أخرى ، برفقة ستينبرج فى جو يشع بالحرية والهناءة ، وكان الحديث فى السياسة ممنوعا ، وأحسست كما لو كنت فى وطنى . وكان المكان كسائر المعاهد الموسيقية التى عرفتها ،

ورأيت الحجرات العارية من الأثاث ، دون أبسطة ، تصدح فى أجوائها الموسيقى ، كل قاعة بها بيانو كبير أعمل فيه الاهمال يده ، على حين يعزف ولد أو فتاة فى احدى القاعات على الكمان أو الفيولينسل أو كنت أرى أحد مدرسى الموسيقى مسترخيا على مقعده ، أو ماشيا هنا وهناك ، وهو يدخن سيجارته ، ليضيع الوقت .

وتذكرت كلمات أنطون روبنشتين :

« اننى لأحب أن أعلم الموسيقى .. أنا عازف الجماهير أنا المجنون .. أنا الملول ، المتضجر الذى لا يطيق صبرا .. أستطيع هادئا ، راضيا ، أن أجلس ساعات .. ساعات طويلة بقدر ما يبقى فى حياتى من ومضات ، لأعلم تلاميذى قائلا لهم : « ان المعضلة ليست فى انجاز وتعلم هذه المدونات الموسيقية ، بل ان المسألة هى : كيف يبدو تلحينها وتنغيمها .. وهذا هو السؤال .. فأنصتوا وأصغوا الى ذات أنفسكم ! » .

كان يقول لتلامذته فى البيانو ألا يفكروا فى المصطلحات الفنية الجامدة بل يقوموا بالايقاع الموسيقى بأنفسهم . وينشدوا صـــائحين ، وعندئذ يستطيعون أن يحسنوا التعبير ويتنسموا ويتذوقوا لباب الموسيقى .

وبينما كنت أسير فى الممـر لمحت من الأبواب الزجاجية حجرات التدريس المختلفة فأبديت ملاحظة عن ذلك مبتسمة مستذكرة عاصـفة الهياج التى قوبل بها نيقولاس روبنشتين فى موسكو عندما أقام الأبواب الزجاجية فى معهده . ان المعلمين فى أرجاء العالم غالبا ما يقعون فى حب بعض الطلبة ، أو بتعبير آخر يهيمون بتلامذتهم البارعين الذين توحى طبيعتهم بأنهم راغبون فى الاستزادة من الدرس ولكن مثل هذه العلاقات قد تزداد تعقيدا ، فأنا مثلا عندما كنت فى السابعة عشرة من عمرى وقعت

فى هوى لا أمل فيه مع معلم الكمان الذى كان يدرس لى وهو رجل دانمركى جاوز الخمسين .

لقد أبديت ملاحظة عابرة تنم فى دلالتها على أننا قد نأينا حقا عن الكرملين ، فهنا فى لينينجراد لم تمر بى أمثال تلك السخافات التى لقيتها هناك ، كما أن ماكسيمليان ستينبرج لم يجهر بمعاونات الشيوعية أو بمثل ما سمعته فى موسكو أن الموسيقى أداة « للكفاح » . ان جدران كونسرفتوار موسكو قد علقت عليها الشعارات الشيوعية مثل الموسيقى العمالية ونحوها من العبارات الدعائية التى تخلط الأنغام بالشيوعية ، والفن بالدعاية ، كذلك وجدت فى حجرة مدير المعهد تمثالا نصفيا من البرونز للمرشال فورشيلوف أكبر من تمثال لينين بينما يقبع فى ركن من الحجرة تمثال نصفى ضئيل مهمل صغير لبتهوفن وكان من الضآلة بحيث اننى عبرت الغرفة حتى وصلت اليه لأتبينه . لقد أدركت ان مثل هذه العبارة والحوادث الصغيرة لم تسىء الى تعليم الموسيقى فى موسكو أو تفسد أداء الطلبة وحسن استعدادهم . بل ان انطباع هذه الأشياء على نفسى كان عكسيا بحيث نبذ تفكيرى أى تجاوب نحوهم .

وهنا رأيت فى لينينجراد ، وقد غمرتنى السعادة ، بأن القوم يتعلمون الموسيقى لمجرد هوايتها وليس بدافع خارجى آخر . ولقد استمعت الى أحد أساتذة الكمان وهو من تلامذة الفنان الكبير « أور » وأذكر أن اسمه آيدلين . وكان الفتى الذى يتلقى الفن عليه يعزف الحركة البطيئة لكونسرتو مندلسون . وكان فتى بدينا ، يقرب من الثالثة عشرة من عمره وكان وجهه متوردا من فرط الجهد الذى بذله ، وقد وقف مبعدا قدميه عن بعضهما بعضا وكأنما زرع فى الأرض زرعا . وكان رجع الصدى فى تلك الحجرة يبدو عنيفا . وكل هفوة فى الأداء تفضح صاحبها

فيهب آيدلين فى وجه مقترفها صائحا ثم يقول : اثنين .. ثلاثة .. واحد اثنين .. ثلاثة ، وتناول الكمان من تلميذه ومضى يحدثنى موجها الكلام الى تلميذه باللغة الروسية « لتكن أشد قوة » . ثم التفت نحوى قائلا : « لقد أنبأت هذا الغلام بأن وجهه محتقن من فرط الجهد الذى يبذله ، ان مثل هذه الموسيقى يجب ألا يتخللها أو يفسدها الجهد ، بل يجب أن تمضى على سننها .. يجب أن أسمع الموسيقى ذاتها دون أن يمتزج بها تعب عازفها .. يجب أن يسمعنى اياها كذلك .. وتناول آيدلين الآلة الموسيقية واضعا اياها تحت ذقنه ، ومضى يكرر افتتاحية المعزوفة على أنماط متعددة ، وكان اللحن يبزغ واضحا .. قويا .. خفيفا كالنسمة .

وساءلت آيدلين وأنا أتلهف على فنه : « لو أننى قدمت الى هنا بوصفى تلميذة .. فهل تعلمنى ؟ » فابتسم ايدلين ، كما ابتسم ستينبرج وتصافحت أيدينا .

مكثت واميلى عشرة أيام فقط فى ليننجراد ، وفى كل أعوام خبرتى التى أمضيتها ككاتبة للسير والتراجم ، لم يصادفنى قط أن وجدت مثل تلك المواد التى حصلت عليها بسرعة وفى صميم الموضوع الذى أنشده من البداية الى النهاية كما وفقت فى ليننجراد .. وفى الواقع لم أكن أنا الذى أتممت هذا العمل السحرى ، فان أحداث الماضى كانت تتوالى أمامى أو يساق حديثها الىّ من منابعها . كانت لينينجراد مدينة الجسور والقنوات والدلتا والمستنقعات التى ردمت — يشقها نهر نيفا كشارع واسع . ورأيت الجزر الصغيرة المتناثرة على النهر وقد غصت بالأشجار ، بديعة كما كانت أيام أنطون روبنشتين ، وكان النبلاء يقيمون بيوتهم « ڤيلاتهم » الصيفية على تلك الجزر ، وكانت صديقته وراعية فنه الدوقة العظمى هيلين بافلوفنا تعيش فى قصرها الباذخ فى جزيرة كامنوى حيث كان أنطون

يسكن أيضا فى فصل الصيف بصفته قائد العزف لأوركسترا الدوقة . وكان أنطون اذ ذاك يطلق على نفسه « حارس الموسيقى بالقصر » وكان وقتئذ فى الثانية والعشرين من عمره ، أنيقا ، خلابا . وكان العمل الذى ينهض به هو تأليف ألوان الفالس للغـادات حتى يستطعن الرقص فى الأمسيات ، وتعليمهن الأغانى و « الأوبريتات » التى سيقمن بانشادها . ولا يكاد يمضى أسبوعان حتى يقع فى غرام جديد مع احدى الأميرات الصغيرات واحدة ، بعد أخرى . ولقد قيل يوما — ان أنطون كان عشيق هيلينا بافلوفنا . ولكنه حديث غير مرجح ، مع أن أنطون كان معجبا بها ، وانها عاونته طيلة حياتها فى مشروعاته . ولولا هيلينا بافلوفنا لما استطاع أن ينشىء معهده الموسيقى. وهنا — فى تلك الجزيرة الساحرة كتب أنطون من درر ألحانه الحبيبة « كامنونى أوستروف » و « لحنه فى ف » وهـو فى حجرته التى كان يستشرف من نافذتها ليالى الصيف البيضاء .. والسفن الحربية راسية عند قلعة كرونستادت ، حيث يتسع الخليج نحو بحر البلطيق .

وفى جزيرة فاسيليفسكى كانت مبانى الجامعة ذات القرميد الأحمر تقوم خلف الأشجار .. وفى أيام روبنشتين كانت الجسور « الكبارى » العائمة ترفع فى الشتاء ، فكان طلبته يعبرون النهـر سائرين على ألواح خشبية فوق الثليج لسماع موسيقاه بالجامعة . ونحو الغرب ، كانت تبدو الفنارتان القديمتان وكانتا تبدوان لى بطرازهما الاسكندنافى الفريد . وكان البحارة يسيرون على الأرضية وهم يتكاثرون فى كل مكان ، يتجمعون عند عتبات المنازل أو عند قاعدة تمثال القيصر بطرس ، ليلتقط رفاقهم صورهم . وان جماعاتهم لتمر بى الآن ، موردة وجناتهم ، شديدة أجسامهم ترفرف أشرطة قبعاتهم فى الهواء .

وعند أعلى النهر تتشـامخ عابسة قلعة سانت بيتر بلونها الداكن وجسرها المتحرك بينما تتساوق أبراج الكاتدرائية بأضوائها الى عنـان السماء المكفهرة . وكان آخر معتقل سياسى أخلى سبيله من تلك القلعة فى عام ١٩٢٤ . بيد أن لذلك الحصن تاريخا دمويا فى الاغتيالات والجلد حتى الموت ، وحوادث الجنون التى لحقت بمن عذبوا بين جدرانه الموحشة الرهيبة . ورأيت على حوائطه رسوما سخيفة حفرت عليها لتسلية العامة من الزائرين ، فبدت فى ذلك الوضع المتناقض كما لو كانت حلما ثقيلا . وكانت الأشجار بالنهر على امتداده ، وكنا فى أوائل شهر مايو وقد أخذت الأغصان تورق بلونها الأخضر الرقيق ، ولكن الجو كان لا يزال قاسيا ، وضياء الشمس يبدو ثم يحتجب والصباح يلفه الضباب الزاحف من بحـر البلطيق . ولطالما فر أنطون روبنشتين فى هذا المناخ الى ايطاليا كلما وجد الى ذلك سبيلا ، حتى تجف عظامه التى هرأتها رطوبة بطرسبرج كما كان يقول ..

وكانت الميادين لم تزل مرصوفة بعناية بالألواح الخشبية . وكنت أعرف الشوارع التى شقها القياصرة بأسمائها مما طالعته عنها ، لم أشهد تلك الأسماء فى زيارتى ، فقد بدلت الأسماء فى لينينجراد أيضا كما حدث فى موسكو منذ اندلعت الثورة . وصار اسم ميدان مجلس الشـيوخ ميدان رجال شهر ديسمبر — اشارة الى أول محاولة مفجعة للثورة منذ عهد بعيد .. واسم ونفسكى بروسبكت استبدل باسم طريق ٢٥ أكتوبر . وخطر لى ، فى لحظة خاطفة من التخيل ، ماذا يكون عليه الحال مثلا اذا تغير اسم الشارع السادس بنيويورك الى شارع الأمريكيتين ؟ ان الحروب والثورات لا تقدر مدى العنت الذى يقع فيه المواطنون حتى يمكنهم الاعتياد على هذه الأسماء الجديدة .

كنت أجوس شوارع تلك المدينة العظيمة كشخص مسلوب يحيا فى غيبوبة . كانت كاتدرائية سانت اسحق آية تنطق بالأسى . ولقد استشعرت كما لو كنت فى حلم وأنا بين تلك الأعمدة الجرانيتية الخرافية التى صنعت من أحجار سيبريا اللازوردية تلمع فيها عروق معــدن المالشيت بسناه الأخضر البراق . وفى كاتدرائية كازان الكبرى رأيت الأعلام الشيوعية الحمراء ، قد غطت المحراب ، وعند قاعدة المذبح ، حيث كان الصليب قائما يوما ، أقيم مكانه تمثال نصفى للينين من الرخام . على حين عبثت الأيدى المتبربرة على نحو لا يمكن تصديقه بقصر تساركوسيلو حيث كانت الامبراطورة كاترين تدير شئون الحكم فى حجراتها الفضية اللامعة . ورأيت قصر ميشيل الذى أمضى فيه أنطون روبنشتين شتاء كاملا ضيفا على هيلينا بافلوفنا بصفته رب الموسيقى وحارسها .. ووقع بصرى على بهو الدرج المرمرى متدرجا فسيحا فى صعوده ، يزدان بالأصص المصنوعة من معدن المالشيت ، طويلة فى ارتفاع رجل .. فطالما وطئت أقدام كبار القواد هــذه الأرضيات اللامعة ، وعقيلاتهم يتأبطن أذرعهم فى أناقة واحتشام .. فى حين كان سائقو عرباتهم ينتظرون فى الخارج أمام المدافىء فى معاطفهم المصنوعة من الفراء وقبعاتهم العالية التى يزينها ريش الطواويس ، ولقد عزف أنطون مرارا موسيقاه فى صالونات القصر العلوية .. على حين كان القيصر نيقولاس الأول جالسا خلفه ، سائلا اعادة أغنية كذا .. وكذا .. مترنما ، مصفرا ، موقعا بقدمه أجزاء اللحن . وكان الدوق العظيم ميشيل ، زوج هيلينا بافلوفنا متعصبا للأوبرا الايطالية الحديثة . ولقــد كان يأمر ضباط حرسه أن يجلسوا خاشعين خلال استماعهم الى أوبرات جلينكا الروسى ، وعندما كان ليسزت يفد الى المدينة ، كان الدوق ميشيل يتساءل باللغة الفرنسية عما اذا كان قدوم ليسزت يعتبر تحديا سخيفا لعبقرية جلينكا ؟

ورأيت بهو النبلاء ، كان يومها مرصعا يخطف سناه الذهبى والفضى الأبصار ، وبهو الرقص الذى تقع على جوانبه صفوف من الأعمدة الباسقة ورأيت أيضا قصر الشتاء الذى كانت حوائطه البيضاء الناصعة تعكس أنوار عشرين ألف شمعة أضيئت فى أبهائه . وخارج قاعة الرقص ، كان يقف حراس القيصر من رجال المدفعية بأجسامهم الفارعة وقبعاتهم المصنوعة من جلود الدببة يحرسون جلالته أثناء الرقص . وعندما عزف أنطون لأول مرة فى بطرسبرج ، وكان اذ ذاك فى سن اليفاعة والصبا الباكر ، ما لبث عازفو فرقة القيصر الأربعون ، أن أخذتهم النشوة . وقد حرصوا جميعا على استماع ألحانه وحفظها . اذ بدا على القيصر شدة تأثره واعجابه بأداء هذا الفنان الذى لا يجارى .

ان كل ما رأيته ، لم يكن فى الحقيقة ، الا أصداف المعرفة ، مجرد القشور المتصلة بأيام الأبهة القيصرية ، ولكنى ما زلت أراها ، حتى بعد مغيبها ، لأنها كانت تحمل روعتها فى ثناياها .

كانت قصور الأمراء تمتد على نهر نيفا مســــافات طويلة .. وكانت النسور الامبراطورية تزين المداخل العليا لأبوابها الخارجية وقد طليت بألوان قانية ، وسوداء وذهبية فاخرة ، واليوم ، حطمت النسور وشوهت معالمها ، ومن السهل على المرء أن يرى آثار أيدى الرفاق خلال نوبات ثورتهم ، ولقد أشرت لاميلى بيدى الى تلك المعالم فانتفخت أوداجهــا غضبا قائلة :

« النسر ؟ ألا ترى بالأمس كيف حكم الرفاق عليه بالفناء فى الباليه ؟ » .

وحقا لقد رأيت ولن أنسى فى حياتى ذلك المنظر . ففى المشهد المسمى أيام الانتصار ، وقف أفراد الباليه من الذكور ، لابســين أحــذيتهم ، ومعاطفهم القوزاقية الجلدية ، وقد انتزعوا العلم الامبراطورى من مكانه ،

ومضوا يرقصون حوله ، وراحوا يضجون صياحا بالموسيقى احتفالا بالنصر . وكنا — أنا واميلى — قد دعينا الى أحد الألواج ، تشاركنا فيه ممثلة الباليه الشهيرة فاجونوفا وستة من البحارة الاسبان الذين خاضوا غمار الحرب الأهلية فى اسبانيا ، والذين كانوا قد ألزموا بالحضور الى هنا — كما ذكروا لى ذلك صراحة كلون من ألوان الدعاية وتلك كانت أول مرة ينخفض فيها مستوى ممثلى الباليه ، فينزلون من علياء فنهم ، ويمارسون الرقص الشعبى . ولقد أخبرتنى فاجانوفا أنهم يحسون بعصبية بالغة لهذا التحول الذى لا يعرفون مدى نتائجه ، وخاصة فيما يتصل بالحركات الانزلاقية التى تبدو فى رقص أهل جورجيا ، حيث تجرى الراقصات على خشبة المسرح على نسق رتيب دون أن يخطئن فى بوصة واحدة عند رفع أقدامهن . وكانت فتيات الباليه فى شبه ثورة ، فان هذه الخطوات لا تنتسب الى فن الباليه الذى درجن على التمرن عليه سنوات عدة . وتساءلن عن مدى الاذلال والاهانة البالغين اللذين يتعرض لهما باليه لينينجراد ، بشهرته الفنية العريقة ، اذ أخفق أفراده فى مضاهاة الخطى الراقصة لأية فلاحة من جورجيا تستطيع أن تؤديها بكل بساطة .

ولقد أخبرتنى فاجانوفا بأن راقصات الباليه قد أخفقن فعلا ، حتى اجتلب فانوفن معلم الرقص فتاة فلاحة من القوقاز لتعليمهن خطوات تلك الرقصات .

وقد عرضت رواية « أيام الانتصار » فى مسرح مالسنكى القديم ، ولم يحدث لى أن أحسست بحنين دافق الى الوطن كما أحسست عندما دلفت الى هذا البناء . وهو مسرح صغير أليف أصلح من سواه فى تقديم أوبرات تشايكوفسكى وباليهات روبنشتين وأساطير رمسكى كورساكوف . فى هذا المسرح شاهدت بحيرة البجع والجمال النائم وروز الكا وحكايات

القيصر والسلطان ، وعندما كنت هناك لم يكن مسرح مالسنكى قد شوه بأية علامة أو رمز ماركسى . وفى البهو كانت المقاعد مريحة ذات مساند نجدت بالحرير الفاخر وقد أحالت الأعوام لونها الى زرقاء باهتة . وعلت المقصورات « الألواج » ستاير مخملية مزركشة ، ورسمت عرائس البحر على ثريات المسرح وهن سابحات عبر السماوات ، وأقيم فى قاعة المسرح تمثال نصفى وسيم لأنطون روبنشتين باديا فى أوج صباه وحيويته مواجها موزارت من ناحية وفاجنر من ناحية أخرى . كان أنطون يكره ريتشارد فاجنر ومصنفاته ، ولكن أنطون كان يحب الشهرة وتقدير أبناء وطنه له وليس بصحيح آنه كان معجبا بوضع تمثاله بين هذين العملاقين .

لقد وصفت رواية أيام الانتصار مناظر الجماهير حاملين لواءهم الأحمر خفاقا ، بينما سار على خشبة المسرح عشرون ممثلا يؤدون دورهم الحماسى المنتصر وهم ينشدون من أعماق قلوبهم ضد أعدائهم .

كانت معجزة فنية وضعها جورج كوهان اهتزت لها أوصالى وانهملت الدموع من عينى تأثرا وأنا أردد هتاف الاعجاب وسرت فاجانوفا من انفعالى متسائلة كيف وأنا امرأة من بلد رأسمالى قد بكيت تأثرا وانفعالا من هذه الدراما التى تمثل الثورة الروسية فأجبتها : « لأنه أداء رائع ولأنه مسرح عظيم ! » . فاستغرقت فاجانوفا ضاحكة مبدية ارتياحها ، ولكن اميلى استنفزها قولى فاستطردت : ان هذا الباليه لم يكن مجرد قصة خرافية بل هى قصة حقيقية كلها . انها قصة نهضة نظامنا الاشتراكى المجيد .. وبعد الحرية التى نعمت بها فى لينينجراد نسبيا ، كان يروعنى أن أعود الى موسكو بكل مذاهبها وأفكارها الفاشلة ، ولكننى عندما وصلت الى الفندق وجدت مبعوثا من المكتب السياحى يقدم الىّ أحر تمنياته . ويظهر أنه فى أثناء غيابى طلب بعضهم الالتقاء بى ؛ اذ توجه الى

موسكو الرفيق روكا فيشنيكوف أمين متحف تشايكوفسكى بمدينة كلين ليكتشف ماهية السيدة « باون » وكان يحمل فى يده الكتاب الذى وضعته عن ترجمة حياة تشايكوفسكى . وقد وصلته عدة رسائل عنى — كما قال لى بعدئذ — وظل أسابيع يتوقع مجيئى متسائلا : لماذا لم تتصل السيدة باون « بكلين » تليفونيا .

سرتنى هذه القصة غير المتوقعة ، ولكننى كدت أفسد كل شىء عندما أردت أن أذكر لمندوبى المكتب السياحى ، انه كان الأولى بهم أن ينصتوا الى ما أبديه من حديث ، بدلا من مضايقتى والارتياب فى أمرى . ومحاولة تعقب آثارى من يوم أن حللت بينهم منذ شهرين حتى يوم رحيلى ..

وكانت اميلى واقفة الى جانبى بجوار النضد « الطاولة » ، وأحسست بقدمها على قدمى وهى تضغط عليها بشدة لما سأقوله ، وأخيرا تنفست طويلا ثم قلت له : شكرا كثيرا .. ومتى سيرتب لى المكتب السياحى الرحلة الى كلين ؟ فأجابنى المندوب باسما : « ان كل شىء أعد لهذه الرحلة » .

وفى محطة كلين سنجد غدا من يرشدنا ، ثم تقلنا السيارة الى بيت تشايكوفسكى بالقرب من مادانوفو حيث سيلقانا الرفيق روكا فيشنيكوف .

ومضينا متجهين الى كلين ، فى صباح اليوم التالى ، وكان الجو مطيرا سيئا وباردا . وكانت المدينة على بعد ساعتين بالقطار من لينينجراد ، وكنا أنا واميلى ، وحدنا فى المقصورة ومضيت واميلى تتسلى باحدى ألعاب أوقات الفراغ ، وهذه اللعبة التى ابتدعتها اميلى فى أثناء وجودنا فى لينينجراد عبارة عن أسئلة خيالية تبدأ بأن تسألنى أميلى عن الموعد المحدد لوصول باخرتها الى نيويورك ؟ فأجيبها قائلة : فى الصباح الباكر . فى وقت مبكر نستطيع معه أن نصل الى الشارع الخامس ونمضى اليوم بطوله فى شراء

حوائجنا الى ما قبل الموعد المحدد للكوكتيل وميعاده الساعة السادسة بعد الظهر ، وبعد ذلك يتعين علينا أن نرتدى ملابس السهرة لأننا سنتناول العشاء عند السيدة كورنليس فاندربلت .. وتسألنى اميلى : هل سأرتدى فستان المساء : « الفستان المخملى الأسود .. الذى يسترسل هنا . وهنا » مشيرة الى صدرها وحذائها . فأجيبها قائلة : « أجل .. الذى يسترسل هنا وهناك ، ولكن ألست ترين أن الفستان الأزرق الساتان الفضى يكون أليق انسجاما عليك متفقا مع عينيك وشعرك ؟ .. » .

وتقول اميلى : « وهل سأذهب الى منازل أصحاب الملايين الرأسماليين وأراقصهم ؟ » .

فأجيبها : أجل .. ولكن يجب أن تراقصى فقط الشبان من أصحاب الملايين وليس العجزة الأشرار فهم الذين يسخرون العمال .

ولم تكتف اميلى بهذا القدر .. فمضت فى تخيلها فى تلك اللعبة المسلية . ففى الشارع الخامس سنشترى ثياب الكوكتيل والأحذية عالية الكعوب والملابس الداخلية والقبعات المزدانة بالأزهار ، وسألتنى أولا عما اذا كنت سأدعو لذلك تابعى الملون هوارد ليتناول معنا العشاء بمنزل فاندربلت ؟ لقد حدث مرة أن أشرت الى اسم هوارد ولم تترك اميلى هذه المناسبة تمر بسلام — بل طالما أثارت اسمه فى مناقشة مذهبية تنتهى بانتصارها الحتمى . وبعد أن أفضيت لها بأننى لن أداوم هذه اللعبة الا اذا تخلت عن اقحام اسم هوارد لم تعد تذكره بعدئذ . ثم تسألنى اميلى هل سينحنى لى شريكى فى الرقص فى قاعة المرقص .. هكذا « ثم تمضى قائلة : « وماذا سأفعل عندئذ ، هل سأتناول ذراعه ؟ » كانت مقلدة باهرة ، كل حركاتها بارعة وصحيحة .. ومضت تساءلنى : وهل سيرتدى مرافقى قفازا أبيض من الجلد الرقيق ليراقصنى .. وهل سأضع سوارى الماسى

فوق قفازى الطويل .. هكذا ؟ فأجيبها « انه ليكون شيئا مؤسفا أن تغطيه » .

ولم يكن ثمة نهاية أبدا لمثل هذه اللعبة .. أو أى مغزى بالطبع . وفى الوقت المناسب كانت اميلى تتوقف ببساطة عن الاسترسال فى حديثها .. محدقة أمامها فى الفضاء لحظات . ثم تعود لأداء دورها كمرشدة لى ، وكنت أحار أحيانا فيما اذا كانت هذه اللعبة يمكن تطبيقها على ما أبديه من التناقض الصريح نحو سلوك الرفاق العمال ، ولو اننى فعلت ، كما أخبرتها بذلك ، لما وجدت واحدا من أنصار مبادئهم أو من أصحاب المذهب الماركسى يدفعنى فى عربات الترام حتى أنكب واقعا على وجهى ، أو يندفع كالسهم من الأبواب ، مقتحما السيدة التى أمامه ، ثم يغلق الباب بعنف فى وجهها . وسألتنى اميلى : « كيف تخرجون من عربات الترام فى بلادكم؟» وكانت دائما تدافع عن أبناء جلدتها ، وكنت دائما أذكرها بأننى عرفتها فتاة مدللة وأن سلوكها الوديع لا غبار عليه أبدا .

وكان من المفارقات الساخرة ، اننا عندما وصلنا بالسيارة الى باب متحف تشايكوفسكى ، وجدنا فى انتظارنا سيدا دمثا لا يختلف فى سلوكه الرفيع عن أى شخص فى أى زمان أو مكان . كان روكافيشنكوف رجلا فى الخمسين ، يتحدث الفرنسية بذلاقة ، ولا يعرف الانجليزية ، وقالت اميلى هامسة : « اننى لا أفهم الفرنسية . ومع هذا ففى مقدورك أن تحادثيه بحرية تامة » وقبل أن أستطيع استيعاب ما مر بى جيدا كنا قد وصلنا الى بيت تشايكوفسكى وانحنى روكافيشنكوف أمامنا عند دخولنا باب حجرة الاستقبال وفى تلك اللحظة غلفتنى غلالة من السرور ..

هنا ، وعلى هذا النضد « الطاولة » كتب تشايكوفسكى سيمفونيته

السادسة ، كان يوجد البيانو الخاص به طراز « بيكر » ولا تزال على وراقة مكتبة آثار سطوره .

رأيت مخطوطات باليه « الجمال النائم » وبعض مسودات ألحانه الأخرى — كتبها بالرصاص وآثار تصويباته وتبديلاته عليها ، وعلقت على الجدران صــور فوتوغرافيــة لأسرة تشايكوفسكى واخوته أوديت واناتول وصور بنات اخوته وابنــة أختــه دافيدوف المحبوبة حسناوات شابات فى مآزرهن الطويلة ، عقصن شعورهن ، باسمات وهن محدقات نحو آلة التصوير . وأكاليل الزهور التى قدمت تمجيدا لذكراه قد ذوت وهى محفوظة وراء الزجاج قد علاها الغبار وكان جو المنزل باردا ، ولكن الضوء يغمره . وخارج المنزل ، وفى الحديقة الصغيرة تنمو الأزهار .

وصعدت الدرج مع روكافيشنكوف ، وكان يرتقيه درجتين درجتين كفتى صغير ، وهنا لم يكن المتحف تغشاه ذرات التراب ، أو تحتجب أشياؤه وراء الزجاج ، بل كانت معروضة بحالتها تمثل ماضيهــا . وكان فراش تشايكوفسكى ضيقا ، علقت ملابسه على مسمار ، وفى خزانة حجرة النوم ، رأيت قبعات تشايكوفسكى على الرف صنعت من المخمل الأسود — والقبعات المسطحة من القش ، غاية فى الأناقة . وأربع قبعات عالية من الحرير . وعلى التسريحة أكثر من عشر زجاجات للعطور — جورليان كابريس ، وباى روم وزجاجة لتقوية الشعر لا تزال بها ثمالة من السائل . وصناديق القبعات على الأرض ، وحقيبة سفر صغيرة معدة لكى يرحل صاحبها على التو .. وساءلت روكافيشنكوف : « والى أين كان يذهب تشايكوفسكى ثانيا » فأجابنى مزهوا : « يتوجه الى بريلوف لزيارة ناديجا فون ملك ؟ أو فلورنسا مع أخيه أناتول ؟ أو الى كامبردج ليتلقى آخر ألقابه العلمية كدكتور فى الموسيقى » أحسست بألفة عجيبة هنا ، فى حجرة

نومه الصغيرة ، حتى استشعرت بأننى متطفلة وقلت لروكافيشنكوف « يجب على المرء أن يطرق الباب عندما يلج هذه الحجرة » . فابتسم ونزلنا الدرج ، وكان قد أعد لنا الشاى فى ابريق كبير بحجرة الطعام ثم مضينا الى حجرة الاستقبال وظل يحادثنى حتى الرابعة بعد الظهر عندما تناولنا الغداء فى أوعيته القديمة التى يتصاعد منها البخار .. حساء البطاطس ، بقشدته الحريفة ، ثم السمك والخبز الأسود . وكنا ستة أشخاص ، روكافيشنكوف واميلى وأنا ، وعامل التلغراف وفتاة جذابة طالبة فى كونسرفتوار موسكو ، تقيم فى منزل تشايكوفسكى .

وفى الخامسة قدمت السيارة طراز « دروزهسكا » المكشوفة لتعود بنا ، يقودها نفس السائق الريفى المتهدم . وقبل روكافشنكوف يدى مودعا ، منحنيا لاميلى ، وتوجهنا الى المحطة على بعد ميل ونصف ، وما بدأنا المسير حتى هطل المطر مدرارا .

وأحسسنا بلسعات البرد تنفذ الى عظامنا ، وقطعنا تذاكرنا ، فى الوقت المناسب وأقلنا القطار البطىء الذاهب الى موسكو ، واتخذنا مجلسنا فى عربات لا تتوافر فيها الراحة بين جماعات من الفلاحين يعزفون على الأوكرديون ، منشدين ، وكان بعضهم يبدو مرحا ، لعب الشراب برأسه . غدا كان يوم الراحة .. وعلقت على ذلك لاميلى بقولى : « مساء السبت .. هو كذلك فى كل الأقطار » وكان الى جوارنا مزارع عجوز ، يرتدى سترة للعمال وحذاء باليا عتيقا ، ولم يلبث أن قذف به من القطار جندى شاب ، وركع الرجل على ركبتيه وكان ثملا ، وأخذ يهذى بكلمات مختلطة بعد أن سقط الجندى الشاب على الرصيف أثر القائه اياه ، وكان العجوز يتضرع اليه ، مترثرا بعبارات كالأطفال . ومن الواضح انه كان يتوسل اليه ألا يزيد فى عقابه ، ومن الواضح أيضا أن الجندى الشاب لم يعره

التفاتا ولكنه كان راغبا فى التخلص منه . ومضى الركاب الى نوافذ العربة يشهدون المنظر ، يضجون بالضحك وابداء النصح . وتحرك القطار .. ورأيت الجندى يهرع نحوه ليستقله متبرما .

وكان هذا المنظر ، على غير ما كانت تهوى اميلى . فان الرعب الذى شمل الريفى العجوز ، وتضرعه الى صاحب السلطان ، كانا أقرب ما يكونان اتصالا بالقيصرية ، وأبعد انسجاما مع الشيوعية كما حسبت أن تكون !

وذكرت لى اميلى ، بهذه المناسبة ، بأننى الأمريكية الوحيدة التى سمح منذ خمس سنوات أن تفد الى كلين ، فأجبتها اننى من أجل هذا أحمد الظروف التى واتتنى . وأضفت الى ذلك « والى جانب هذا .. فانه فى أمريكا أيضا يوجد سكارى . وهم لا يقلون عن الرفاق اجادة وروعة فى الانشاد والغناء » . وأشرت بيدى من النافذة مودعة السيارة ، التى مضت فى طريقها ، معربدة صاخبة . وأغلقت النوافذ ، وانبعثت الروائح الكريهة والذباب .

وساد القطار صمت طويل . وقطعته اميلى مشيرة الى أن الرفيق روكاتشنكوف رجل عجوز مهذب قائلة « لقد انحنى لى وفتح الباب لأدلف منه أولا .. فأجبتها : « ان السيد روكافيشنكوف سيد مهذب من طراز قديم مثلى .. » وأضفت بأنه ربما يكون على طراز جدة اميلى ؟ فهزت اميلى رأسها . فلابد أن جدها كان قد خلق من طينة غير التى صنع منها روكافيشنكوف .. ولكننى مضيت أؤكد لها .. ولكن هذا السلوك الجميل القديم .. لا يؤذى أحدا .. أو هل يؤذى ؟

فهزت اميلى رأسها مرة أخرى ، وتكلمت ببطء وهى مستغرقة فى تفكيرها قائلة : « لا .. يا أكاترينا جنريشوفنا ، انه لا يؤذى » .

وكانت الشمس حين مرورنا بالبطائح والمستنقعات شديدة الحرارة ،

وقد أزهرت أشجار الكستناء ، وتضوع شذى زهرها فى محطات السكك الحديدية ، وكانت الأزهار فى كل مكان ، تبدو كبيرة ، متآلفة ، منتشرة . وقبل أن أبارح روسيا ، سافرت جنوبا الى مدينة كييف بدون اميلى . وكان الأخوان روبنشتين من مواليد الجنوب وكنت فى حاجة الى التزود بلمحات عن البلاد الخصيبة التى ينمو فى رباها نبات الفاونيا فارعا فى طوله ، والتى يسودها الضباب .

وكانت شطآن نهر الدنيبر رملية ، وعند جرفه وفوقه رأيت الدير العتيق بأبراجه الذهبية المشعة ، هنا ، مضت أسرة روبنشتين فى رحلتها تحرسها أسنة الرماح وقد توقفت فى رحلتها شمالا فى برديشف ، وكان أنطون فى الخامسة من عمره فقط فى ذلك الحين ، ولكنه ليذكر هذه الرحلة . وكانت أجراس نواقيس الدير تتابع القافلة فى خلال دورتها الأخيرة عبر الغابة . وتطلعت أم أنطون وراءها قائلة : « الوداع أيتها الأم كييف » .

ورأيت قباب الدير ، وأدركت أن رحلتى قد أشرفت على نهايتها .

وفى نيويورك سألتنى السيدة فون مك : « كيف الحال .. كيف الحال فى موسكو .. وكيف كان الحال بالنسبة اليك .. وكيف حالها اليوم .. حال بلادى الشقية ؟ » .

ورددت عليها باجابة سريعة مقتضبة .. أيمكن أن أصف اميلى لسيدة من غير هذا الزمن .. وهذه المبادىء الشعبية ؟ أيمكن أن أصف لها موسكو كما شاهدتها وكذلك ليننجراد ؟ .

استعدت فى خاطرى الأعلام الحمراء التى غطت المحراب فى كاتدرائية كازان ، وذلك التمثال النصفى للينين فى المذبح .. والنشيد الدولى فى منتصف الليل الهادر فى الكرملين . وقلعة بطرس وبول بالرسومات

السخيفة على جدرانها ، والنسر المشوه ، والاصص المصنوعة من معدن المالشيت الثمين وقد نشلها وانتهبها الرفاق من قصر ميشيل ..

تواردت كل هذه الصور الى خاطرى .. ثم فكرت فى سؤال السيدة فون مك الذى ألقته على فى بداءة أمرى ، عما اذا كنت سأبدد فى الاتحاد السوفييتى ، عبير الماضى ، واحساس الألفة والحنين ، الى مشاهد القرن التاسع عشر الذى أطوى جوانحى عليه .

فهززت رأسى قائلة لها « ان شبح أنطون روبنشتين يبدو واضحا ، قويا ، ظاهرا فى كل أنحاء بطرسبرج . ولقد رأيت ضباب بحر البلطيق فوق نهر النيفا ، يلف أعمدة مبنى الأميرالية مغلفا القيصر بطرس وهو على صهوة جواده . وفى موسكو ، رأيت نيقولا جريجوروفيش لا يزال يجوب الطرق القريبة من معهده ، ورأيت فى الريف أشجار البتولا أبهى ما تكون فى مناظرها ، ورأيت النســاء وهن يحرثن الأرض عاريات الأقدام فى الثلج .. » .

ثم مضيت أقول للسيدة فون مك « ولكن .. لو اننى كنت مكانك .. لما ذهبت قط الى هناك .. حتى لو ختموا جواز سفرى بالذهب .. فاننى لأعتقد بأن قلبك سيتحطم اذا رأيت ما رأيت ! ..

٣

بين الاستجواب والدليل

خطر لى اسم العنوان متأخرا ، بعد أن كان الكتاب قد تم .. « أمريكى من جبل الأوليمبس » وفى اللحظة ذاتها علمت أننى سأكتب عن هولمز — المستشار أوليفر ويندل هولمز بالمحكمة العليا بالولايات المتحدة — أو كما كان يدعوه أهل بوسطن فى حداثته : أ . و . هـ . الصغير ، عندما كان والده الطبيب الشجاع ، ضئيل الجسم ، لم يزل اسمه يفوق شهرة ابنه ذيوعا .

فى هذه المرة ، كنت سأكتب فى بلادى ، عن رجل مات منـذ خمس سنوات فقط ، وعلى هذا النحو ، سيكون عملى ، كما بدا ويبدو أسهل منالا ومأخذا من تراجم حيـاة تشايكوفسكى والأخوين روبنشتين ، لن تكون ترجمة مضنية من اللغة الروسية ، أو مجازفة برحلات خطرة فى الخارج فى سكون الليل وهزيعه الأخير .. وفوق ذلك كله ، لن أحتمل فى هذه المرة تعليمات مديرى المعاهد الصارمة ، أو ضيافة المكاتب السياحية أو صدمات الرفض بالزيارة عبر الدول وفقا لأسباب سياسية ..

حقا ، لقد كان هولمز محاميا ، وكانت محاولاتى السابقة عن الموسيقى وليس القانون . ومع هذا فاننى عندما تناولت كتب القانون من رفوفها وطالعت شروحه وآراءه الفذة ، لم تكن تلك الآراء غامضة أو غير شاملة . من ذلك هوامشه على بعض كتبه جاء فيها : ان التقويم الرابع عشر لم يستوعب حياة هربرت سبنسر على وجه الدقة .. ان دستورنا نتيجة تجارب .. وهو تجربة بذاته ، كما أن الحياة تجربة .. الأفكار الحرة ليست

هى الأفكار الحرة لأولئك الذين يتفقون معنا .. ولكن معناها الحرية لتلك الأفكار التى نبغضها .

لم يكن ثمة غموض أو ابهام فى تعبيراته — كما هى الحال عند لفيف من الفقهاء — مما يستغلق فهمه ويغمض شرحه الا على المتخصصين — هنا ، على العكس تجد تراثا وتتاح تفكير ، كل أمريكى يستشعر أنه يختص بنصيب من تراثه .. لقد تكلمت عن هولمز المحامى ، بمقالة الحق ، بيد أننى مع هذا تحدثت ضمنا عن الرجل العظيم ، وأن مهمته — أى الرجل العظيم — أن يجرد الحرية من شوائبها ، ويعطى صورة مجلوة عنها ، مجردة من الأغلال التى تكبلها وتآمر المحترفين على كيانها . ذهبت الكتب التاريخية الى أن هولمز وأقرانه من بعده القضاة برانديس وكاردوزو كانوا يعنون بالتشريع الاجتماعى . ولقد بسط هولمز مبادئه بقوله : « ان حياة القانون ليست مستمدة من المنطق .. بل من التجارب . وان القواعد القانونية التى تحكم الناس يجب ألا تقوم جامدة على القياس المنطقى ، بل على ما يفرضه تطور الزمن وضروراته » .

ذهب صديق هولمز چون شيبان جراى ، الذى ظل أربعين سنة يدرس القانون فى كلية الحقوق بجامعة هارفارد الى أبعد من هذا ، منوها بأن القانون الدستورى ليس قانونا بل سياسة ، ومثل هذا القول الذى يبدو مغاليا فيه ، يجب أن يؤخذ بحذر . وان كان يعبر عن الحقيقة العارية ومن ناحيتى فاننى أحسست برضا عميق وأنا أستعيد تاريخ بلادى .

أنفقت ستة أعوام أدرس أحوال أوروبا وروسيا ، أخبارها وسياستها وموسيقاها وثقافتها ، عرفت دقائق الثورة الألمانية التى شبت عام ١٨٤٨ فى حين جهلت أنباء حرب ماديسون عام ١٨١٢ .

ان فى استطاعتى أن أصف طباع القيصر ألكسندر الثالث وأخلاقه على حين لا أستطيع ذلك بالنسبة للجنرال جرانت أوجروفر كليفلاند .

ونزعت من على حوائط حجرة مكتبى خرائط موسكو وبسارابيا وأحللت مكانها صور بوسطن وكامبريدج وخرائط الولايات المتحدة عام ١٨٤١ عندما ولد هولمز ، وخرائطها عام ١٨٠٠ بولاياتها المنعزلة على المحيط الأطلسى ووضحت أمامى سيرة هولمز ليس كبطل فحسب بل كأحد أعلام الولايات المتحدة الأمريكية ، ورائد من روادها ، ومثل لرجالها . ان ترجمة الرجل العظيم هى فى الواقع جوهر للحياة وللزمن الذى يعيش فيه ، وتصدق هذه العبارة تماما على سيرة هولمز ؛ ففى حياته غلاما ورجلا ، تتمثل أمجاد أمتى فى تلك الفترة ، واستمد هولمز مقومات حياته الروحية وغذائه العقلى من بوسطن وكامبردج ونيوانجلند ، وانك لتصافح هذه الصور فى حياته كلها ، سواء عندما تطالع سيرته أيام كان جنديا فى الحرب الأهلية وقد جرح فيها مرات ثلاثا ، أو أثناء نهوضه بتدريس القانون ، أو عند اعتلائه منصة القضاء . واذا تأملنا حياة هولمز وما اتصل بها نجد أنها ترتبط ارتباطا وثيقا بوطنه .

ولقد قال انه يجب على المرء أن يقوم بدوره الايجابى فى الزمن الذى يعيش فيه ، والا فان من الأفضل له ألا يعيش أبدا اذا كان بعيدا عن أحداث أمته . عند تناول السير فان من الملائم والأوفق للكاتب أن يسوق موضوعه بادىء ذى بدء عن المترجم له بوجه عام لذاته أى يبسط الغلاف الخارجى لحياته .

ويستعرض أولا الزمن الذى يعيش فيه ، ثم ينتقل بعد ذلك بالحديث عن الأماكن والأشخاص الذين يتصلون بصاحب الترجمة بسبب . وينطبق هذا القول خاصة عندما يتناوب كاتب الترجمة عمله — كما فعلت — من قرن الى قرن ، ومن قارة الى قارة .

وبالنسبة لهولمز كان من الضرورى معرفة الأسماء اللامعة والقـــادة وأصحاب النفوذ فى البيت الأبيض والكونجرس وساحات القضاء ، وأن أدرس أحوالهم وأشخاصهم على وجه الدقة ، كما يطالع الناس اليوم أنباء الشخصيات المعروفة فى الصحف والأحداث الجارية .

عندما بدأت كتـــابة هذه السيرة مضيت أقرأ وأقلب مختلف الصور ، والكتب التاريخية — فى غبطة بالغة — التى تناولت حياة ودرو ولسن ، وجيمس فورد رودس ، وكتاب ماك لوجلن فى التاريخ الدســـتورى ، وكتاب مقتطفات عن التاريخ القضـــائى مساشوستس لواضعه وشبرن ، والكتاب الذى وضعه فرانكفورتر فورتر عن هولمز ، وكتاب كارد وزو باسم القانون والأدب ، وكتاب موسز ارنسون عن التطور القضائى ، وقرأت تراجم حيـــاة ورســـائل تيودورز روزفلت ومارك هانا والقـــادة السياسيين ، وحتى الوثائق السياسية يجب أن تعاد قراءتها وان كنت أرجو ألا أضمن جوهر موضوعى منها شيئا ، واشتريت عشرات الكتب وجعلتها الى جانبى حيث أستطيع أن أضع ملاحظاتى على هوامشها ، ولقد زخرت مجلدات معجم التراجم الأمريكية الستة والعشرون بالملاحظات التى دونتها على صفحاتها ، وكنت أقرأ وأنا أتناول الطعام ، وأقرأ فى الفراش ، لا كما يقرأ طالب علم ليستطيع أن يصل الى أحكام جديدة عن مواد استطاع أن يكشف عنها ، ولكننى كنت أقرأ كما ينبغى أن تقرأ المحـــررة لتعرف ما وراء المشاهد التى يجب أن أصورها .

وكان مما يشيع الراحة فى نفسى ، أن أعالج وضع هذه الترجمة على النحو الذى اخترته دون الوقوع فى تيه آخر ، وبذلك أتحلل كثيرا من القيود والحدود ، وكذلك أحسست بفيض من الراحة ، بأن هذه السيرة التى أعتبرها قصة قومية ، متعددة الجوانب . وبدأت أطالع فى مكتبة

الجامعة قائمة الكتب التى درسها هولمز فى كلية الحقوق بجامعة هارفارد عام ١٨٦٧ .

وكانت معظم تلك الكتب منفرة لا تغرى بالاطلاع ، ولقد لمحت أن هولمز عندما قرأ تلك الكتب لأول مرة كان شعوره مثلى . ان هنرى جيمس هجر كلية الحقوق لأنه لم يستطع أن يفهم شيئا من موادها أو يستوعب محاضراتها ، ولقد شعر هولمز بمثل هـذه الحيرة ووضح ذلك فى قوله : « ان الانسان ليرى أن الفنانين والشعراء يتملصون من القانون ودراساته كما يتملص الانسان من دنيا غريبة عنه ، وان الانسان ليشك أن يجد فى مثل تلك الكتب لذة أو تسلية للذهن المتوقد » . قليل من كتب القانون التى يمكن أن يطالعها غير المشتغلين به ، ومن تلك الكتب القليلة ، كتاب مدخل القانون الأمريكى لمؤلفه ووكر ، ولقد كتب هولمز تعليقا عليه حيث استمتع بقراءته ، ولأنه زوده بفيض من المعلومات التاريخية . وبمجرد أن استوعبت أحداث القرن التاسع عشر أحسست بالمقدرة كى أنبرى لأتحدث الى الناس .

وفى واشنطن كان القـاضى هولمز يستخدم كل عام سكرتيرا فنيا لا يلبث أن يستبدله بواحد من أولئك الشبان الذين أتموا تعليمهم فى جامعة هارفارد والذين اختارهم الأستاذ فليكس فرانكفورتر من بين الخريجين ، وقد وصل من هؤلاء الشبان كثيرون احتلوا مراكز مرموقة فى الحكومة وفى الحياة العامة .

واخترت من قائمة أسـمائهم اثنى عشر شخصـا تحادثت واياهم فى موضوع المترجم له ولم أنتخبهم لأن منهم من يشغل وظائف رؤساء النيابة فى الولايات المتحـدة أو رئيس مجلس ادارة هيئـة الصلب بالولايات المتحدة . ولكن اخترتهم بوصفهم أعرف الناس بهولمز ونهجه فى الحياة .

وقد علمتنى التجــارب أنه يجب على ألا أستمد من هؤلاء الناس — أو بعبارة أخرى من أى حديث لى معهم — الجانب المهم من حياة هولمز أو أية معلومات ذات شأن عن مواقفه الكبيرة وآرائه المثالية . مثل هذه الأشياء توجد فى الكتب مشروحة ومستوفاة سواء له أم عليه .

لذلك لم أتصور أن أجرى حديثا مع أحــــد منهم حتى أعرف كل المواقف الكبيرة والصغيرة كما ينبغى للمحـــرر التاريخى أن يفعــل وأن يلم بظروفها القومية وكل ما يتصل بها ويستعرض قضاياها أمامه .

وكلما زادت معرفتى بأوليفر وندل هولمز الصغير بدا لى مما لا يطاق احتماله أن أفكر فيه ميتا باردا دون حراك يرقد تحت الثرى فى أرلنج تون.

ووجدت نفسى مأخوذة بقوة ســاحرة مخبولة أن أنشر هذا الرجــل حيا من قبره واقفا أمامى وأراه يسير ويقفز ويرقص ويلقى بالنكات ، ويعشق ، مبديا اعتزازه أو شجاعته وفقا للمناسبات وأن ما ناله من المديح والتقريظ بين بنى قومه ، وأكاليل الغار التى طوقته ، قد غيبته بعيدا فى رمسه . كانت الصعوبة التى تواجهنى تتمثل فى كيف أنفض الغبار عن جوهره حتى تتضح معالم حياته واضحة مجلوة ويستبين رواؤها . ليس شخصيته العامة الرفيعة فى المجتمــع ، ولكن اظهــار صفاته وعاداته ، وما اتسمت به شخصيته الخاصة ، والالمام بكل الصفات اللصيقة والتى لا يجاريه فيها غيره . ولقد وفقت للحصول على « خامات » من حياة هولمز الشاب .

ان هولمز المستشار بالمحكمة العليا للولايات المتحدة والذى أوفى على الرابعة والتسعين عند مماته كان يعرف فى كل مكان باسم « الرجل العظيم العجوز » وتلك عبــارة كانت تسوؤنى ، فان ما كان يشوقنى نحوه ، شخصية القاضى الألمعى الذى اشتهر بأحكامه البارزة وصفاته الفريدة وعرف

بها فى مساشوستس وخريج جامعة هارفارد ، الفتى ، بقبعته الواسعة والنجمة على كتفه مثبتة انتماءه الى اللواء العشرين لمتطوعى مساشوستس.

ان فى استطاعة المرء أن يتعرف الأشخاص الذين ربطتهم اتصالات بالمستشار هولمز . وفى بوسطن يوجد بعض المعمرين الذين يعرفون حتى والده الطبيب المستبد ، ويبدو لى الآن أن الكتاب الذى أضعه عنه يجب أن يبدأ من عهد بعيد على ولادته فى عام ١٨٠٩ فأفتتحه برسم صورة عابرة لجده السيد أبيل هولمز الذى دون أول تاريخ شامل لبلاده .

ان أوليفر ويندل هولمز ليس مثل تشايكوفسكى ، رجلا من طراز معين يمكن أن يحقق نبوغه فى أى مكان أو زمان .. الفارق بين الشخصيتين ان آل هولمز تعاقبت جهودهم عبر الأجيال وتضافرت فى وضع بذور مبادئهم وآرائهم فى أرض نيوانجلند واحد تلو الآخر .

طالعت تاريخ أمريكا الذى وضعه أبيل هولمز وأعجبت به ، كتب أبيل عن الولايات المتحدة كرجل عاش فى كنف التاريخ مثبتا وقائع زمنه كما فى قوله : « لقد أنفذ الرئيس الكابتن لويس والكابتن كلارك لارتياد مجاهل نهر المسيسيبى . كذلك كشف « لى » مناجم الفحم عند جبال موسى شنك فى بنسلفانيا وشيد ويليام ترمبول سفينة تسع من ٢٠٠ الى ٣٠٠ بوشل ليقودها الى فيلادلفيا . وفى مزارع سبالدنج بسابلو جادت زراعة السكر عن السنة السابقة » .

ومهما يذكر عن هذه المدونة التاريخية التى كتبها أبيل فان كل كلمة فيها توحى بالفخر وتمجيده وطنه وتقدمه .

كذلك مضيت أقرأ قصص الدكتور هولمز والد المترجم ومقالاته ونبذه الجريئة واحدة بعد أخرى ، وشعره الرائع الذى ضمنه ديوانين كبيرين .. وما كان أروع أشعاره ! زاخرة بفيض من المشاعر ، والبطولة ، والعقيدة ،

والرقة ، فاض بها وجدانه فى مناسبات متعددة كاحتفالات معينة ، أو ذكرى ميلاد ، أو تحية لبعض الجنود الشبان الذاهبين لساحة الحرب .. كل شعره يحمل طابع زمنه والمناسبة التى وضع من أجلها . وفى قصيدته التى دبجها من أمريكا الى روسيا أنشأ هذا الطبيب النبيل فى عام ١٨٦٦ قصيدة رائعة بمناسبة زيارة أكبر أمراء روسيا لأمريكا . وجاء فى هذه القصيدة :

ان شعبنا بين الدموع والبسمات
ليحمل بين جوانبه هوى جارفا الى شعبكم
عبر البحار
والى جزر نهر نفيا
تتواثب وترسو قلوبنا عليها .

وياله من توارد خواطر عجيب بين الماضى والحاضر لا يكاد المرء يصدقه وكيف أمكن لرجل أن يرسم لوحة فى الماضى بألوان الحاضر وبتعبير اليوم الذى نعيش فيه ؟

كان من أكبر عوامل المساعدة على اعداد هذه الترجمة ، التحدث الى أولئك الذين يعرفون آل هولمز وتربطهم بهم الصلات ، الذين يستطيعون أن يستعيدوا صور حياتهم كما كانت ، وليس كمجرد وثائق دون روح ، ولكن .. مع من أبدأ أحاديثى وتحقيقاتى ؟

هل أبدؤها مع معاونيه من رجال القانون الذين شغلوا مناصب السكرتيرية لديه ؟ أو مع سكان بوسطن القدامى وكأنهم حراسها الأوائل ؟ أولئك الرجال والنساء الذين عرفوا هولمز فى سن الشباب كالأسقف لورنس فى مساشوستس والسيد لورنس لويل الذى كان مديرا لجامعة

هارفارد والسيدة كاترين لورنج والسيد آرثر وهون هل وروبرت هارلو وعقيلاتهما ، وكان الثلاثة الأول الذين أوردت أسماءهم قد أوفوا على الثمانين أو التسعين .

بدا لى أن من الأوفق أن أسرع ! فأما معاونوه فيمكننى أن أرجئهم ، وكذلك الحال بالنسبة لبيكون هل بوستوتياس .

لم أشأ أن أضيع وقتى سدى فى المقدمات ، ولكننى بكل بساطة مضيت الى هدفى مباشرة موضحة غايتى ، وبعثت بذلك الى أولئك الذين أريد أن أسارع بلقائهم ، سائلة اياهم تحديد الموعد المناسب .

كانت السيدة لورنج ضريرة ، سيدة عليها مخايل النبل والرقة معا ، اتجهت نحوى سائرة على أرضية بيتها اللامعة مستندة على ذراع ممرضتها المرافقة ، ومضت تتحدث الى عن أيام ذلك العهد البعيد عندما كانت تبذل نشاطها الاجتماعى من أجل الفقراء بحياكة الملابس لهم مع لداتها بعد أن قمن بتأليف رابطة من بينهن لهذا الهدف ، وأخذت تستعيد بذاكرتها شخصيات ذلك العصر . والشخصيات التى لا تزال ماثلة فى لوحة ذكراها . ذلك اللبّان .. كريلى بأقداحه ، وجرة اللبن التى يحملها ، والجزار براكت بمعطفه الأبيض النظيف ووجهه المقطب . وذلك الرجل العجوز الذى كان ينير مصابيح الشوارع وميدان هارفارد ومخزن المحصولات الزراعية على مقربة من الميدان . حيث كانت تعقد اجتماعات طلبة جامعة هارفارد . وحيث كانوا يرقصون احدى رقصات ذلك العهد المشهورة ، وتلك المكتبة القائمة هنالك . وأحصت لى السيدة لورنج أسماء الكتب التى كانت تستعيدها !

وكان حديث السيدة لورنج ممتعا مسليا وهى تعطينا صورة نابضة

بالحياة عن العالم الذى كان هولمز يحيا فى أكنافه ، ذلك العالم الذى تركه هولمز فى يولية عام ١٨٦١ ليسجل اسمه فى قائمة الفرقة العشرين .

وبعد أن فرغت من السيدة لورنج توجهت الى الأسقف لورنس فى ميدان الكومنولث وحقق الأسقف أحـلامى .. الأحلام التى ينشـدها المحرر الباحث من تحقيقاته .

كان أزرق العينين على وجنته شامة ، وشعره يشتعل بياضا ، ومضى الى مكتبه وهو يقلد ويمثل باشارات من يديه أصوات أسرة هولمز ، كما عرفها منذ سبعين سنة . وانه ليذكر منزلهم فى شارع بيكون وشـارع شارلس وكان هو الرجل الوحيد من بين الذين لقيتهم الذى يدعو هولمز باسم ويندل . وأفضى الىّ هذا الأسـقف بأنه كان يمضى سحابة يومه فى المكتبة وأن شقيقة ويندل كانت السيدة الوحيدة فى بوسطن التى تستطيع أن تتحدث عن فيليب بروكس .. وأخذ الأسقف يصف لى أفراد أسرة هولمز فردا فردا .. الدكتور هولمز وقرينته ويندل وأمليا ونيدى الصغير عابثا بين الكتب مثرثرا ضاحكا ليجذب الأنظار اليه . واستطرد يقول : « كان لويندل مسحة رومانتيكية تتبدى على ديباجة وجهه ، تجعله مختلفا عن سواه ، وكان الناس يحسون بها عندما تقع أبصارهم عليه حتى وهو لما يزل غلاما وعرفت من الأسقف أن ويندل هولمز التحق بمدرسة ديكسول اللاتينية وكان مديرها مستر ابيس سارجنت ديكسول الذى صار فيما بعد والد قرينته «فانى» وأحسست بالغبطة اذ اطلعت على كل التفصيلات المتعلقة بحياته فى ذلك الحين ، وزادت غبطتى عندما ذكر الأسقف لورنس أنه أيضا كان قد التحق بمدرسة ديكسول .. وانه ليذكر فصـول المدرسة كما يذكر صباح يوم فى عام ١٨٦٥ عندما انصرف التلاميذ مبكرين ومضت النواقيس تقرع دقاتها بمناسبة سقوط ريشموند . لم يكن السيد ديكسول

يرتدى كسائر سكان بوسطن الثياب السوداء والمعطف طويل الذيل ، بل كان يرتدى ثيابه على هواه ووفقا لمزاجه الخاص ، سروالا أخضر وسترة مخملية أحسب أن بنجامين دزرائيلى كان يتعشقها ! وفى الواقع كان السيد ديكسول مصابا بعمى الألوان ولم يكن ليلاحظ أو يلقى بالا الى التنافر الصارخ فى ألوان ثيابه . ومضى الأسقف يعلق على ذلك بقوله — وقد استثارته تلك الذكريات الرقيقة : ان ديكى — أى ديكسول — عندما يجلس يتلو أدعية الصباح ، كان من عادته أن يرفع نظارته ذات الأسلاك الحديدية المبرومة عن عينيه بدلا من أن يثبتها .

وغادرت المنزل رقم ١٢٢ بشارع الكومنولث بعد أن أمضيت ساعات فى ضيافة الأسقف وأحسست وأنا خارج المكان بالراحة تشيع بين جوانحى ومزاج من السعادة والغبطة يدفىء قلبى ، أوليس هذا كله لأن يدى قد امتدت الى الماضى فحركت مواته ونشرته حيا ؟ يا رباه .. اللهم انى أدعوك ألا يموت أحد من أولئك السادة والسيدات قبل أن أسعد بلقائه ... وابتدعت وسيلة أحسن منهجا فى اجراء أحاديثى وتحقيقاتى ، مختلفة تماما عن تلك التى استننتها فى الماضى . متباينة على الأقل عما كنت أبذله من جهد وحيلة فى روسيا مما يمكن أن أسميه بأن المعلومات التى كنت أحصل عليها ، كانت أحيانا نوعا من الابتزاز المشوب بالتهور .

أما فى بوسطن فان الأمر يختلف ، فكانت الأيام كلما تمضى يعرفنى أحد أصدقاء هولمز بالآخر . فلم أتجشم عناء التخاطب التليفونى . وتحديد المواعيد . وفى هذا الجو بدا لى التليفون وسيلة وعرة تافهة ، وكنت أكتفى بكتابة بعض مذكرات صغيرة للدوائر أو للهيئات التى أرغب فى زيارتها وأظل جالسة فى فندقى منتظرة ردا تليفونيا مهذبا وكنت أشعر بالملل ولكننى وفقت فى عملى .

وفى تلك الاجراءات لم أكن أبحث أو أستطلع النصوص والمبادىء والفقه القانونى الذى اشترعه هولمز أو أتلمس نواحى الفطنة فى شخصه وأحللها ، فلقد استوضحت هذه الجوانب من مصادر أخرى . وفى الحقيقة أننى اذا لم أكن قد عرفت أسرار عظمته ومبعثها لما اجترأت على اجراء تلك التحقيقات . ان الذى كنت أتوخى معرفته من تلك الأحاديث هو أسلوب حياة مضت ، وتقاليد وعادات عهد ولى ، وأن ألتقط من هنا وهناك بعض الصفات أو العبارات التى تتصل بآل هولمز ، وكنت أعلم مدى المخاطرة التى تحيق بأولئك الذين يكتبون عن الأحياء ، أو الذين لم يمض وقت طويل على مماتهم ، فان ورثتهم أو منفذى وصاياهم وأقرباءهم وأصدقاءهم يمسكون عن البوح بمعلوماتهم ، أو يسرفون فى الافاضة بها ، وفقا للحوافز التى تدفعهم الى ذلك . أما فيما يختص بهولمز فانه كان يبدو لى أنه لم يكن هناك ما يدعو الى الامساك عن التحدث عنه اذ لم تعلق بسيرته الشوائب أو أثقال القيل والقال ، كنت بازاء حياة طويلة مثالية لم تتخللها فترات مريبة مخزية لنساء انتحرن فى ريق الصبا ممسكات بصور فوتوغرافية بين أحضانهن ، أو فضيحة صداقة غرامية أو مالية .. وكان نقاء هذه السيرة موضع امتحان عسير لكاتب التراجم . فكيف يتسنى أن ترضى أو تمتع الناس مثل هذه السيرة ؟ وهناك مثل فرنسى يقول : ان السعداء لا تاريخ لهم . ولم أومن بهذا المثل يوما كما لم ألق بالا الى أن عبقرية هولمز كما قال أحد المحررين قد تمت فصولا وأوفت على ختامها فى عام ١٨٦٤ عندما سرح من الجيش الاتحادى .

ان أبطال السير الذين تناولت تراجمهم من قبل ولدوا فى القاع من أدنى درجات المجتمع أو على الأقل من الطبقة الوسطى . ولكنهم درجوا الى أعلى بفضل فنونهم وعبقريتهم حتى استطاعوا بعد صراع مرير أن يوازوا القمة شأوا أو ليصلوا الى مشارفها .

أما هولمز فكان أمره غير ذلك . كان قد ولد فى رغد من العيش ، فى القمة ، وقياسا على المألوف كان من الحتمى أن يتجه الى أسفل ، لا يستطيع الوصول الى المستوى الذى وصل والده اليه أو مستوى أصدقاء أبيه ، وهم من النخبة الممتازة أمثال لونجفلو ولويل وغيرهما .

ومن وجهة نظر الكاتب فان من المؤكد أن التراجم والسير كقضية مؤامرة جديرة بالكشف عنها والغوص الى أعماقها ، وانها لمغامرة تستحق المخاطرة بالمال ، شائقة جديرة بالافتنان ولكن أبادر الى الاعتراف بأن مثل هذا الشعور لم يخالجنى فى بوسطن . اذ بدا لى أن الحقائق فى حياة هولمز من الجلاء والوضوح بحيث لا أجد فيها هذه الاثارة . من أجل هذا أخذتنى الدهشة ، بينما كنت أجتاز شارع بيكون فى طريقى الى تناول الشاى ، عن السبب الذى من أجله أضع على عاتقى ترجمة هذه السيرة . هل كنت أتوقع أن تدر على كتابتها مالا ؟ لقد تمنيت ذلك . ومما لا شك فيه أن من عادة الكاتب المحترف أن يدر عمله المال عليه .. وهنا تأتى كلمة الاستغلال ، فليس ثمة شك أننى لم أكن أجرى وراء مغنم مادى أو أننى أريد أن أستغل حياة هولمز استغلالا ماديا ، ولقد رددت على نفسى بأننى لأود من أحد أن يدلنى على السبيل الذى يمكننى أن أجتر مالا من ترجمة حياة المستشار هولمز وسأكون سعيدة بأن أحاول ذلك . بل لعلهم لا يعرفون أن أشق سيرة بين التراجم الأمريكية يمكن أن يطمع كاتبها فى أن يستغلها ماديا هى سيرة هولمز .. وعجبت كيف أن الناشرين طلبوا الى أن أكتب حياة ليوبولد ستوكوفسكى فرفضت ، وهى سيرة مثيرة تدر المال جزافا على كاتبها . ولكن ماذا أقول عن المستشار ويندل هولمز وفانى ديكسول والدكتور هولمز . وقرينته . والعم جون هولمز والسيد المحترم أبيل هولمز ؟

لقد نطقت اسم « آبيل » كما راق لى أن أفعل ، فبادر الســامعون بتصحيحه لى فى الحال باسم « أبيل » قائلين بأنهم فى بوسطن ينطقون باسمه .. هكذا .

فكررت الاسم بخشوع « أبيل » .

وجاءت مسألة أخرى من الأهمية بمكان ، فقد أشار هولمز الى اثنين من أصدقائه باعتبارهما مستودع سره وهما السيدان جون جورهام بالفرى المحامى بمدينة بوسطن والأستاذ فليكس فرانكفورتر بكلية حقوق جامعة هارفارد . ففى حوزتهما كافة رســائله الشخصيــة وتراثه الفكــرى . ولقد كان من المتوقع بعد وفاته أن يتواثب عليها قطعان من كتاب التراجم لاختطاف ما لديها من معلومات وحقائق .. ومع هذا فقــد مضت ســتة أعوام على مماته وكنت أول من ظهر من القطيع ، وفى الوقت ذاته أعتبر نفسى غريبة عن فيلادلفيا . ولا أمت بصلة لبوسطن ، ولم أشتغل يوما بالمحاماة ، كما أننى لست من عالم الرجال .. وكل هذه الاعتبارات بدلت تفكيرى حينا ..

وأمطرنى أصحابى وابلا من الأسئلة : هل سيتاح لى أن أرى جون بالفرى وأن أتحادث واياه ؟ وهل أعرف أن كريماته هن من أشهر بطلات التنس ؟

وأجبت عن هذا السيل الدافق من الأسئلة : لقــد استطعت أن أرى السيد بالفرى وأجاز لى أن أطالع نحو أربعمائة رســالة لم تنشر لهولمز ، وهى فى حوزته . وأثبتت تلك الرسائل بما احتوته أنها فى طرافتها تفوق ما كنت أتوقع . كانت مرسلة لعناوين مختلفة كتبت أيام واشنطن الى ما بعد عام ١٩٠٢ ، كما دعانى السيد بالفرى وقرينته رقيقــة الحاشية لتنــاول العشاء فى منزلهما ببروكلين ، وكنت لا أعتقد أن السيد بالفرى ســوف

يطرح أمامى كافة مخلفات هولمز الذهنية التى يقتنيها والتى أروم الاطلاع عليها .. ولكنه على العكس قدم لى راضيا كل شىء .. ثم مضينا بعدئذ نتحادث عن آل هولمز وبعد العشاء توجه السيد بالفرى الى قبو المنزل وأحضر منه زجاجة من الخمر المعتق وشربنا نخب المشروع الذى أنهض به ، بكتابة ترجمة حياة هولمز ، ثم ذكر لى بعدئذ أننى أخطأت بأن حسبت أن عمته سارة كفت عن عادتها ، عندما وصلت الى سن الستين بركوب دراجتها « الترسيكل » صبيحة كل يوم ، حول منطقة « فريش بوند » فى كامبردج بل هى على العكس من ذلك وسعت نطاق جولتها الصباحية ، وامتدت الى ميادين أخرى . واذا كنت استقيت معلوماتى من كتاب الكلونيل هيجنسون فاننى يجب أن أعلم أنه — هيجنسون — رجل متخبط يجنح الى التشهير والكذب .

أفضيت بهذا الحديث لأصحابى فضحكوا وطربوا منه ..ولم أزد على ذلك بأن السيد بالفرى أضاف الى أوصاف الكولونيل هيجنسون بأنه من مدمنى ترويج الشائعات الخبيثة واكتشفت أن مدينة بوسطن القديمة تقوم فيها أحقاد ثأرية متأصلة بين بعض سكانها القدامى ، طالما نجمت عنها معارك دامية ولا يزال الأحفاد يتوارثونها .

ولا يفتأ كل فريق منهم يتلقف أو يبتدع أية معلومات مؤذية عن الآخر ، حتى تنتقل الشائعة وتجوب الأرجاء مع التعليق عليها ، وعلى هذا فان من واجب المرء أن يحتاط لما يلقى عليه من أنباء وقلما سمحت لنفسى بترديد مثل هذه الأقاويل .. ومع ذلك فقد أخذت أتأقلم بجو مدينة بوسطن ، وقد أنهى الى أبناء قومى بأن المدة التى أمضيتها فى بوسطن جعلتنى أقلد لهجة خريجى هارفارد فى لثغة بعض حروف الألفاظ ، بل امتد هذا التغيير الى طريقة ارتداء ملابسى والتخلى عن أسلوب الزى الذى كنت اعتدت عليه

لأماثل طراز أهل بوسطن . وكان هذا يبدو لى شيئا غير طبيعى .. ولكننى لم أحفل بهذه المسائل الصغيرة كثيرا خشية أن تصرفنى عن مهمتى الأساسية وان كنت أتذوق من خلالها طعم الحياة فى بوسطن ، بأن تفحصت حيـاتها الحقيقية ، واستطعت أن أجد فى بعض الهيئات القانونية ملفات تحوى جميع البيانات عن حى « بيكون هيل » ببوسطن ، كل شارع ومنزل فيـه لمدة سبعين سنة . وقدم السيد ريتشارد هال أحد أمناء المحفوظات هـذه الملفات وبسطها أمامى ومعها خريطة كاملة لجيران آل هولمز منذ عام ١٨٦٤ . وكان السيد هال رجلا فى السبعين من عمره ، بيد أنه كان فى حيوية الشباب وصبوته ، حاد الملاحظة . وعندما لمح أنى عاجزة عن تفهم مواقع المنازل على الخريطة قادنى الى أحد المبـانى العالية حيث بانت لنا المدينـة من أعلى أسطحها ، مفصلة المعالم وأخذ يشرح لى على الطبيعة كل جزء فى المدينة موقعا موقعا .

ومضى يشير الى الشوارع بأسمائها المختلفة ومنعطفاتها حيث كان ويندل هولمز وهو لما يزل يافعا يرتع فى جوانبها وتعـارفت الى تلك الجهـات بمعونته شبرا شبرا من الشاطىء الطويل الى شارع واشنطون . ثم جست خلالها برفقته ومتتبعة خطاه ، متعجبة من معطفه البالى الباهت الذى يرتديه ثم استأجرت سيارة وسائقها وجلست والسيد هال فى المكان الخلفى ومضت السيارة بنا تقطع طريقها وفى خلال ذلك كان يشير الى المعالم الجميلة العالقة بذهنه عن الطريق وذكرياته وكان ذلك الطريق الذى تطويه سيارتنا هو ذاته الذى اجتازه أبيل هولمز فى شبابه عندما قـدم الى بوسطن من وود ستوك بولاية كونيكتيكت .

وفى محكمة بوسطن مضى السيد هال يعيد على مسامعى صيغة الأسئلة التى كان ويندل هولمز يتلقى الاجابة عليها ، كما قدم لى تحقيقات الحكم

الذى يعود الى شهر مارس سنة ١٨٦٧ وقمت بتصوير الصفحة التى مهرها هولمز بتوقيعه .

وفى مكتبة بوسطن الطبية ، بفنواى ، رأيت ذلك الأثر ، وهو عبارة عن صدفة من أصداف البحر ذات لون قرنفلى وأبيض ، هى التى أوحت للدكتور هولمز بتأليف أحد كتبه . وعلى غلاف الكتاب وجدت ذلك الأثر التافه .. ان من مثل هذه الأشياء الصغيرة تومض فى خيال كاتب التراجم لمحات يمكنه من خلالها أن يتعرف أخلاق صاحب الترجمة ، وهى كذلك تثبت له أن أولئك الرجال لم يكونوا كما نظن من الجن أو من الشخصيات الأسطورية بل هم يعيشون أيامهم كسائر البشر . ويستوحون الهامهم حيث يجدونه حتى من أقل الأشياء قيمة .

كان منزل هولمز رقم ٢٩٦ بشارع بيكون لم يزل على حاله . وكان قد دعانى ابن أخيه السيد ادوارد هولمز لتناول الشاى عنده . وصعدت الى الطابق الثالث حيث شاهدت حجرة هولمز وكان فى صدر شبابه حيث اعتكف فيها شارحا فلسفة كنت . وكذلك رأيت حجرة الجلوس الشهيرة بالطابق الثانى المطلة على نهر شارلز وكانت لا تزال كما هى منذ كانت الأسرة تقطن المنزل ، وقال الدكتور هولمز انه فى خلال تلك الغرفة كان يستطلع ويستشرف على الكون كله .

وفى تلك الحجرة ذاتها مات ، وهو جالس على مقعده وهو يقرأ ، وبالحجرة باب يؤدى الى حمام صغير وبداخله علقت مرآة على نحو منخفض بحيث لم أستطع وأنا واقفة ازاءها أن أرى سوى كتفى تنعكسان عليها .. فسألت السيد ادوارد عن السبب فى تعليق المرآة وطيئة هكذا . فأجاب .. آه . كان الدكتور هولمز صغير الحجم كرجل .. ولقد علقها بذاته لتلائمه ولم نحركها من مكانها قط .

كنت أعلم بالطبع أن دكتور هولمز كان قصيرا . وعندما كان فى مستهل صباه بجامعة هارفارد وصف نفسه بأنه « أشبه ما يكون بحيوان صغير — دون ريش — طوله خمس أقدام وثلاث بوصـات عندما يكون واقفا لابسا الحذاء المحكم الذى صنعه روسل أشهر صانعى الأحذية فى هـذه المدينة » .

والى تلك اللحظة التى رأيت فيها المرآة لم أكن قد كونت فكرة واضحة تماما عن حياة ومظهر الرجل ضئيل الجسم والنمط الذى تسـير عليه ، ولا عجب — تعويضا لهذه الحالة — أن دكتور هولمز كان يبدو بنظارته المدلاة على أنفه مختالا متبخترا مزهوا .

ومن بين شتى الأحاديث التى أجريتها فى بوسطن كان أحسنها وأجداها نفعا ، بعد حديث الأسقف لورنس ، ذلك الحديث الذى ظفرت به من السيد آرثر ديمون هيل وقرينته وهما من أقدم أصدقاء القاضى هولمز وقرينته « فانى » والفضل يعزى الى مسز هيل فيما زودتنى به من حكايات ولطائف عن مسز هولمز التى كانت كقرينها فى سرعة البادرة والبديهة ، وكانت نسيجة وحدها فى آرائها ونظراتها وثيابها وحديثها ، وكانت تبدى ملاحظات لاذعة ولفتات سريعة وحاسمة ومبهجة ، وكل من عرف مسز هولمز أسر شغفا بخصالها بيد أنها لم يستخفها الطرب يوما الى حمق أو خطأ ويبدو أن أحدا لم يتنبه الى تسجيل أقوالها أو أحاديثها فكيف يمكن لى كواضعة تراجم أن أتتبع سيرتها مع ذلك ؟ كل ما يمكن أن أنوه به عنها أنها كانت ذات قريحة نفاذة من الصعب اقناعها ولكن هذه الصفات كانت فى حاجة الى من يثبتها أو يدلل عليها . وكانت مسز هيل هى التى ذكرت ونقلت عبارات فانى هولمز الرقيقة اليائسة المتعلقة باقتراح انتقالها الى مدينة واشنطون عنـدما اختير قرينها ليكون عضـوا بالمحكمة العليا . وكانت مسز هولمز امرأة

منطوية على نفسها خجولا ليس لها حظ من الجمال ، تؤثر أن تظل في بوسطن وقلما كانت تغشى المجتمعات ، مفضلة أن تترك زوجها المستشار يرحل الى واشنطون حيث تسلط عليه الأضواء وحده ولم تكن ترتدى زيها وفقا لأحكام الطراز الحديث السائد بين النساء ، بل وفقا لطريقتها هى ، تماما كما ترى وتختار ، وقبل أن يرحل زوجها الى واشنطن استدعت مسز هيل لزيارتها فألفتها جالسة فى حجرتها الصغيرة بالدور الأرضى فبادرتها مسز هولمز قائلة لضيفتها وهى تقرب مقعدها منها :

« مارى » انظرى الىّ .. كيف يمكننى أن أذهب الى واشنطن أنا التى أبدو أشبه بالمزرعة المهملة ؟ !

ومنذ تلك اللحظة التى رأيت فيها مسز هولمز أصبحت أشعر نحوها بالحب والامتنان . ولكنه كان هناك على طول شارع بيكون قوم آخرون يختلفون فى طابعهم عن آل هيل ، أشخاص كان مزاجهم يتطلب من المتحدث اليهم أن يلجأ الى كل ما يملك من أسلحة الدفاع والهجوم . وكان هناك من النسوة من كن يعتقدن أنهن يمتلكن المستشار هولمز . ويعرفن كل ما يتصل بحياته . وقد اعتاد المستشار هولمز فى زهرة حياته وعنفوان شبابه أن ينزل عند هؤلاء النسوة فى الأصائل ليشرب الشاى أو يحتسى خمر « التشرى » وهو مار بشارع بيكون عند عودته من المحكمة . ولم أكن لأجرؤ على تجاهل هؤلاء النسوة اذ ربما أضيع على نفسى بذلك حقيقة حاسمة قد تكون المفتاح الى معرفة خلقه وشخصيته . وثبت لى أن جميع هؤلاء النسوة من المتحدثات اللبقات اللائى يمتعن السامع بطريف أحاديثهن ، وكان هولمز فى الحق ممن يحسنون اختيار معارفه .

وكان التحدث مع هؤلاء السيدات ، وهن فى مثل هذه السن المتأخرة ، أمرا يبلغ فى صعوبته صعوبة التحدث مع ضابط روسى ، فهن كريمات

سخيات تارة ، كتومات مرتابات تارة أخرى ، وهن ، شأنهن شـأن معظم الذين لا يظهرون فى المجتمعات ، عدوات لدودات لقلم الكاتبة ومفكرتها ، كن يرددن دائما : « لا لا يا عزيزتى ، اتركى هـذا القلم حتى ننتهى من الغداء . وعند ذلك سأصرف الصديقات اللاتى كنت قد دعوتهن لمقابلتك ، وفى امكاننا بعد ذلك أن نتحدث كيفما شئنا » .

وكثيرا ما كان يحدث أن تنسى السيدة ما وعدت به ، وكان من الواضح أن هناك عيبا فى الطريقة التى أتبعها فلم تكن السيدات سعيدات بصحبتى . ولعـله كان من الخطـأ أن أقدم نفسى لهن بأن أستظهر لهن مؤهـلاتى وخصائصى فى الكتابة باعتبارى كاتبة « محترفة » ، فلم يكن يبدين أدنى اهتمام بذلك ثم لا يلبث حديثنا أن يفتر ويفقـد طلاوته .. كان هـؤلاء السيدات .. سيدات متزوجات يمتلكن دورا كبيرة بديعة ومهنة المرأة المتزوجة هى فى المكان الأول : الزواج . ويتلخص الزواج فى الاهتمـام بشئون الأبناء والأحفاد والاهتمام بالأصدقاء وبجميع الأقارب دون تفرقة سواء اللصقاء منهم أو البعداء . وكيف كان لى أن أغفل هذه الحقيقة أنا التى نشأت بين عدد جم من الأشقاء والشقيقات وأبناء العمومة والخالات والعمات ؟ .. كنت أحتاج الى أقارب لى فى بوسطن ييسرون لى مهمتى . فان من واجبى وأنا البادئة بالسؤال ، الراغبة فى الحصول على معلومات ، أن أطمئن محدثى منذ اللحظة الأولى التى أراه فيها .

وكان لى فى ذلك الوقت شقيقان يشتغلان بالتدريس فى جامعة هارفارد ، وخالة هى « سيسيليا » الرسـامة التى اعتادت منذ زمن بعيد أن تأتى من نيويورك لتقضى عطلة الصيف فى بيتها فى جلوستر على الشاطىء الشمالى قريبا من بوسطن وكانت الخالة سيسيليا على علاقة صداقة وطيدة براعية

الفن العظيمة مسز جاك جاردنر التى كانت تقضى بضعة أيام فى جلوسستر أو تأتى لتناول طعام الغداء .

وكنت قد رأيت صورا شمسية لها وهى فى شرفتها تبتسم من تحت مظلتها ، وتظهر فى الصور عن بعد خليج جلوسستر .

والتقيت بمسز جاك والخالة سيسيليا والشقيقان وجد بعيد القرابة جاء ليستقر فى بوسطن وهو فى السادسة عشرة بعد المائة .

وحققت المقابلة نجاحا باهرا لا يوازى المشقة التى كابدتها من أجلها ؛ ففى محاولتى الأولى استطعت الحصول على القصة الممتعة التى تدور حول حيوانات السنجاب الطائر التى كانت تعنى بها مسز هولمز فى بيتها ، وكيف أنها أصرت على الاحتفاظ بها فى حجرة النوم فى « بيفرلى فارمز » ، وكيف أن هذه الحيوانات الأليفة كانت تزعج هولمز اذ تقفز على سريره ليلا .

وكانت السيدة التى روت لى هذه القصة قد استقبلتنى عند قدومى بوجه جامد وشفتين مضمومتين بعضهما الى بعض كأنهما نحتتا من صخر .

وجلست السيدة منتصبة عليها كل دلائل الشك والريبة حتى ذكرت اسم خالتى سيسيليا فانفجرت أسارير وجهها ونظرت الىّ فى دهشة قالت : « ولكنى كنت أعرف مسز بو معرفة وثيقة أهى خالتك يا ابنتى العزيزة ؟ لم يكن هذا يخطر لى ببال .. انتظرى .. واخلعى معطفك ولا تنصرفى ، ان لدى من الوقت متسعا قد لا تتصورينه واسمحى لى أن أهرع الى حجرتى لأحضر بعض الصور .

ولم أكن ألوم هؤلاء السيدات بل كنت أحبهن . كن نابهات سريعات البديهة يضمرن لذكرى هولمز أعظم الود ولكنهن لم يكنّ على وفاق بعضهن مع بعض مما جعل الأمر أعظم اثارة بالنسبة لى . وربما أحسن التصرف اذ التزمن التحفظ ، فما الداعى الى أن يبحن بمكنون صدورهن لشخص

غريب آت من بلد آخر . وكان يحدث بين الحين والآخر أن يكررن على مسمعى قصصا روتها غيرهن ، ولم تكن النغمة واحدة فى هذه القصص المكررة . كان المستشـــار هولمز شـــأنه شـــأن جميع المتحدثين اللبقين لا يكتم فى صدره أى حديث برع فى الرد عليه ، اذ لا يلبث أن يذيعه بين معارفه وأصدقائه . وكان يحدث أحيانا أن تتعارض القصص ، وكان هذا يسبب لى شيئا من الضيق . ان المحكمة ترفض الأدلة القائمة على الاشاعات، بيد أن هذه لم تكن اشاعة بل اقتباسا مباشرا من الأصل . واذا كان هــذا التعارض بين الاقتباسات المختلفة يسلبنى بعض الأقوال التى جاءت على لسان هولمز فانها كانت تدلنى أيضا على الكثيرمن جوانب شخصية النسوة اللائى قمن بالاقتباس .

وشنطن وهولمز

كان يسيطر على مخيلتى دائما خلال السنة الأولى من الدراسة التى أعقدها لترجمة حياة عظيم من العظماء ، وهم حلو يحدثنى بأن شخصا ما سوف يتقدم ليمد الىّ يد النجدة ، ويكشف لى عن الشخصيات التى أتحدث عنها كما كانت على حقيقتها ، وينتشلنى من وهدة حيرتى وشكى . كنت أتصور أن واحدا من الآباء الرحماء ، أو ممن هم على شاكلة « بابا نويل » ممن يرعون كتاب التراجم ، سوف يتخذ صورة مادية محسوسة ، فى يوم من الأيام السعيدة الطالع ، وينبئنى فى جزم بما أود أن أعرفه . وكان يسيطر علىّ هذا الوهم بالنسبة لهولمز بالذات . فكم من أناس كثيرين قد عرفوه وكل منهم على استعداد أيما استعداد للتحدث عنه .

ولكن ما ظهر بالفعل فى هذه المرة ، لم يكن بحال من المنقذين ، بل كان صعوبة أخرى ، فلقد اختار مساعدا هولمز ، السيد بالفرى والمستشار فرانكفورتر ، وهو الذى يستطيع أن يؤرخ لحياة هولمز بما لا يدع مجالا للشك ، من يعاوننى . وكان مستر بالفرى هو الذى أبلغنى بالأمر . اذ قال لى ، انه وصديقه قد اختارا لهذه المهمة أحد مساعدى هولمز القانونيين ، ممن كان الى جوار هولمز ساعة احتضاره ، ألا وهو « مارك هاو » خريج جامعة هارفارد ، وذلك بعد أن أحسا بصدق عزيمتى فى البحوث التى أجريها. وكان مارك مجندا فى الحرب ولذا فانه لن يستطيع الاشتغال فى الكتاب لفترة من الوقت ، بيد أنه كان من الطبيعى أن يحتفظ لى بجميع المستندات المكتوبة والخطابات التى اطلعت عليها من أجل هذا الغرض . ولم يكن

مسموحا لى بمجرد استخدامها فى التأريخ الزمنى أو لتحديد الأماكن التى وجد بها هولمز فى مختلف الأوقات .

وأضاف مستر بالفرى فى رقة : ان آمالا كبــارا تتعلق بمن اختاره المستشاران . ألم أوافقك على أن ذلك كان تدبيرا طيبا ؟ فأجبت فى تأدب قائلة : حقا كان هذا تدبيرا طيبا . وقلت لمستر بالفرى اننى أعرف والد مارك هاو المدعى مستر مارك أنتونى دى ولف هاو ، وهو واحد من الأدباء القدامى . ألف بنفسه ما يقرب من أربعين كتابا ، وانه كان صديقا لأبى منذ وقت طويل . وحدثنى مستر هاو هنا فى بوسطن بالكثــير عن هولمز وعن الأدب ورأيت أيضا صورة ابنه . وكان شابا وسيما يشتغل بالمحاماة مقيما اذ ذاك فى مالطة فى وظيفة حربية لدى الحكومة العسكرية .

وغادرت مكتب مستر بالفرى ، ورأسى ملىء بالأفكار المتضــاربة ، وسرعان ما طرأت على ذهنى فكرة مؤلمة : هل يريد مستر بالفرى والمستشار فرانكفورتر أن أستسلم وأتقاعس عن مهمتى وافسخ العقد المبرم بينى وبين الناشرين وأن أترك الميدان مقهورة مدحورة ؟ » .

ولم يكن مستر بالفرى فى الواقع قد حاول أن يمنعنى من أن أكتب كتابى هذا . والحقيقة انه جهر برغبته فى أن يقدم لى يد العون بكل سبيل ممكن ، الا فيما يمس مسئولياته الرسمية باعتباره منفذا للوصيــة ، وقال وهو يشد على يدى مودعا : علىّ أن أقابل توم كوركوران فى وشنطن . وكان توم يحب المستشار حبا عميقا . الى جانب أن توم بارع فى الوصف والتصوير .

ولكن هل كان لى وقد خذلت على هذه الصورة أن أقف مكتوفة اليدين ، ان فكرة التراجع عن هذه المهمة كانت تبدو لى مثيرة للسخرية والدهشة . كنت أعرف طريقى . اذ كان علىّ أن أحصل على كل حادثة

وردت فى الخطابات التى كنت أريد الافادة منها ، من جديد ، من الرجل أو المرأة الذى كان له جانب فى الحادثة التى جرى بها الحديث فى الخطاب . فاذا لم يكن فى وسعى أن أنقل نقلا حرفيا ما جاء فى خطابه فى وصف عيد ميلاد هولمز الثمانين على سبيل المثال ، أو فى وصف مرضه الأخير وموته ، فينبغى لى أن أعثر على الشخص الذى شهد كل ذلك ، والذى أجد لديه استعدادا للحديث عما جرى . ولم تكن هذه مهمة مستحيلة الأداء ، وكانت الخطابات التى قرأتها تتعلق بالفترة الممتدة بين عامى ١٩٠٢ و ١٩٣٥ ، وكان يمكن العثور على شهود العيان فى وشنطن ونيويورك ؟ .

بيد أننى شعرت بشعور جديد بخطورة الأمر وجـديته . فلم يكن بمستبعد أن يكون هذا المارك هاو ، الشاب الوسيم القابع فى جزيرة مالطة ، قد بدأ بالفعل فى تسطير فصول كتابه ، ان لم يكن على القرطاس ، ففى ذهنه . وينبغى أن يظهر كتابى أولا قبل أن يأخذ كتابه « القاطع البات » مكانه على رفوف الوراقين . وأقضت مضجعى صفة « القاطع البات » فماذا تعنيه بالضبط ؟ وشرعت فى التفكير والتأمل فيما تعنيه الوثائق التى يستند اليها فى كتابة التراجم ، وشعرت بألا سبيل الى الافلات من التفكير فيها . فهل الخطابات هى البرهان القاطع على الحقائق ، وهل صدق الحادثة يتعلق بمجرد تسطيرها على الورق؟ ربما يبدو أن خطابا من المستشار هولمز ، ممهورا بخط يده ، هو وثيقة تاريخية من الطراز الأول . وتساءلت : ولكن على أى شيء تبرهن ، أهى برهان على الحقائق الواردة فى الخطاب ، أم هى برهان على شخصية الكاتب ؟ لقد كانت السيرة التى كتبتها عن « تشايكوفسكى » تقوم أساسا على الرسائل المتعلقة به ، اذ كان من عادتى أن أعتمد اعتمادا كليا على الخطابات وتذكرت رغم ذلك أن تشايكوفسكى نفسه لم يكن يثق بالرسائل ولم يكن يرى فيها الحجة الدامغة

(ولا عجب فى ذلك فقد كان فى استطاعته أن يكتب الى راعيته ، « ناديجا فون مك » يصف حادثة فى أسلوب طلى وبروح عالية مرحة ، ثم يولى ظهره بعد ذلك ويقص القصة نفسها لشقيقة أناتول فى عبارات تبعث على السأم والنفور) .

« يبدو لى أن الخطابات ليست صادقة كل الصدق — وانى أحكم فى ذلك على نفسى . اذ كنت أضع فى اعتبارى — بغض النظر عمن أكتب اليه — الأثر الذى يتركه خطابى ، لا على الشخص المرسل اليه فحسب ، بل على القارىء العادى . وكان من نتيجة ذلك أنى كنت أتأنق وأنمق . وعادة ما كنت أحرص على أن يكون خطابى ذا سياق ونغمة صادقة ، أو على الأقل أن يكون ظاهره كذلك . ولكنه بغض النظر عن الخطابات التى أكتبها فى اللحظات التى أكون فيها مشغولا مرهقا بأعمالى ، فانى لم أشعر فقط بالراحة النفسية أو الرضا وأنا بسبيل تدبيج رسائلى . فمثل هذه الخطابات ان هى بالنسبة الى الا دافع ندم وابتئاس ، بل وحسرة موجعة فى أغلب الأحيان . ودائما ما يؤرقنى شعور غامض بأن هناك بطلانا وزيفا فيما أقرأ من رسائل العظماء التى تنشر بعد موتهم » .

وانفرد تشايكوفسكى بصراحته ونزعته الوضعية العجيبة عن نفسه : ولعلها كانت صراحة الفنان وأمانته ، وبحثت عن معنى « قرينة » فى المعجم فوجدته : « الشىء الذى يقدم البرهان ، علامة أو اشارة » . وتذكرت أيضا حال السير العجوز ادوارد كوك الانجليزى الذى لم يكن يؤمن بشىء الا اذا قرأ عنه . كان مبدأه « اذا لم تقرأ فلا تؤمن » .

ووليت وجهى شطر المؤرخين لعلى أجد الجواب لديهم : فوجدت أعظمهم يعالج المشكلة فى كثير من الجرأة . فقد قال كولنج وود : « كل شىء يعتبر وثيقة اذا أمكن أن يستخدمه المؤرخ على أنه كذلك » . واتجهت

الى الشعراء والى رجال الأدب ، فسحرنى أن أجد جوته قد عنون ترجمة حياته بعنوانه « الخيال والحقيقة » . وقال تسويغا لهذا العنوان : « لأن أهمية الحقيقة فى حياتنا لا ترجع الى أنها صادقة ، بل الى أنها ذات معنى ». وتذكرت أنه فت فى عضدى فى سنى حداثتى وفى أول عهدى بالكتابة ما لاحظته من أن التراجم تتبع فى سياقها كتب التاريخ ، اذ تضع المصادر فى مرتبتين : احداهما رئيسية والأخرى ثانوية . وتقسيم المصادر على هذا النحو أمر يتفق والمنطق ، غير أنه يحد من نشاط الكاتب ويكبله بالقيود . فلو فرض أن هدف الكاتب لم يكن هو البحث والتنقيب والكشف عن حقائق جديدة ، بل هو عرض الموضوع الذى هو بصدد الكتابة عنه عرضا مجردا للقارىء فان رسم صورة الشخص المؤرخ له ، ليس فى هذه الحالة عملية تنقيب ، بل هو محاولة للتأثير على القارىء . ووجدت متعة كبيرة خلال كل هذا التفكير والتأمل أن أنسخ وأعيد نسخ عبارة « توماس فولر » من كتابه المسمى « الدولة المقدسة » التى يقول فيها : « فليمت دون دمعة واحدة تذرف من أجله ، من لا يطفىء غليله من مياه النهر ، لأنه لا يستطيع بلوغ النبع » .

وكان أصدقاء المستشار هولمز فى وشنطن يضمون العظماء والمشاهير وكان على أن أجتمع بهم وأتحدث معهم ان استطعت ذلك . ولم يكن على فحسب أن أتثبت مما جاء فى تلك الرسائل التى منعت من الحصول عليها ، بل كنت أسعى أيضا فى سبيل الحصول على مزيد من التفاصيل . وكان لدى حتى هذه الساعة من الوثائق والأسانيد ما يتيح لى وصف حياة هولمز حتى سن الستين ، أى الى الوقت الذى ترك فيه بوسطن . وقد جمعت ذلك من أسر « لورنس » و « لو ويلز » و « لورنجز » و « هيلز » و « هاليز » و « بارلوز » . بيد أن موضوع الترجمة ينبغى ألا يتوقف

عند سن بعينها ، كأن يتوقف عند الخمسين أو الخامسة والعشرين أو الأربعين فينبغى أن يتقدم المترجم له فى العمر ، كما يجب أن يلمس القارىء ويشعر بتدرج هذه المراحل . وليس من السهل أن يصف المرء شخصا ما حتى وان كان رجلا أو امرأة على قيد الحياة لم يمض على رؤيته سوى ساعة واحدة . والقليل من الناس من يستطيع ذلك بصورة مقنعة . فمن قائل يقول : « انه مرح ، أو أنه طويل القامة ، أو أنه جاد ، أو أنه فكه للغاية ، أو أنه مهزار قتلنا ضحكا » . بيد أن هؤلاء وهؤلاء لم يقدموا لنا التفاصيل التى تجعل فى وسع المرء أن يتصور الشخص حيا أمام ناظريه .

كان من واجبى أن أتنسم أخبار هذا الهولمز الطاعن فى السن وأتقصى دقائق حياته . وتوجهت الى نيويورك ووشنطن وتحدثت مع الاثنى عشر سكرتيرا ، الواحد بعد الآخر . أما « فرانسيس بيدل » المدعى العام للولايات المتحدة ، و « ارفنج أولدز » فى هيئة الصلب الأمريكية وأوجستن دربى أستاذ القانون فى جامعة نيويورك ، فقد حدثونى عن الطرق التى كان يتبعها فى عمله وعن تقلبات ذهنه وطفراته ساعة العمل . وتحدثوا عن كرم ضيافته ، وخلقه الطيب ، وأدبه الجم ، وذكروا لى كيف أن داره فى وشنطن كانت تضيق بالشبان الذين كانوا ينزلون بها فى أى وقت شاءوا ، طارقين بابه فى أوقات متأخرة من الليل ، ولا يجدون مع ذلك غير البشاشة والترحاب . قال بيدل : « كان هولمز شاكا فى كل شىء عدا الحياة نفسها » . وكان هؤلاء السكرتيرون يكنون للمستشار أعظم آيات الحب ، وكان بودهم لو أعرتهم سمعى ليقصوا على أخبارا عنه لا تنتهى . وكانوا من الكرم وسعة الصدر بحيث كانوا يرافقوننى حتى أبواب مكاتبهم ، وكان قولهم : « حسن أن تتحدث عن هذا الرجل الطيب ان الحديث عنه يبعثه الى الوجود » .

سرت الشائعات فى بوسطن ، وتردد الحديث وكثرت التفكهة حول ميل المستشار هولمز الى الاستعراضات الهزلية ، وبدا لى ممن أفضى لى بهذا النبأ كأنه مسرور لذلك ، فقد كان يحلو للناس أن ينظروا الى ذلك المخلوق الغامض الساخر على أنه يحمل بين جنبيه بعض ما يسمونه بالصفات الانسانية . ولكنى ضقت ذرعا بذلك . فحتى وان كانت القصص التى تروى عنه صحيحة صادقة ، فقد كان سطرا مكتوبا أوقع لدىّ من حديث الأصدقاء الفكه المرح . وانتابتنى حيرة من أمر السبيل الأمثل الى علاج هذا الموقف . فمن العسير أن تجمع أطراف صورة المستشار الطاعن فى السن ، وهو جالس بين رؤوس صلع فى قاعة المحكمة ، كما كان من العسير أن نروى قصة حياته دون الاخلال بها .

أما « توم كوركوران » فقد كان قاطعا باتا فيما قال بهذا الصدد قال : « لا » وضرب مائدة الغداء فى الفندق بكف يده .. « ان هولمز لم يقرب قط استعراضا هزليا . ولو أن هولمز كان ينزع الى المزاح فما كان ذلك الا لرغبة منه فى أن يجارى بقية الصحاب . لقد كان مفكرا أصيلا ، وكان يعيش فى برجه العاجى ، وشعر هناك بالوحدة . وكان عليه أن يشعر من حوله انه لا يقل عن رفاقه مرحا ومجونا . وأراهنك على خمسين دولارا » . وقال كوركوران : « ولك مائة دولار لو أنك أثبت أن هولمز قد جلس ولو مرة واحدة فى حفل هزلى ، وعلى أية حال فهو لم يفعل ذلك بعد أن بلغ الأربعين من عمره وأصبح قاضيا » .

واعتقدت أننى وتوم كوركوران قد تركنا موضوع الاستعراضات الهزلية جانبا ، ولكنى تلقيت رغم ذلك بعد أن ظهر كتابى خطابات تنم عن غضب وحنق تتساءل عما اذا كنت أنا امرأة متصنعة الحياء ، أو أننى كنت أعتقد أن المستشار هولمز يتصف بهذه الصفة . ولم يمتنع عن الحديث

من بين الاثنى عشر سكرتيرا سوى شخص واحد . وكان هذا الرجل الى جوار هولمز وقت أن مات . اذ اعترض على تأليفى هـذا الكتاب وأعرب عن معارضته صراحة ، كما قال أيضا انه يفضل ألا يحدثنى عن موت هولمز . ونهضت فى التو للانصراف ولكنه نادانى قبل أن أبلغ الباب . وقال : « وعلى أية حال ، فان أخف الضررين أن أخبرك بالأمر . وسأكتب اليـك بما طلبته منى ، وما تريدين معرفته » .

ولم أتلق منه بعد ذلك نبأ .

وشاءت الأقدار لحسن حظى أن ألتقى بابنة أخت لهولمز ، كانت تتردد دائما على الأسرة فى وشنطن . وكان اسمها دوروثى فون ، قرينة ويلاند فوجهام عالم البحار . وقد حدثنى سائس عربة هولمز الكهل ، تشارلس باكلى ، عنها عندما قادنى فى مركبته الى ارلنجتون ليدلنى على قبر هولمز . وزرت مسز فوجهام وأمضيت ليلة فى دارها فى مدينة جورج . وطفقنا نتحدث عن المستشار طيلة المساء ، وعندما ودعتها فى صبيحة اليوم التالى ناولتنى صندوقا من الورق المقوى مهشـما بعض الشىء ، مربوطا بشريط أحمر . وقالت : « هاك بعض الرسائل . ما عليك الا أن تطلعى عليها لترى ما اذا كان هناك ما يمكن أن تستفيدى منـه .. ثم أعيديها الىّ » . وفى طريقى بالقطار الى فلادلفيا فتحت صندوق الرسائل . وكانت احداها مرسلة من قريب لهولمز فى بوسطن — وهو رجل كنت قد التقيت به وتحدثت اليه ، وكان حاضرا وقت وفاة هولمز فى وشنطن — وقام هذا بالرد بخطاب الى بوسطن ، وبدا عظيم التأثر بما رآه .

وتذكرت مستر بالفرى الذى لم أعده بشىء فيما عدا ما يتصل بالرسائل التى لم تنشر بعد والتى أطلعنى عليها . ورفعت الشكر الى الله على ما أنعمت به المقادير علىّ . وعدت بعد ذلك الى وشنطن ، وتحدثت مع حاجب المحكمة

العليا ، ومع الخدم الذين اشتغلوا لدى المستشار هولمز ، والحقيقة أننى حادثت كل شخص كان فى مقدوره أن يصف لى مجريات الحوادث اليومية لدى الأسرة القاطنة فى ١٧٢٠ شـــارع آى . وأخبرنى چيمس دوهرتى ، ساعى محكمة بوسطن كيف أنه كان بصحبة هولمز وقت أن جاء الى وشنطن مستقلا القطار لأول مرة ، وكان ذلك يوم الجمعة ثانى أيام شهر ديسمبر سنة ١٩٠٢ ، وما حدث فى ذلك اليوم المشهود وسط اضرابات عمـــال الفحم . وكان الناس يتساءلون عما اذا كان هولمز يزمع الاقامة طويلا ، ويودون الكشف عن حقيقته ، وكان دوهرتى يتمتع بموهبة اتقان الوصف التى كان يتمتع بها كوركوران وأخبرنى أرثر توماس ، ذلك الزنجى الطويل القامة الطاعن فى السن والذى كان يعمل ساعيا لمدة طويلة فى المحـــكمة العليا : « لقد خدمت كثيرين من السادة ، ولكنى لم أشهد مثل هذا السيد . لقد كنت أكن للمستشار هولمز حبا عميقا طاغيا ، واعتقادى أنه كان يبادلنى هذا الشعور أيضا » .

ولم يبد هؤلاء القوم أى شعور بالدهشة عندما طلبت اليهم الافضاء لى بدقائق حياة هولمز ، وعاداته اليومية والمواضع التى كانت توجد بها بعض قطع الأثاث الخاصة فى المسكن القائم فى «آى ستريت» وأى مقعد كان يفضل هولمز الجلوس عليه وعما اذا كانت نوافذ داره تطل جهة الجنوب أو ناحية الغرب . وحصلت من أحد المصورين فى وشنطن على تسعة مناظر مختلفة تصور الأجزاء الداخلية من الدار ، وكانت جميعها صورا واضحة عظيمة الدلالة ، صور تمثل مكتبة هولمز ، والمكتب الذى كان يعمل عليه وحجرة الطعام وحجرة النوم الخاصة به ذات السرير المصنوع من الحديد المفضض . ووصفت دوروثى فوجهام أثاث المنزل وأخبرتنى بمصادر بعض القطع والآنية الفضية النفيسة . وهكذا وجدت نفسى أعنى من جـــديد

بالدقائق ، ولكن ما العيب فى ذلك فكيف لنا أن نعيد أجزاء الصورة الماضية دون هذه التفاصيل ؟ فلو انتوى أحد الممثلين أن يلعب دور المستشار هولمز فهل يترفع عن معرفة الطريقة التى كان يعقد بها هولمز يديه عندما يجلس ، أو عما اذا كان هولمز ممن يتلمظون أثناء الغداء ؟ .

ولا غناء لى عن هذه الأشياء جميعها ، فعلىّ أن أحصل عليها لتكون فى متناول يدى ، وعلىّ أن أدرسها لتكون هاديا لى فى رسم شخصياتى . وكانت هذه التفاصيل عظيمة الأهمية خاصة فيما يتعلق بمسز هولمز . فان حياة المرأة عادة ما تقوم على أساس من مجموعة من الأشياء الملموسة المحسوسة ، وأثاث بيت المرأة ان هو الا أساس حياتها العاطفية الروحية . وقد دهشت لما علمته من دوروثى فوجهام من ان مسز هولمز كانت تحتفظ بسجادة من الفراء الأبيض الى جوار سريرها . وانتابنى شعور بالارتياح والغبطة عندما علمت بذلك فما من شك فى أن مسز هولمز كانت تستمتع أيما استمتاع بتلك السجادة .

وليست فلسفتى مع ذلك فى كتابة التراجم فلسفة مادية بأية حال . لقد كانت رغبتى الجامحة هى أن أميط اللثام عن ذهن هولمز وشخصيته ، أو بمعنى آخر أن أكشف عن حياته جميعها وألمس أثرها على غيره من معاصريه وعلى الأمة جمعاء . لقد قال هولمز : « ان شرارة العبقرية سريعة الانطلاق . فعندما يتسنم المرء قمة المجد يحمل غيره على الايمان بالمجد » .

وكان فى نيتى أن أنقل العبارات التى فاه بها على أوسع نطاق ، وأن أنقل نصوص خطبه وآرائه القانونية . ولقد علمتنى التجارب ألا أثقل على القارىء بذكر مطولات منقولة عن الشخص المترجم له أو حكم مأثورة ، عسيرة الفهم ، مالم يأخذ كل ذلك مكانه بين خيوط القصة فى اتساق وحبكة .

وجعلت هدفى أن أتيح للقارىء أن يرى هولمز وهو يتحدث ، وأن يستمع الى نبرات صوته ، وأن يتعرف الحجرة التى كان يجلس بها ويقف على الظروف التى أحاطت بالحادثة . وقد قيل ان الهدف من كتابة ترجمة لحياة هولمز هو « أن نضعه فى مكانه بين تيارات الوعى الفكرى الأمريكى ونحدد الحلقة التى كان يمثلها فى سلسلة هذا الوعى » . ولكننى لا أطمئن بحال الى هذا الزعم . فالعبارة طنانة رنانة ، وما بلغنى أن هناك « تيارا » له صفة الوحدة التاريخية والكيان التاريخى ، ولو وجد مثل هذا التيار بالفعل ، فما أحسب أن فى الامكان أن « نضع » هولمز فى مكانه منه . والحقيقة أن الغموض الذى يحيط بمركز هولمز ، يمثل فى نظرى أبرز الصفات المميزة لهولمز .

وكنت قد شارفت نهاية بحثى واستقصائى ، وكاد يحين الوقت الذى يتحتم على فيه أن أتوقف عن التنقيب وأن أشرع فى الكتابة . وقرب نهاية بحثى عقدت مقابلة كانت فى ظنى عملا فاشلا ، ولكنه تبين لى فيما بعد أنها من أعظم ما قمت به وأكثره نفعا . وكان الشخص الذى عقدت معه المقابلة واحدا من سكرتيرى هولمز القانونيين ، كان يشغل فى تلك الآونة مركزا مرموقا فى الحكومة الأمريكية ابان الحرب . وكان الوصف الذى وصف به فى وشنطن هو أنه شخص « جاف راجح العقل » وحذرنى البعض من أنه ليس بالشخص الذى يبوح بالسر .

وتمت المقابلة فى أحد فنادق وشنطن وفى موعد الغداء . ولما كان هذا الشخص كثير الشواغل ، وفى عجلة من أمره ، فلم يكن علىّ أن أمهد لحديثى معه بالقول بأن كتابة التراجم ان هى الا اختصار لمشاهدة كبيرة فى سلسلة اللقطات القصيرة التى يمكن أن تبصرها العين المجردة دفعة واحدة . وبدلا من أن أفعل ذلك فقد سارعت الى انتزاع دفتر للمذكرات

من حقيبتى ومعه قائمة بالأسئلة التى أريد أن أوجهها اليه ثم شرعت فى انجاز مهمتى .

وكان هذا السيد ينصت الىّ أثناء تناوله طعامه ، ولا يضن بملاحظة أو بأخرى هنا وهناك . سألته قائلا : هل كان المستشار هولمز وهو فى السابعة والثمانين من سنه ، يجد صعوبة عندما ينهض من جلسته فى أن يحتفظ بتوازنه ؟ وهل كان يترنح ؟

ووضع هذا المحامى قدح القهوة على المائدة فى عنف وبصوت مسموع وخرج صوته جافا صارما . قال : « ان التفاهات التى تسعين للحصول عليها قد أعرضت عنها ونبذتها منذ زمن بعيد آملا فى أن أحصل على صورة كاملة شاملة للمستشار » كانت هفوة وكبوة منى ، وشعّرت اذ ذاك بذنبى . لقد كان من الواجب علىّ أن أمهد لحديثى بما أهملت ذكره . ولم أستطع فى ذلك اليوم أن أستعيد ثقة المحامى على أى نحو . ولكنه تحملنى رغم ذلك ، وأجاب عن أسئلتى ، وكشف لى ما قاله عن الكثير من الأساليب التى اتبعها هولمز فى مواجهته للحياة فى كهولته . ولقد كان هذا السكرتير الى جوار المستشار هولمز عند وفاة قرينة المستشار عام ١٩٢٩ ، وشهد المستشار هولمز وهو يكتب ، وهو فى غمرة حزنه ، مقاله : « الولايات المتحدة وروسيكا شفيمر » الذى يقول فيه : « ولو أن هناك مبدأ من مبادىء الدستور الأمريكى يدعونا الى التمسك به أكثر من غيره فان هذا المبدأ هو مبدأ حرية الفكر — ولست أقصد حرية الفكر بالنسبة لمن يوافقوننا على آرائنا ، بل حرية الفكر لمن نحقد عليهم » .

قال المحامى : « لقد شهدت احدى الفلسفات تمر بأخطر التجارب وأحلك الساعات » . كان اعتقاد هولمز الراسخ الدائم هو أن الحياة انما هى العمل ، واستغلال كل لقدراته فلم ينقطع روتين العمل لدى هولمز رغم وفاة

قرينته . ولم يكن من شأنه الا أن مضى فى عمـله وواصـل الاضطلاع بمسئولياته . لقد كان يعيش فلسفته ويطبقها بحذافيرها » .

ورفعت آيات الشـكر الى هذا المحامى وودعته منصرفة . وكان أن وصلنى منه بعد مضى ثلاث سنوات على هذه المقابلة ، عندما نشر كتابى ، خطاب مطول يحمل عبارات الود والاستحسان قال لى فيه انه يمتدح ما كتبته وانه دهش لما جاء فى الكتاب . وأعرب عن أسفه الشـديد لأنه لم يبح بكل ما فى صدره أثناء تلك المقابلة .

وسارعت بعد هذه المقابلة الى لقاء المستشار براديس ، ولم يكن أمام هذا الرجل — وكان قد بلغ السابعة والثمانين من عمره — الا سـنة واحدة يعيشها بين الأحياء . وكان مسكنه عاريا من كل بهرج ، لا أثر فيه لاهتمام خاص بتأثيثه . وكان هذا الكهل يجلس الى مكتبه موليا ظهره للنافذة يشع الضياء من بين شعر رأسه الأشيب ، الشعث . ولم يكن يضع نظارات على عينيه ، كما أن سمعه كان سليما . وكان وجهه غائرا تبدو معالمه واضحة وامتدت نحافته الى جسده أيضا فبدت عليه سيماء الشباب . وكان يتحدث فى بطء ظاهر ،وكانت تحوطه هالة من الزهـد والتقشف . وكانت هذه هى المرة الأولى التى شعرت فيها أننى أحادث فى الواقع قديسا .. قديسا يمتاز الى ذلك بفطنة وحضور بديهة لا يخطئهما الناظر اليه منذ اللحظة الأولى .

ولم يبد براديس أى أثر من النفور أو الضيق عندما سألته عن الدقائق والتفاصيل . قال لى : ولكن عليك بالطبع أن تدونى ملاحظاتك . فما من شك فى أنك قد تنسين ما يدور أو قد تخطئين فى تذكر حادثة من الحوادث .

وكان المستشار براديس هو الشخص الوحيد الذى ما زال على قيد الحياة والذى كان يعمل فى مكاتب شاتوك ومونرو فى بوسطن عام ١٨٧٠

وما بعدها ، حيث كان يعمل هولمز محاميا . وسألت براديس : هلا وصفت لى المكتب ؟ عندما كنت تدخل من الباب فما الذى كنت تراه على اليمين وعلى اليسار ؟ وأين كان مكتب هولمز .

وصمت براديس لحظة ثم قال : « كان هولمز يجلس فى أقصى المكتب الى اليمين ، وكان عليه أن يمر بمكتب شاتوك ليبلغ مكتبه . وكان ماجنتسكى يجلس عند المدخل أمام مائدة . كان من بين كتبه المكتب . ويحمل رتبة ضابط . فقد كان الكابتن ماجنتسكى من بين رفقاء هولمز فى الحرب وفى سرية هولمز نفسها » .

ولكنى كنت أعرف قصة ماجنتسكى أيضا . فقد كان زميلا للكابتن هولمز الشاب فى الكتيبة العشرين ، المؤلفة من متطوعى مساشوستس ، ولكنه ما لبث أن قلبت له الحياة ظهر المجن وحلت به الكوارث ولم ينقذه سوى هولمز . وانتهى المستشار براديس الى القول : « كان هولمز رجلا عظيما . أجل رجلا عظيما ، ولا يخدعك أحد فيحدثك بغير ذلك . لقد اشتغلت بالمحاماة طيلة ثمانية وثلاثين عاما قبل أن أعتلى منصة القضاء ، وعركت المهنة وخبرتها . ولم يكن أمامى غير ذلك ، فقد كنت أكسب قوتى . كان هذا هو سبيل دراستى . ولكنه لم يكن على هولمز أن يشق هذا الطريق المضنى . فقد شب وترعرع فى ظل مكتبة أبيه . وكان متعاليا مترفعا ، له صفات أصحاب الأبراج العاجية . ولكنه كان على علم وفير كما كان صادق الاحساس نافذ البصيرة ولا ضير من أن يعتلى منصة القضاء رجل من أصحاب الأبراج العاجية خلال جيل من الأجيال » .

والمحامون ميالون عادة الى الدقة فى التعبير وهم يكرهون الأسئلة المهوشة المشوشة . ولكنى جازفت بالقاء سؤال من هذا النوع ، فلم أكن أرضى أن يضفى هذا الرجل على نفسه حذقا وبراعة على حسابى فبادرته

بالقول : « ان بعض الناس يحلو لهم أن يسموا هولمز شاكا . وبعضهم ينعتونه بالقسوة والجمود . هلا سمعت يا سيدى المستشار هولمز يعرب عن اعتقاد ما حول الانسانية أو عن مبدأ فلسفى ؟

وأطرق براديس هنيهة ثم قال « لقد كان مما يؤمن به هولمز أنه يجب أن يكون الانسان حرا على أوسع نطاق . كان هولمز من الداعين الى الحرية » .

ونهضت للانصراف . فابتسم براديس وسار معى حتى الباب وقال : « كان هولمز دائما عطوفا على المحامين الذين كانوا يجادلوننا » .

واستأجرت عربة أقلتنى الى محطة القطار المعروفة « بيونيان ستيشن » وقبل أن أصعد الى القطار جلست فى حجرة الانتظار لأدون مذكراتى (لا شك فى أن ماقاله براديس لم يعدل قط ، ولكن مذكراتى كانت تتعلق بالشخص نفسه وبالانطباعات التى خرجت بها من مقابلته) . لقد ترك براديس أثرا عميقا فى نفسى . وسطرت ما يقرب من عشر صفحات من حجم صفحات مفكرات الجيب الصغيرة ، وفى النهاية نقلت عبارة لم يكن لها علاقة بالحقائق أو المقابلات أو الخطة التى أسير عليها فى تدوين تراجمى تقول : « لا أسمع قط بأنباء سارة ، كل ما هنالك هو صورة ما لشخصية كريمة » .

واعتقادى أن هذه الكلمات من تأليف « ثرو » — ولقد مضت على كتابتى لهذه العبارة ثمانى عشرة سنة ولكنى ما ان أنظر الى مفكرتى حتى يبعث فى الشعور القديم . كنت قد كتبت على هامش المفكرة هذه العبارة : « ان العظماء يعترفون بكهولتهم وهم يتقبلون الشيخوخة راضين وبذلك يقطعون الطريق الممتد أمامهم فى الحياة ، والذى يتضاءل شيئا فشيئا » .

ربما بدت هذه العبارة عاطفية تافهة ، وهكذا تبدو أفكارنا عندما نكتبها

لأول مرة ، ولكن هذه هى الحقيقة التى لا مراء فيها ، وهى حقيقة علمنى اياها برادیس . كما علمنى اياها كثيرون .

وكنت هنا فى وشنطن أقترب أكثر فأكثر من هولمز الكهل ، الذى وصف « بالشيخ العظيم » ولم أنفر من كبر سنه بل رحبت به . وكان المستشار الأول ، ستون ، عندما قابلته قد بلغ السبعين من عمره أو كاد .. كان قد تولى منصبه فى المحكمة العليا سنة ١٩٢٥ . بيد أن ما قاله كان له علاقة وثيقة بما أكتب اذ قال : « لقد ازداد هولمز بعد سن الثمانين هيبة ومكانة فى ميدان القانون » .

وأفضى الى ستون بقصة قصيرة عن هولمز عندما كان فى التسعين من عمره . فقد كان مناحيم الطفل المعجزة آنذاك يعزف الكمان فى وشنطن . وسمع ستون عزفه ، فسارع الى اخبار هولمز بأمره فى اليوم التالى . قال ستون : عجيب حقا أن ترين مثل هذا الصبى العادى الموفور الصحة يخرج الى الجمهور ويشرع فى تمرير قوسه على أوتار كمانه فلا تسمعين الا السحر والطرب . ولم يكن هولمز من المهتمين أدنى اهتمام بالموسيقى ، ولكنه كان يعجب دائما بالمبرزين فى أى ميدان من الميادين . وأعرب هولمز عن أمله فى أن يقوم بمثل هذا العزف الرائع ، ولكن ستون رد عليه قائلا : طائفة كبيرة منا تود لو استطاعت أن تسجل بعض ما يدور بخلدها من آراء . فسر هولمز لذلك وأخبر ستون بأنه يجب ألا يضع نفسه فى هذا الفريق فانه (أى ستون) قد حقق نجاحا مرموقا فى ابتداع الآراء الصائبة ، فرد عليه ستون بعبارة انكار واستغفار تقليدية . فقال هولمز فى ابتهاج وحماسة : « لا يدخل فى روعك يا صديقى ان بامكانك أن تخدع الله بمثل هذه العبارة من عبارات الاستغفار » .

ان مرح الشيخوخة يمتاز بصفة فريدة لا نظير لها . انه مقذع لاذع ولكنه

لا يؤذى . كانت نظـرة هولمز فى كهولته نظـرة ثاقبة نافذة تلقى الرعب فى النفس . أخبرنى أحد سكرتيريه القانونيين قائلا : « لم يكن هولمز رؤوفا بالناس ، فمثل هذه النظرة التى حدثتك عنها كفيلة بأن تلقى الرعب فى النفوس » واعتقادى أن هكذا يجب أن يكون الحال ، فيجب أن يحاط الكهول بالرهبة . لقد كانت هذه هى نظرة التوراة اليهم . ألم يكن موسى رهيبا مهيبا ؟ .

وأكد لى أيضا المستشار الأول هيوز ، عندما قابلته ما قيل من أن قوى هولمز العقلية قد ازدادت رسوخا بتقدمه فى السن . فعندما عين هولمز فى المحكمة عام ١٩٠٢ كان يكتب أحكاما مطولة وبحلول عام ١٩١٠ حين التحقت أنا بها أخذ هولمز فى كتابة أحكام أقصر مما اعتاد كتابته . ولكن البلاغة والصنعة كانتا باديتين فيها . ولكنه لم يكن يخطىء قط . لقد كان هــولمز بالغ النمو متكاملا يوم قدمت الى المحكمة .

ان لفظة بالغ النمو أثارت فى ذهنى خواطر كثيرة . أيقال بالغ النمو فى سن الواحد والستين ؟ وطرأ الى ذهنى أن بعض الناس لا يشب عن الطوق ، لا فى سن الستين ، ولا فى السادسة والتسعين ، فان بلوغ التكامل والنمو ان هو الا مطلب عزيز . ولم يكن المستشار الأول هيوز يوم أن قابلته قد تجاوز الواحد والثمانين . ولقد دعانى ردا على خطابى الى زيارته فى داره فى وشنطن . وكان الوقت أصيلا عندما سمح لى بالدخول فى حجـرة للاستقبال تتجاوز فى ضخامتها حجر الاستقبال فى قصر باكنجهام الملكى . وكان المستشار هيوز وزوجه واقفين بازاء نافذة فى أقصى الحجرة ، وقد علا المشيب رأسيهما ، الا أن وقفتهما كانت سليمة لا انحناء فيهـا ، وان لتزما الصمت ، وبدأت رحلتى عبر أرضية الحجرة اللامعة ، وبلغ بى التحمس نى كنت أشبه بمن تهرول فعــلا . ولمحت كليهما ضاحكا . وما ان بلغت

مكانهما حتى كنا جميعا نتبادل البسمات دون أن نبدأ بنطق كلمة واحدة .

وتحدث المستشار هيوز ما يقرب من ساعتين كاملتين ، وقدمت الى مسز هيوز الشاى من مائدة صغيرة وضعت أمامها . قال هيوز : « لم يحدثنى هولمز قط عن أبيه ولكنه كان يجد متعة فى الحديث عن عمه چون هولمز » .

وأومأت برأسى ثم قاطعته قائلة : « لقد كان العم چون طيب الخلق . رجل لم يكن ذا مطمع أو مطمح ، يحظى بحب الجميع ، كان العم چون يحب الطيور ، وكان يلذ له الجلوس فى ساحة كمبردج تحت أشعة الشمس بالقرب من منزله » .

قال هيوز : « أجل .. لقد اعتاد العم چون أن يقول لوندل : يجب أن تكون فظا ياوندل . لا تنس أن تكون فظا » . ومضى هيوز يقول : ولم يكن هولمز وهو فى سن الثمانين يهتم بالقضايا المعروضة فحسب ، بل كان يهتم بالمحامين أيضا . وكان بوسعه أن يكتب موجزا للقضية أثناء دفاع المحامى وأضاف هيوز قوله : « وليس هذا بالأمر الهين بأى حال .. وقد اعتاد هولمز بعد الغداء وعندما يعود القضاة الى المحكمة أن يسند جبهته الى كفه ويغفو لفترة وجيزة — ولكنه لم يكن يفعل ذلك الا بعد أن يكون قد استوعب كل ما يتعلق بالقضية وانتهى الى رأى فيها » . وقد حدث ذات مرة أن وكزه هيوز . فهب هولمز من غفوته صائحا « يا يسوع المسيح ! » وقد ردد هيوز وهو يروى هذه القصة هذه الصيحة بأعلى صوته . وكان جميلا أن أسمعه وهو جالس هناك ، تحيط به هالة من الهيبة والجلال اللذين كانا لمنصبه العظيم .

وتذكرت الأقوال التى أدلى بها هولمز نفسه عندما رأى نفسه على أعتاب الشيخوخة ، اذ قال وهو فى سن الثامنة والخمسين : « اننا نحن معشر الشيوخ نسمع بآذاننا هدير الشلالات ، ونعلم أن اليوم قريب » . وقال

وهو فى سن التسعين فى خطبة عيد ميلاده الشهيرة التى أذيعت بالراديو :
« ان راكبى الجياد فى السباق لا يتوقفون عن الجرى حتى يبلغوا الهدف .
ان الموت يهمس فى أذنىَّ قائلا عش ! فانى آت » . وأعظم من هذه وتلك ،
الكلمات التى كتبها هولمز وهو فى سن الثالثة والثمانين ، الى طالب حقوق
صينى شاب فى وشنطن يدعى « وو » : اذا كنت محتضرا فان كلماتى
الأخيرة سوف تكون : كن مؤمنا وامض الى الهدف المجهول .

لم يكن بوسع شاب من الشبان أن يقول ذلك . لقد ثبت لى ذلك
بالتجربة ، كما ثبت لى أيضا أنه ليس بوسع كاتب التراجم أن يستقى
ما يريد من معلومات بطريق مباشر لا اعوجاج فيه . كما أنه يتحتم التحقق
من الأسانيد الخاصة بحياة شخص من الأشخاص لقد حدثنى هؤلاء الناس
جميعا عن المستشار هولمز — السيدات وحجاب المحاكم والكتبة القانونيون
كما حدثنى عنه أسقف مساشوستس ، والثلاثة المستشارون فى المحكمة
العليا بالولايات المتحدة ، ولم تكن المادة التى استفدت منها فحسب
ما تذكره هؤلاء عن حياة المستشار هولمز ، بل ما كانت عليه حياتهم هم .
وأحيانا كنت أضيق بهؤلاء ، معتقدة أن شخصيات هؤلاء المتحدثين المسنين
الأفاضل قد طغت على صورة الماضى وعلى الأحداث التى كنت أسعى
للوصول الى حقيقتها . وكنت أود صادقة أن أحول الحديث عن أشخاصهم
الى الحديث عن هولمز .

ولكنى كنت مخطئة فى ذلك . فان ذاكرة الشخص ان هى الا جزء من
كيانه ، ولا يمكن بحال أن تنتزع من المجال الذى تعيش فيه . كنت أتخيل
فى بعض الأحيان الشخص المدعو للحديث مع شخصية هامة فى صورة
امرأة دعيت الى رقص الفالس على أنغام الموسيقى ، يتحتم عليها أن تتبع
الدقات فى يسر وخفة مهما كانت عليها من تعقيد . فمن الممكن العودة

بالحديث الى مجراه المنشود فى كثير من حسن التصرف ودون أن يشعر المتحدثون ، ولكنه لا مجال هناك للاجبار أو الشعور بالضيق .

ولم يتم بحثى ، والحقيقة أن البحث لا ينتهى قط ، حتى بعد أن ينهى المرء كتابه ويرسله الى المطبعة . فلابد أن يكون هناك أمام كاتب الترجمة مقابلة من الممكن عقدها ، أو كتاب ينبغى قراءته ، أو محكمة يحسن تفقدها ، أو مستند يتحتم التحقق من صحته .

بيد أن هولمز ، الشاب والكهل ، ما لبث أن ظهر الى الوجود وخرج الى النور وكشف عن معدنه . ان المقابلات والرسائل والمشاهد المصورة فى الكتب والحجرات والأماكن التى استقى منها المرء معلوماته واهتدى فيها الى الأسانيد المنشودة ، كل ذلك يوحى الى المرء الشعور باتصال الحياة. ليس فى طاقتى أن أبعث انسانا من الموت . ولكن باستطاعتى استنادا الى المواد التى جمعتها من هنا وهناك ، أن أعرض صورة عريضة الخطوط له ، وربما استطعت استحضار روحه وشخصيته .

٥

صحبة العلماء

انها أعظم وأجمل صحبة في العالم — صحبة هؤلاء النابهين الأذكياء البطيئين في النطق الذين يبعثون النشاط والحمية في نفوس من حولهم . لقد صرح الدكتور جونسون في احدى المرات بقوله : على الكتاب أن يتحدثوا كلما استطاعوا الى ذلك سبيلا مع المحامين « فالمحامون قد عركوا الحياة عمليا ، ولديهم ما يبغيه الكتاب من دراية » . ان هذا حق ، وحق أيضا أن المتصدى لكتابة ترجمة حياة انسان ، وينطبق على ذلك دون ريب ، في حاجة الى أن يكون في صحبة العلماء وأساتذة التاريخ وكتاب البحوث والمقالات العلمية وعميدى المدارس العالية . لقد اختار كل من هؤلاء العلماء حقبة من الزمن ، أو موضوعا من الموضوعات ، أو ميدانا من ميادين العلم وقف حياته ونشاطه عليه . وما من عالم متخصص يلقى القول على عواهنه ، أو يستخف بالحقائق الثابتة . وان هذا الحرص من جانبهم يطلق الحرية لكاتب التراجم ، ويتيح له أن يتنقل خلال الأجيال ويقطع الأزمنة السحيقة بتأملاته وبحوثه .

والأستاذ العالم يزن كل ما يقال بميزان دقيق ، وهو يكره الأحكام السريعة المبتسرة وينفر من الردود الجزافية التى تجيء عن سرعة بديهة ولا تنطوى على تعمق في الفكر وصدق واخلاص للحقيقة . والى جانب ذلك فهو يحرص على ألا يقع انسان على خطأ له في أحكامه وافتراضاته. ثم ان هناك ضربا من البراعة الممتعة تحتل مكانا مكينا من نفسه ، انه يقص القصة الفكهة والملحة الطريفة في حماسة وابتهاج لا يعدلان حماسة وابتهاج آدم وهو يقص نفس القصة الى حواء للمرة الأولى . وهو صلب العود

فى مهنته ، فيحدث أن يظهر تعليق لاذع جارح لكتاب أصدره أخيرا ، فى المجلة التاريخية ، ونراه فى عيد الميلاد التالى يجلس مع كاتب هذا التعليق فى محفل المؤرخين ، يشربان الجعة فى ود وصفاء ، والأساتذة العلماء يسخر بعضهم من بعض ويسخرون من الحياة نفسها ، وكلهم على استعداد للكفاح والنضال من أجل مبادئه العلمية فى جرأة واستماتة دونها جرأة الجندى فى حومة الوغى واستماتته . والعالم لا يخشى تلك الكلمات التى يخشاها عامة الناس مثل كلمة « الحق » والحقيقة أنه لا يخشى أى لفظ على الاطلاق . ويطيب للعالم كما يطيب للمشتغل بالمحاماة أن يتحدث وأن يلقن الدروس ، وهو مشغوف بتدريب ذهنه وشحذ قريحته ، عالم بأنه يحس ما يفعل . بيد أنه يخالف المحامى فى أنه على ثقة دائما من أن فى الوقت متسعا للحديث .

وان كنت اليوم أسعى الى صحبة العلماء وأرغب فيها عن شغف وحب فقد سعيت اليها من قبل مدفوعة بالضرورة والحجة . فلم يكد يسلم كتاب « أمريكى من جبل أوليمبس » الى الناشرين حتى شرعت فى وضع ترجمة لحياة جون آدمز ، الذى كان ثانى رئيس للولايات المتحدة . وكان الفارق كبيرا بين هذا الرجل والمستشار هولمز الذى سبق الحديث عنه . فقد نشأ جون آدمز فى أسرة رقيقة الحال وكان والده مزارعا وشماسا فى كنيسة «بريسترى» بمساشوستس وتعداد سكانها ١٥٠٠ نسمة . وهنا نصادف قصة رجل ذى طابع مخالف ، فانه لم يولد وفى فمه ملعقة من ذهب ، ولم ينحدر من أسرة فى القمة ، ومن ثم استطاع أن يحتفظ بنفسه فى هذا المستوى العالى . لم يكن جون آدمز رجلا من أصحاب الأبراج العاجية ولكنه كان رجلا من خلق الأرض ، له صفات عامة للناس ، ظل طوال حياته يحمل صفات القروى الساذج البسيط . لقد قال عنه جيفرجون : « لم يكن رقيقا

أو رشيقا ، كما أنه لم يكن يتمتع دائما بطلاقة فى التعبير عند القاء خطبه ، غير أنه خرج علينا بقوة فى التفكير وقوة فى التعبير ، كانت تهزنا فى مقاعدنا . ان الأمة لا تدين لأحد بفضل استقلالها كما تدين لجون آدمز » .

وعجبت كيف ستكون عليه صورة هذا الرجل الذى كان يعيش منذ قرنين من الزمان ؟ فاذا كانت نقابة العلماء القانونيين قد وارت المستشار هولمز قبره مكللة اياه بأكاليل الغار ، فان الكتب المدرسية قد لحدت چون آدمز فى قبر من الاطراء والمديح كان مصير « الآباء الذين أرسوا أسس الأمة قاطبة » . أما عن أصدقائى النازعين الى السياسات التحررية فانهم قد نعتوا جون آدمز بأنه رجعى متحفظ لا خير فيه ، وذنب كهل لدعاة الاتحاد الفدرالى . وقرأت مذكرات آدمز التى كان قد بدأها وهو فى الواحدة والعشرين من سنه ، وقرأت الرسائل التى كان يتبادلها مع زوجه « ابيجيل » ولم أسمع صدى لرجعية أو تحفظ ... كتب چون آدمز الشاب يقول : « ان فى قلبى حماسة ، حماسة لبلادى ولأصدقائها ، لا يمكن لقوة أن تطفىء شعلتها أو يخفت ضوؤها ووهجها ، انها حماسة تتأجج فى بعض الأوقات والمجالس حيث كان يجب أن تظل كمينة فى صدرى مستقرة بين أضلعى . ان قول الكولونيل أوتيس هو : « ان مرجل الحماسة لا ينى عن الغليان » .

وصرح بنجامين فرانكلين عندما كان مع آدمز فى باريس قبيل عام ١٧٨٠ بأن فى مقدور آدمز أن ينقلب مجنونا طفرة واحدة ، وأن يشق طريقه متدافعا بمنكبيه راكبا رأسه فيجلب على العلاقات الدبلوماسية ألوانا من المتاعب لا حد لها . وكان چون آدمز يدرك هذه النزعة الغريبة فى نفسه ، ولذا فقد اعتاد أن ينصح نفسه ويحذرها من مغبة هذا المسلك قائلا : « كن عاقلا يا آدمز ، لا تكن كالريشة تجتاحها العواصف المباغتة وتلعب بها الأنواء » .

وعجيب أن يلقى مثل هذا الرجل بنفسه فى خضم عمل غامض غير محدود الأفق لادارة دفة الحكم فى البلاد . ومع ذلك فقد كان چون آدمز يتمتع بموهبة نادرة فى الحكم ، ويحمل بين جنبيه شغفا وولعا بعمله ، شغف الفنان وولعه بعمله الفنى . ومنذ سنى حياته الأولى عمد الى دراسة لنظم الجمهوريات وعقد المقارنات بينها . وعندما وجد أن أحدا من أصدقائه يريد أن يراسله فى هذا الموضوع كتب يقول : « لست أدرى ما السبب ولكنه يبدو أن الناس ينكرون الخوض فى نظم الحكم . هل السبب فى ذلك هو أن الموضوع موضوع جاف للغاية ؟ وعلى أية حالة ، فدراسة نظم الحكم بالنسبة لى ، أشد متعة من أمتع القصص والروايات » .

وكان يتحتم علىّ لكى أتصدى لكتابة سيرة چون آدمز أن أدرس بعض جوانب علم نظم الحكم المقارن، وعلى أن أدرس أولا وقبل كل شىء الأحوال التى كانت سائدة فى أمريكا فى ظل الاستعمار . لقد كان چون آدمز فخورا دائما بأصله الانجليزى ، ولم يزايله هذا الشعور ، لا وهو صبى ، ولا وهو طالب فى جامعة هارفارد ، ولا عند اشتغاله بالمحاماة . وكان علىّ أن أدرس هذا الولاء القديم فى نفسه وأن التوصل الى معرفة الشعور الذى كان يحمله الرجال والنساء خلال السنوات الطوال التى سارت بطيئة متثاقلة قبل أن يتحقق الاستقلال وتخرج فكرة الاتحاد فيدراليا . لقد كان چون آدمز فى سنى حداثته وكهولته يكتب عن الحكومات والدساتير فى حماسة محب يعبر عن خلجات نفسه لمعشوقته . وخلاصة القول أن جون آدمز كان طائرا فريدا ، فقد كان وطنيا ، وأول من آمنت صادقة فى وطنيتهم . والحقيقة أنه يجب أن نتصور آدمز على اعتبار أنه رجل قد تشكل ونما فى ظل أمريكا المستعمرة ، أمريكا البريطانية ، حيث كان الأهلون الذين لم تقع عيونهم قط على انجلترا يتحدثون عن لندن باعتبارها وطنهم وحيث كان يشعر

أهل بوسطن بأنهم أقرب الى أوروبا منهم الى كارولينا الشمالية .

كانت مهمتى فى كتاب ترجمة لحياة چون آدمز مهمة عسـيرة واسعة النطاق ، متشعبة المسالك ، لم أضطلع بمثلها من قبل — ولا غرو والحال هذه ، أننى طفقت أسعى للاتصال بالأساتذة والعلماء ، أوجه اليهم أسئلة لا تعرف جوابا .. ماذا كانت فى الحقيقة مهمة الحكومة ؟ وماذا كان چون آدمز يعنيه عندما كان يتحدث عن القانون بتلك العبارات التى تنم عن حب واجلال ؟ أليس هو الذى قال : « ذلك الصرح الضخم من الفن الانسانى ألا وهو القانون العام بانجلترا » .

وما هو القانون العام أو المشترك ؟ وكيف لى أن أتوصل الى جواب عن هذه المعضلة ؟ ان التعريفات التى تذكرها المعاجم ليست كافية أو شافية وحرت فى أمرى أيما حيرة . وتزاحمت فى رأسى شتى الاستفسارات ، وناوشتنى شتى المعضـلات : هل صـحيح انه لولا بريطانيا لأصبحت المستعمرات الأمريكية لا تعدو شريطا ساحليا من الممتلكات الفرنسية يمتد على شاطىء المحيط الأطلنطى ؟ وانقلب تفكيرى رأسا على عقب عندما قرأت ما كتبه لورنس جيبيون فى مؤلفه : « الحرب الكبرى من أجل الامبراطورية » هل كانت كتب التاريخ مخطئة على هذا الأساس ، وهل كانت حربنا من أجل الاستقلال خطأ شنيعا وزلة مروعة مؤسفة لا مسوغ لها ؟ لابد أن هناك طريقا ، لا يستغرق حياة المرء كلها ، لمعرفة أى من كتب التاريخ صادقة وأيها كاذبة باطلة . وبدا لى هذا السؤال ساذجا ، وترددت كثيرا فى اعلانه . ولكنى عندما وجدت فى نفسى الجرأة لكى أفعل ذلك لم يسخر العلماء منى ، بل لقد هزوا جميعا رؤوسهم فى أسف وأسى قائلين ان هذه المسألة هى التى استغرقت سنى حياتهم وألحت على أذهانهم طوال هذه السنين واستنفدت نشاطهم دون طائل !

لم تقدنى التراجم التى دبجتها من قبل الى صحبة الأساتذة العلماء ، فلم أكن أصاحب حتى هذه الساعة غير الموسيقيين والمحامين والقضاة . ثم ان المستشار هولمز الى جانب ذلك ، يمكن اعتباره من المعاصرين ، فعلى الرغم من أنه اشـترك فى معركة « انتيتيـام » الا أن حيـاته طالت حتى عام ١٩٣٥ ، وكانت ذكرى الحرب الأهلية ما زالت عالقة فى أذهان أناس ما زالوا على قيد الحياة . وقد ذكرت أمى فى معرض حديثها ذات مرة أنها عندما كانت صبية فى فيلادلفيا الغربية ، أمرت بأن تبقى فى المنزل فى أحد أيام شهر يوليو الحارة « لأن الجنـود عادوا محطمين منكسرين من المعركة » . وعندما سألت أمى : « أى معركة هذه ؟ » أجابت مقطبة الجبين مستاءة من هذا البله : وعلام السؤال ! ؟ معركة « جيتسبرج » بالطبع ! .

وحين أذكر تشايكوفسكى أو اخوان روبنشتين ، فانى أحس أنهما قد وضعا بالفعل ألحانهما فى وقت متأخر نسبيا . بيد أنى فى حالة چون آدمز قد قفزت عبر قرنين من الزمان . ولم يكن بوسعى هذه المرة أن أصل جيلا بجيل وأن أستقى الحقائق ممن يذكرونها مباشرة . وعلىّ فى هذه الحالة أن أستبدل فن المواجهة والاستجواب بفن البحث وتقليب بطون الكتب ، فكل ما أريد هو طى كتاب من الكتب ، وعلىّ أن أدون الملاحظات وأجمـع أشتات الحقائق وأوفق ما بينها ، وكانت هذه العملية غريبة على كل الغرابة ، ولكنى شرعت فى السير فى هذا الطريق الشائك فى حذر شديد ، وطفقت أتسلل بين غابات موحشة من قوائم الكتب والمخطوطات . وحدث ذات صباح ، وكنت أوشك أن أبدأ فى تأليف كتابى عن آدمز ، أن ذهبت الى مكتبة جامعة هارفارد وأخذت مكانى أمام رفوف الكتب الخاصة بتاريخ أمريكا فى القرن الثامن عشر . وامتد بى الوقت فى وقفتى هذه الى ما يقرب من ساعة وأنا ما بين متناولة كتابا ومعيدة اياه ثانية الى الرف ، عندما تناهى

الى سمعى صوت شخص يقف من خلف ويناديني فى مرح وكان هذا هو الأستاذ دريك رئيس قسم التاريخ . وابتدرنى بقوله : « ماذا تفعلين هنا بالذات يا مسز باون ؟ ان هذا القرن ليس ما تكتبين عنه . لا أحسبك قد تجاوزت الحدود مدة قرن كامل وعمدت الى الكتابة عن الفترة الفيدرالية ؟».

وشعرت فى هذه اللحظة كأنى صائد يصيد فى أرض غيره دون اذن من صاحب الأرض . وكان من الواضح أننى اخترت فترة غنية كل الغنى بالوثائق والأسانيد . ان الكتابة عن جون آدمز كانت تحتاج الى ثلاث أيد لتدوين الملاحظات ، وزوجين من العيون للقراءة ، وأيام يحوى كل منها ٤٨ ساعة كاملة . وما من فترة من فترات التاريخ الأمريكى حظيت بمثل هذه الفترة من الاهتمام فقد قتلت فى الحقيقة بحثا ، ولم يترك المؤرخون ثغرة واحدة الا وتوافروا على بحثها ومعرفة مكنون سرها . وبدا لى أننى لن أجد متسعا للكتابة عن مراحل عظيمة هامة من هذه الحقبة .. مثل هذه النقاط . العلاقات التجارية الثلاثية التى كانت معقودة بين بريطانيا ونيوانجلاند وجزر الهند الغربية .. وبعض ما يتعلق بسياسة بريطانيا منها والمواقف الهامة التى اتخذها وزراؤها مثل جرنفيل وبوت وبيت وكامدن ونيوكاسل وروكنجهام . ولقد دبجت فصولا كاملة عن هذه الشخصيات ، ولا أغفل بينهم الاشارة الى جورج الثالث الذى راعتنى خطاباته وأثارت دهشتى ولكنى ما لبثت أن ألقيت بهذه الفصول الى سلة المهملات ، وأنا فى حسرة وألم .

وكنت أشكو خلال هذه الفترة من أن المذكرات التى دونتها ، والتى بلغت أعدادا كبيرة ، قد أثقلت كاهلى . وكان هذا هو الشأن أيضا عندما كنت أكتب عن تشايكوفسكى اذ ناء كاهلى بعدد الرسائل الهائلة التى كتبها ، وطغت على ما سطرت بحيث بدا كما لو أن الصفحات التى دبجتها

قد سطرتها يد تشايكوفسكى نفسه وهو نائم . كما أزعجنى أيضا وأقض مضجعى أمر الهنود . لقد كتبت فى مذكراتى أقول : « لقد كان الهنود هم المحتلين لبلادنا خلال منتصف القرن الثامن عشر وخلال شطر كبير منه فيما بعد هذا التاريخ » .

وهلا سألت العلماء عما عساى أن أفعل فى أمر هؤلاء الهنود ؟ والى أى العلماء أتوجه ؟ ان العلماء والأساتذة القريبين منى من كلية « براين ماور » أو كلية « هارفارد » أو من جامعة بنسلفانيا ، كلهم مشغولون بمسائل أخرى ، كل يعمل فى ميدانه سواء أكان خاصا بالاقتصاد أم بالدراسات المقارنة للديانات أم بملكية الأرض أم الحدود . وحدثت نفسى ، مدونة ما أقول : . لأدع الهنود والجوديلوب . فما فى طاقتى أن أضم الكون فى نظرة واحدة « فلست على متن طائرة فى كبد السماء ، بل انى أمشى على الأرض فى صحبة جون آدمز . ان كل ما كانت تهتم به « مساشوستس » التى أقام بها جون آدمز هو سمك البكالاه والمذهب البروتستانتى ! .

ولعلنى كنت أبالغ فى تدوين هذا العدد الضخم من الملاحظات ، وقد رحت دون وعى أعبّ من متع القراءة والبحث . وتذكرت حديثى مع أستاذين كنت قد التقيت بهما فى مكتبة جمعية الآثار الأمريكية فى بلدة وركستر بمقاطعة مساشوستس . اذ قال واحد منهما : « كم نخشى الوقت نحن معشر العلماء عندما تنتهى من البحث ويتحتم علينا أن نؤلف الكتاب المنشود ! انه مرض مهنتى يصيب العلماء ، ألا وهو آفة تدوين الملاحظات أبدا ، وبعض المؤرخين من أمثال لورد آكتون لم يستطع قط أن يكتب ما أراد من كتب . ثم ان هناك كثيرا من الطرق والعمليات والأساليب التى يحفظها الدارسون عن ظهر قلب ، فى كيفية معالجة أمر تلك البطاقات الصغيرة البيضاء التى تبلغ فى حجمها ٥ × ٨ بوصات . فينبغى أن يكتب فيها عنوان

الكتاب ثم اسم المؤلف ثم تاريخ النشر ومكانه ، ويجب أن نكتب أرقام الصفحات المنقولة فى الطرف الأيسر من أعلى ، ويثبت كل ذلك للرجوع اليه وقت الحاجة . والويل كل الويل اذا أغفل المرء ذكر واحد من هذه البيانات ، فهناك تكون الفوضى ويكون الضياع .

بيد أنه ينجم مع ذلك خطر كبير من مراعاة الدقة التامة فى طرق البحث. أما عن نفسى فانى عادة ما تفلت منى خيوط الموضوع الذى أبحث عنه اذا ما راعيت دقة تامة وغاليت فى تدوين البيانات كافة . وما يحدث فى مثل هذه الحالة هو أن القصة برمتها لا تلبث أن تبهت وتفقد رونقها وصفاءها ولا ألبث أن أجد نفسى وقد أصبحت شديدة البطء ضيقة الصدر نافرة كارهة لما أكتب ، ولا تلبث القصة التى كانت واضحة محددة المعالم والخطوط قد تحولت الى كومة مختلطة من المذكرات والبطاقات . ان الأفضل أن يجازف المرء بالأمر ولا يحمل نفسه مؤونة التحقق من نقطة بعينها ويرجىء ذلك الى يوم رهيب يقبع فيه فى المكتبة ليستدرك ما فاته ولكن بعد أن يكون مخطوط الكتاب قد سلم بالفعل الى الناشر ! وقد ناقشت هذه الفكرة مع أحد أساتذة التاريخ ، وكنت فى السنة الثالثة من عملى فى وضع ترجمة لحياة جون آدمز . وبدا كما لو كان قد دهش لما أقول ، وبعد فترة اطراق اقترح على أن أحضر مؤتمر المؤرخين الذى كان مقررا له أن يعقد فى الشهر القادم ، وهو الاجتماع الكبير الذى كان ينعقد أثناء عطلة عيد الميلاد . وتقرر أن يعقد هذا المؤتمر فى هذا الشتاء بالذات فى مدينة شرقية ، وكان بوسعى أن أقابل هناك جميع الأساتذة . وما من شك فى أن بعض هؤلاء ممن أعجبت بمؤلفاتهم سوف يحضرون المؤتمر ، من أمثال الأستاذين شليسنجر الصغير وشليسنجر الكبير والأستاذ فرتنبيكر والأساتذة دوماس

مالون وروى نيكولز وكوماجر ونيفينز وجون ميلر الذى كتب « أصول الثورة الأمريكية »

وراقت هذه الفكرة لذهنى وكان لها بريق وسحر فى نظرى . ولكنى أخبرته مع ذلك بأنى غير منضمة الى مؤتمر الأساتذة ، واننى سأشعر بالخجل بينهم . وكيف لشخص مثلى أن يدخل ؟ وهل سيحضر المؤتمر كتاب محترفون أو ستقتصر الدعوة على العلماء المحترفين ؟ .

رد على هذا الأستاذ فى ايجاز ووضوح : ان خمسة دولارات كاشتراك سنوى تدفع مقدما هى عربون انضمامك الى المؤتمر . ثم سألنى عما أعنيه بالتفرقة بين الكتاب المحترفين والعلماء المحترفين ؟ وقال لى : « انه لا ينبغى أن تكون هناك تفرقة على الاطلاق ، ولا عليك .. احضرى المؤتمر وأعربى عن رأيك ، ولابد أنك ستفيدين من المناقشات التى ستدور هناك » .

وجلسنا صفا صفا فى القاعة الكبرى على مقاعد من الألومنيوم . وفى الساعة العاشرة صباحا كانت ثريات الفندق ترسل أضواءها الصباحية ، خافتة واهنة . وكانت أقسام برمتها . خالية من الناس تلمع خلالها الحشايا المصنوعة من البلاستيك . ولكنى لم أشهد قط فى حياتى اجتماع هذا العدد الغفير من العلماء فى صعيد واحد . كان هناك المئات من العلماء فوقهم مئات أخرى من العلماء الذين كانوا يجوبون الممرات داخل الفندق متنقلين من قسم الى آخر ، فهذا القسم مخصص لمناقشة موضوع « المسئولية الاجتماعية وعلوم السحر فى العصور الوسطى » وهذا القسم مخصص « لقواعد التاريخ » أما فى حجرة البستان فقد كانت تدور هناك مناقشات حول موضوع التاريخ الوضعى أو ما شابه ذلك . وقد كان هناك أساتذة قادمون من كاليفورنيا وتكساس وفلوريدا ونيويورك فى معاطفهم الثقيلة

وسراويلهم الداكنة . وكان هناك رهبان من معاهد الكاثوليك يجلسون زوجين زوجين يقرأون السطور فى صوت خفيض تحيط بهم عباءاتهم السوداء الفضفاضة وعلى عيونهم النظارات تلمع .

ونهض رئيس المؤتمر أمامى ، وقدم جماعة من الأساتذة كان مزمعا أن يتحدثوا « عن الأرستقراطية فى سياسات فرجينيا المستعمرة . وأخرجت من حقيبتى مفكرة وقلما ولكنى نظرت فيما حولى فلم أجد أحدا يدون ملاحظاته ، وكان مظهر هؤلاء الأساتذة يختلف عن الصورة التى كنت أتخيلها لهم ، فان الأستاذ شليسنجر كان أشبه بمدير أحد البنوك ، تبدو فيه الأمانة والصراحة بما يوحى بأعظم الثقة ويطمئن الناس على ودائعهم . ولعل أليق منصب للأستاذ ماكيلفين من جامعة هارفارد هو أن يكون عضوا منتدبا فى نادى الصيد البحرى ، فقد كان متألقا فى المؤتمر حسن المظهر دون تكلف .

ولم تدهشنى أشخاصهم بل أدهشتنى أيضا وجهات نظرهم . ان الانقسامات والخلافات التى ذكرتها من قبل بدت واضحة كل الوضوح ، سواء أكان هؤلاء يتناقشون فى اجتماعات عامة ، أم بصفة خاصة ، أم على مائدة الطعام ، أم فى مشرب الفندق . وحاجة كاتب التراجم الى الصلابة والقوة واضحة اذا جلس بين هؤلاء العلماء وحضر مؤتمراتهم . فلطالما كان هؤلاء العلماء يرشقون السهام بكتاب التراجم ويندون بكتابة السير من منصاتهم بالمؤتمر ، وكانوا يتحدثون دائما عن خطر معالجة التاريخ على نحو معالجة كتاب التراجم . وكنت أدرك آنذاك ما يرمون اليه من هذه العبارة ومكمن الخطر هو أن السيرة كانت ما تكتب من زاوية خاصة ، فاما أن يحب الكاتب ما يترجم له واما أن يكون كارها له . ثم ان السير تمتلىء عادة بدقائق

ولا يتنازلون بالحديث عنها دون تأفف واستعلاء . ان كتابة السير كانت تبدو موصومة شائنة فى نظر المؤرخ المحترف منذ أقدم العصور . لقد كتب لورنس ايشارد فى تقديمه للمجلد الثانى من « تاريخ انجلترا » وهـــو الكتاب الذى نشر عام ١٧١٨ « انه فى بعض الأحيان قد تنكب الطرق وهبط من علياء المؤرخ ومكانته السامية ، وشاء مختارا أن ينحدر الى مستوى طبقة كتاب السير ومؤرخى الحوليات ومن على شاكلتهم » وكان سير والتر رالى ، نظرا لأنه كان شاعرا ، أشد جرأة من سلفه . فقد أورد رالى عبارة طريفة فى الكتاب الرابع من تاريخ العالم الذى كتبه وهـــو رهين سجنه تقول : « ولا أحسب أنه من غير اللائق أن أروى بعض تلك الحوادث التى قد تبدو تافهة لا وزن لها ، ذلك لأن صفات العظماء تتضح بذكر هذه التوافه اتضاحها بذكر أعمالهم المجيدة أيضا » .

وكنت أتأمل فى هــذه العبارة وأنا أطوف بالمكان الذى عرض فيه الناشرون انتاجهم ، مثل كتب الدراسة فى الجامعات والمراجع والكتيبات الخاصة بموضوعات البحث المتصلة بدرجات الدكتوراه . وتذكرت أن أبناء العالم القديم كانوا أبرياء من هذه العجرفة فيما يختص بكتابة السير . فقد وصف هيرودوتس وثيوكديديس وتاكيتوس وليفى كل ما أرادوا نقــل علمه الينا من أشياء وأحياء بالصورة التى كانت ماثلة فى أذهانهم عن هذه الأمور فعلا . ولكنى أعلم رغم ذلك أننى قد أضعت ساعات ثمينة وأياما غالية فى حماسة من أجل الوصول الى معلومات ، ولكن بطريقة خاطئة فى البحث . وكان أن ضللت الطريق مرارا . وما من شك فى أن هؤلاء الأساتذة المتبحرين ، وهؤلاء الحاملين السعداء لدرجات الدكتوراه قد توصلوا الى طريقة فى البحث أكيدة فى فاعليتها محققة النتائج . ولابد أننى أستطيع أن

أتلقى عن هؤلاء العلماء كيف أختصر الطـريق الى ما أريد أن أعرفه في كتاباتى .

ولكن العقدة لم تكن فيما يريد الأساتذة العلماء أن يعرفوه ، بل فى أن ما كنت أنشد أن أعرفه قد ثبت أنه يخالف كل المخالفة ما يريدونههم. ولعل الخلاف ناشىء أيضا عن اختلاف الوظائف التى نستخدم فيها معرفتنا هذه ؟ ولماذا أقول الخلاف ، انه ليس خلافا على شقةبعيدةالغور تفصل بيننا. ولكنى لم أدرك ذلك الا بعد فترة طويلة على عكس من هؤلاء العلماء الذين سبقونا الى الوقوف عند هذه النقطة . ولقد أتيحت لى مناسبة قبل انعقاد المؤتمر كان يجب أن أعى مدلولها تماما ، ولو كنت فعلتذلكلتجنبت هذه المشقةالتىأعانيها . فقدقابلتفىوطنى فيلادلفيا واحدا منأساتذةالتاريخ فى السنوات الأولى من العقـد الرابع من عمره ، كان يكتب مثلى سيرة چون آدمز . وكانت هذه السنة هى سنة الراحة لديه كما أخبرنى . وكان يقوم بالتطواف من مكتبة الى أخرى فى جميع أنحاء الولايات المتحدة ، بحثا عن الوصايا المكتوبة بخط صاحب السيرة وعن المخطوطات الأخرى من رسائل أو وثائق ممهورة بامضـاء چون آدمز . وما لبثت أن شعرت حين قابلت هذا العالم بحماسة للأمر ممزوجة ببعض التوجس والخوف (اذ كنت أتساءل : من منا سيعرض على الجمهور كتابه قبل الآخـر) . ولكنه كان من حسن الطالع أن أجد شخصا أستطيع أن أتحدث اليه ، شخصا يهتم بچون آدمز وعلى علم بأسماء الأشخاص والأماكن والمواقع والحالات الذهنية التى كانت سائدة فى القرن الثامن عشر ، والتى أصبحت آلفها وآنس بها . وغادر كلانا مكتبة البحث التى كنا نعمل بها وعبرنا الشارع ظهرا لتناول طعام الغداء . وحدث أن كنت عائدة من رحـلة من رحلاتى الى الدور الذى عاش بها چون آدمز فى « برينترى » بالقرب من

بوسطن .. من الكوخ الذى ولد فيه چون آدمز والدار المجاورة له التى انتقل اليها عندما تزوج بعروسه الجميلة ابيجيل .

وشعرت بعد رحلة من هذه الرحلات ، كما هى عادتى ، بحماسة وتشوة ورغبة فى الكلام . قلت للأستاذ العالم : « كم هو حظ سعيد .. كم هو حظ نادر لا يعدله شىء بالنسبة لنا نحن معشر كتاب التراجم ، فى أن هذين الدارين اللتين سكنهما چون آدمز مازالتا قائمتين حتى الآن. وسألته : هل رأى سيدى الأستاذ قبعة چون آدمز المصنوعة من جلد كلب الماء ؟ وهل رأى العباءة الصوفية الحمراء التى كان يرتديها ؟ وكانت هـذه العباءة حمراء قانية فضفاضة بحيث تغطى بدنه كله حتى نعليه . وهل رأى الحجرة الصغيرة فى أعلى المنزل التى كان ينام چون آدمز فيها عندما كان صبيا ، والحجرة الأخرى التى كانت تؤجر من خلفها ، انه لمشهد لا يروق غير كتاب التراجم ولا يوافق غير مزاجهم ! كنت وأنا جالسة على سرير چـون آدمز أستطيع أن ألمس السقف بيدى . ولم تكن المسافة بين الباب الخارجى للدار والسور الحجرى الموازى للطريق تزيد عن خمس عشرة خطوة ، لقد قستها عامدة . وسألت الأستاذ : « هل تعتقد أن الطريق القديم المعروف بطريق بلايموث كان يقرب من البيت على هذا النحو فى سنة ١٧٤٥ مثلا عندما كان چون آدمز يبلغ من العمر عشر سنوات ؟ » .

وهز الأستاذ رأسه وقال : « لم أشهد هذه الدور ، ولا أنتوى أن ازورها . انى لم أذهب الى بوسطن قط ، كما أنى أكره المكان ذاته » .

وقلت لنفسى انه يشبه السير ادوارد كوك الذى لم يكن يؤمن بشىء الا اذا وجده مكتوبا . هل كان هذا الأستاذ استثناء للقاعدة ، أم أن العقول الجامعية الأكاديمية قد تدربت على الشك فى صحة ما تقدمه الحواس من قرائن ؟ ولكنه ما من شـك فى أن الأمر يتطلب لادراك أمـور البشر

الحواس جميعها ، سواء من هذا العالم أو العالم القديم . ان صانعى التاريخ لم يكونوا أشباحا وأرواحا . ولذا فلا ينبغى أن نروى التاريخ كما لو أن الأشباح والأرواح التى صنعته . ان الأشباح لم تجلس فى المؤتمر القارى وتكتب بيان « اعلان الاستقلال » وتخوض غمار حرب مع انجلترا . ان الأشباح لم تبن جبل فرنون ، بمسطحاته من السندس الأخضر .

وكنت قد شاهدت فى الجمعية التاريخية فى شيكاغو حلتين من حلل آدمز كسيت بكل منهما احدى الدمى ، ورأيت فى كوخ بريترى بذلة عرسه المصنوعة من الحرير الأبيض التى طرزتها أمه بالقصب لكى تكون فأل سعادة ورخاء لجون آدمز الفلاح . ولكنى لم أذكر شيئا من هذا فى المؤتمر التاريخى لأن ذلك كان خطأ كما علمتنى التجربة فضلا عن اننى لم أزمع أن أتكلم فى هذا المؤتمر بل كان مقصدى الاستماع فحسب . ولكننى مع ذلك كنت أتذكر دائما ذلك العالم الذى كان يكره بوسطن ولا يريد أن يراها ، ففى كل انحناءة من الفندق وفى كل درب فيه كنت أرى شبيها له . وسألنى واحد من هؤلاء الشبان على مائدة العشاء عن عدد النسخ التى بعتها من كتاب « أمريكى من جبل أوليمس » حتى ذلك التاريخ . فعندما أجبته الى طلبه . فغر فاه دهشا ثم أردف قائلا : « فى نيتى أن أقتطع سنة من عمرى لكتابة مؤلف شعبى » .

وكان الصلف البادى من هذه العبارة كفيلا بأن يخرسنى ، فقد أحسست أن الرد على مثل هذا الشاب عبث لا طائل من ورائه . ولكنى طفقت أفكر فى تلك العبارة خلال ذلك اليوم وفى اليوم التالى . أهو جرم لا يغتفر ووزر كبير أن يكتب شخص كتابا يلقى رواجا فيوصم بالشعبية ؟ وكيف ذلك والكتب التى يحسن تأليفها لابد ومقدر لها أن تكون شعبية ، ان الجمهور ذو نهم لقراءة كتب التاريخ . والأساتذة ينفقون ما يقرب من

ثلث سنى حياتهم فى الكتابة ، وخاصة أن معظم الجامعـــات تفرض على الأساتذة كتابة رسائل علمية . والكتب التى يخرجها أساتذة الجماعات كتب قيمة نادرة لا غناء عنها لدارس أو قارىء . فليس من الممكن لكاتب ترجمة لحياة عظيم من العظماء أن يقطع أى شوط فى عمله دون الاستعانة بتلك المجلدات العلمية الضخمة وتلك البحوث والمقالات المستفيضة .

وكلما طال أمد اقامتى فى المؤتمر ازددت دهشـــة وعجبا من الطريقة التى يعالج بها الأساتذة الأمر . واتجهت بفكرى الى الكتيب الصغير الذى رأيته فى معرض الكتب الذى نوهت عنه ، والذى يحمل عنوانا يقول : « كيف تكتب موضوعا للدكتوراه » ويشرح هذا الكتاب بالأشكال والأمثال ما لا يجب على الدارس أن يفعله — وقد بلغت هذه التعليمات من التعقيد بحيث تحسبها مكتوبة بلغة غير اللغة الانجليزية . وما من شـك فى أننى من الأشخاص الذين لم يستطيعوا بعد قراءة هذه التعليمات أن يكتبوا ألف باء اللغة ، فهى تلقى المرء فى متاهة لا سبيل الى الخروج منها وتفرض القيود التى تكبل الذهن والعقل ، أكبر ظنى أن الأمر قد تحـول الى طقس من الطقوس بالنسبة لتلك الدرجات الجامعية التى كنت أحسد أصحابها . أبلغ الأمر أن أصبحت الدراسة العليا جرعة سحرية لا تتناول الا وسط الابتهالات والتعاويذ ، وهل يصبح على متجرعها أن ينفق بقية حياته فى محاولة الشفاء من أثرها ؟ ما كنت لأصدق ذلك قط . فلابد أن هؤلاء الأساتذة الأفاضل يعلمون ما لا طاقة لى بعلمه ولابد أن لديهم ميزانا صادقا يزنون به أصالة كتب التاريخ ويفرقون به بين غثها وسمينها — وما من شك فى أن هؤلاء العلماء لا يرتضون أن تصاب هذه الكتب بالجفاف وأن يقف الأمر عندهم عند حد التزام الصحة والصدق دون مراعاة حبكة القصة فى سرد الحوادث . ولكننى بوصفى واحدة من الكتاب كنت أضيق ببعض

المواقف والنواحى التى كانت تظهر على العلماء الشبان . فيبدو أن هؤلاء الدارسين قد تعرض لهم فى طريقهم تنين مخيف كشر لهم عن أنيابه وزأر فى وجوههم فارتعدت فرائصهم فرقا وولوا مدبرين وراحوا يطلقون سيقانهم للريح طلبا للأمن والسلامة . ولم يكن هذا من شأنى على أية حالة ولكنى تحدثت فى ذلك الأمر مع أحد الأساتذة ، كنت أعرفه حق المعرفة ، وكان أن شاركنى فى شعورى . قال لى : « الحقيقة أن هناك خطرا كبيرا للمؤرخين من أخطبوط الدكتوراه » الذى قد أخذ يعيث فى الأرض فسادا ويخرب الكروم ويطأ ثمارها . وينوء بكلكله على العقول الشابة ويمتص منها ماء الحياة . وقال لى هذا الأستاذ : ان مثل هذا الموضوع شائك للغاية بالنسبة لهذا المؤتمر وانه سيثير نزاعا ربما أضر بالكثيرين . وطلب رأيى فى عقد اجتماع فى العام الدراسى المقبل ، اجتماع صغير لمناقشة الطرق التى يمكن بوساطتها أن يدخل الفن فى مجال التاريخ .

ورأيت أن هذا الاقتراح لا يقل عن سالفه فى الدقة وصعوبة الحل . وتذكرت حادثة مرت بى منذ بضع سنوات ، عندما توجهت الى أحد المؤرخين الكبار طلبا لمعونته فقد وجدت صعوبة فى جميع أطراف فصلين من الفصول التى كنت أكتبها فى ترجمة من التراجم التى كنت أضعها ، فهناك مشهد تجمع الأسانيد التاريخية على أنه كان مشهدا مثيرا بيد أنه على القرطاس رأيته جامدا جافا لا حراك فيه .. وحاولت عدة مرات أن أنفث فيه الحياة بغير طائل . وسألنى المؤرخ المبرز : ألديك وثائق ومعلومات وفيرة ، موثوقة المصادر ؟ فلما أجبته بالايجاب مضيفة أن الوثائق التى تحت يدى من الدرجة الأولى وأنها أضخم مما أرجو أيضا ، هز كتفيه عجبا وتساءل عما يقلقنى والحال هذه . قال لى : « اذهبى الى بيتك واكتبى الفصلين من بطاقتك » .

عجبى !! أكتب الفصلين من بطاقاتى . هل يريد ذلك العالم الذى نشر بنفسه كتبا فى التاريخ ، والذى يعلم ما لن يصل الى علمى قط ، أن أصف هذه البطاقات على مكتبى وأرتبها وفقا لترتيب الحروف الأبجدية ، وكفى المؤمنين شر القتال !! هل كان يعنى أن أغفل « العقدة » التاريخية والقصصية وأغفل حق القارىء أيضا ، وأضرب عرض الحائط بالحقيقـة الماثلة فى أن كتابة التاريخ ان هى الا نقل الفكرة ؟ ان نقل الفكرة ان هو الا عمل دقيق شاق تنوء به الكواهل ، خاصة ان كنا نكتب تاريخا ..

كانت هذه الحادثة قد محيت من ذاكرتى ، ولكنها ما لبثت أن عاودتنى فى قوة والحاح فى مؤتمر المؤرخين هذا . هل هذه النقطة هى السد الذى يفصل بينى وبين علماء التاريخ ، هؤلاء الرجال والنساء الذين يقومون بعمل يشبه عملى الى أكبر حد ، ولكنه لا يشبهه مع ذلك ؟ كنت قد جئت الى المؤتمر لكى أتعلم وكانت نيتى أن أجلس مستكينة صامتة . ولكنى وجدت نفسى راغبة فى أن أصيح وأجادل بأعلى صوتى . ان هؤلاء العلمـاء قـد دفعونى الى اعمال ذهنى فى هذه المعضلة ، والى أن أسائل نفسى عن الأسباب التى دفعتنى الى الكتابة عن هولمز وعن چون آدمز . ما كنه هذا الكتاب ولماذا أرانى مدفوعة الى تأليفه ؟ ان هذين السؤالين هما أعقـد الأسئلة التى تواجه كاتب التراجم والسير .

لقد شعرت أن شيئا ما فى ذلك المكان الذى اجتمع فيه العلماء قد أصاب صلب عملى ولب نشاطى ، ولم يمس أسلوب معالجة التراجم فحسب بل أحاط بالشك الدوافع الى كتابتها أصلا .

العلماء والمعارضون

وضع روجركوك حفيد السير ادواردكوك فى القرن السابع عشر سفرا تاريخيا رائعا ممتعا عن عصره بعنوان بحث فى القضاء ونظام الدولة فى انجلترا ، وهاجم فى هذا الكتاب أنصار النظام الملكى ممتدحا جميع رجال البرلمان .

وقال فى مقدمته : « اننى أتوقع اثارة بعض الاعتراضات بأننى — فى أثناء تدوينى لهذا التاريخ — قد تعرضت لبعض « التحمس » الذى لا يليق بالمؤرخ . ولكننى أرد على هذا الاعتراض قائلا انه قد يحدث أحيانا أن يغضب الانسان ولكنه لا يخطىء » . ولعل سورة الغضب التى يتميز بها هذا الكتاب هى أجمل مافيه . اذ أنها ترجع بالمرء الى الوراء فيشعر بالخطر والخوف اللذين سادا فى دولة انقسم أهلها الى قسمين وهى فى انتظار قدوم أوليفر ذلك المتطهر الأسمر الذى كان عليه أن يقود الثورة .

هل من خطر وراء التحيز أو اختلاف وجهات النظر أو الغضب ؟ وهل يجب أن يخلو التاريخ منها ؟ وأن تسوى الهضاب وتزال الروابى من كتب التاريخ ؟ لقد تحدث الأساتذة العلماء عن التحمس واختلاف الآراء فى التاريخ كما يتحدث أحد أتباع مذهب كالفن عن الخطيئة فى حجرة النوم ، هكذا حاولوا أن يخلصوا التاريخ من آثار التحمس الانفعالى فى حين أحاول أنا أن أبثها فيه . ولابد أن يكون هناك توازن وانسجام بين اتجاهى واتجاههم فى نقطة ما ، أى لابد أن نلتقى ..

ربما توقف الأمر على ما يطلبه المرء من التاريخ ، أو بالأحرى على ما يفتش عنه المرء عند اطلاعه عليه . ويقول سانتايانا فى هذا الصدد ان ابداء

وجهة نظر معينة فى التاريخ ، أو القاء ضوء خاص عليه ، لا ينطويان على أى تحريف لحقائقه ، بل « انهما من الشروط التى يجب توافرها فى النظر الثاقب ، ولا يمكن أن يرى القلب مالم تقع عليه العين » . ولابد لكاتب التراجم أن يتعرف على تحيزه — وهو أمر عسير جدا — أى لابد أن يتعرف على القاعدة التى يقف فوقها ، وأن يتقبل السبب الذى دفعه الى تأليف هذا الكتاب بالذات أو ذاك وأن يسلم به . ويتعرض مونتيسكيو فى مقدمة كتاب « روح القوانين » للأسباب التى جعلته يلقى فى البداية صعوبة بالغة فى التعبير عن ذاته ، بل وفى استرجاع ما قرأه حول موضوع الكتاب والاستفادة منه ، فقد كانت تبتعد عنه الأفكار ، وكلما هم بالتقاطها أفلتت منه واختفت . غير أنه يقول : « لكننى بمجرد أن توصلت الى المبادىء الأولى تجلى أمامى كل ما كنت أفتش عنه .. وشاهدت الكتاب يولد وينمو ويكتمل ثم ينتهى » .

ولقد احتفل جون سترايب العجوز بعيد ميلاده التسعين فى عام ١٧٣٤ ، وقد وضع سترايب مؤلفا تاريخيا عن « عصر الاصلاح » وروى قصة معينة ثم علق على القصة بقوله : « لم يكن هذا الأمر عادلا ولا داعى لأن أستخدم لفظا أشد من ذلك ، ولكن على أية حالة يجب أن أتذكر دائما أننى لا أكتب الآن اعتذارا ، بل أكتب تاريخا ، ومن ثم فاننى أمتنع عن اضافة أى شىء بصدد هذا الموضوع » . ومما لا شك فيه أن الكتب الحديثة لا تتيح للقارىء مثل هذا الاسترسال والخروج عن صميم الموضوع غير أننى كثيرا ما أرثى لذلك . لماذا لا يقول الكاتب صراحة ما يدور بخلده ويصارحنا بأن هذا ليس تاريخا ، بل رأيا ؟ وقد قال جوسيراند فى هذا الصدد : « عندما ينشر علماء الآثار تقاريرهم عن كشوفهم فانهم يشيرون الى ما تم استخراجه من باطن الأرض بخط مستقيم واضح ، على حين

يشيرون الى ما كان يمكن أن يكون عليه مالم يتم كشفه وفقا لرأيهم — بخط منقوط . ويجب على المؤرخ أن يفعل نفس الشيء حتى يعرف القارىء ما هو مؤكد وما هو محتمل » .

ولقد كان لچون آدمز نفسه — فى شيخوخته — رأى فى هذا الموضوع ، اذ قال : « اننى أحتفظ ببعض الآراء الهامة المتعلقة بقداسة التاريخ ، فأنا لا أكتب سوى مذكرات يستطيع أن ينتفع بها المؤرخون . ومن واجبهم أن يتبينوا أخطائى ويقدروا كل شيء وفقا لقيمته الحقيقية . اننى أشك فى أنه قد وضع تاريخ صحيح ، أو حتى انه من الممكن كتابة تاريخ صحيح » .

وما من مؤرخ قدير لم يساوره هذا الشك . وقد صرح البروفيسور هوايتهد ذات مرة بأن تدوين التاريخ « الخالص » مستحيل ، وأن هذه الفكرة لا وجود لها الا فى الخيال ، اذ أن المؤرخ يعتمد — فى وصفه للماضى — على حكمه بما ينطوى على الأهمية لشيء ما فى الحياة الانسانية .

وليس من اليسير أن نجيب على سؤال عن أهمية الحياة الانسانية ، أو ما تتألف منه ، بل انه ليس من اليسير توجيه مثل هذا السؤال . ولقد فضل الأساتذة العلماء الذين حضروا الاجتماع عدم التعرض لهذا السؤال والحقيقة أن توجيهه ينذر بالخطر على الرغم من أن كاتب التراجم لا بد من أن يوجهه الى نفسه فى كل صفحة يكتبها . ولا شك أن التأريخ المتحيز هو أكبر خطيئة ترتكب . والواقع أننى لا أطالب بالتحيز ازاء الأحداث أو الدول ، بل اننى أطالب بابداء وجهات النظر فى الحياة وبالتنويه بأن الكاتب انما هو قبل كل شيء انسان يحس بالانفعال والحزن واليأس ، وهذا ما ينكره التاريخ العلمى . ربما كنت قد افتقدت التوجيه فى فندق

المؤتمر بين أقسامه وأبهائه وردهاته . فهل كان يجب أن أتبع الفلاسفة وأنحو نحوهم ؟ . والحقيقة أن أهمية الحياة الانسانية موضوع عام لا يقبل الجدل الفنى ، كما أنه غير محدد المعالم .. بحيث لا يحتمل التفكير المنطقى الدقيق .

ولم تكن فكرة أهمية الحياة الانسانية أكثر صعوبة من العبارات التى تخفيها ، اذ أننى قد سمعت ألفاظا خيالية جدا عن النزعة الموضوعية فى تدوين التاريخ . وسمعت أيضا عن مذهب النسبية المريبة والفلسفة العقلية الفنية والحتمية والمذهب الوضعى ومذهب « الحاضرية » ولما كنت قد سمعت كلمة « حاضرية » لأول مرة فأننى بحثت فى ثلاثة معاجم عن معنى هذه الكلمة بيد أننى لم أعثر لها على معنى . وفى اليوم التالى عرفها الأساتذة أنفسهم وتساءل متحدث عما اذا كان يجب على المؤرخ أن يكتب عن الماضى متخذا من القرن العشرين « مرشدا » له ؟ ولقد تقرر فى الاجتماع أن هذا الاجراء مشروع .

شعرت بأن هذه المناقشة قد أثارت غضبى وكنت أجلس وسط المستمعين بين اثنين من العلماء . فخاطبت نفسى قائلة ان هذه ألعوبة من تلك الألاعيب التى يقوم بها الناس .. ألاعيب لفظية تنطوى على خطر عظيم على الفن والفنان .. هل يجب على المؤرخ أن ينظر الى الماضى عبر الحاضر ؟ وهل هذه وجهة نظر مشروعة ؟ عندئذ نهضت واقفة وقلت : « أيها السادة ، أستحلفكم بالله ليس هذا الرأى مشروعا فحسب ، بل انه لابد منه . أى رأى آخر يمكن ابداؤه ؟ ! » عندئذ ضحك الأساتذة وصفقوا استحسانا لما قلت ثم عادوا ثانية الى مناقشتهم .

وبعدئذ هنأونى على الاعراب عما كان يدور بخلدى ، وقالوا اننا نحب التحدى . فساءلت نفسى قائلة : « ما دام الأمر كذلك فلماذا لم يلق أحد

قفازه ليتحدانى كما فعلت « انسانية مسز باون » هكذا كانت اشارة العلماء الى فى اليوم التالى عندما وضعونى بهدوء فى محراب الانسانية متخلصين منى ومن فلسفتى النسبية الذاتية . ما أجمل تلك الألفاظ وما أنجعها للتفكير المنطقى ! انها انسانية ، انها تعتنق مذهب النسبية والمذهب العقلى . هذا هو الأسلوب الذى كان يجب أن أتبعه فى حديثى لو لم أتسم بالحرص والحذر . والحقيقة أننى احتفظت بهذا الحذر ، وفى ذلك المساء بعد أن ألقى رئيس الجمعية التاريخية خطابه ، وبينما كنت أغادر غرفة الطعام بالفندق مع ثلاثة من أساتذة العلماء ، سمعت صوتى يرتفع مع أصواتهم مرددة عبارات الثناء فقلت : « حقا ان الدكتور د . يفهم مهنته كمدرس فهما مناسبا » وجيدا .

وطأطأ الأساتذة برءوسهم معبرين عن موافقتهم على كلامى ، بل ان أحدهم أعاد كلماتى « فهم مناسب وجيد .. » هل قلت ذلك حقا ؟ وفى اليوم التالى للاجتماع كنت أشير الى الفكرة الحسنة على أنها خطة تصويرية والى الخطوط الرئيسية للفصل الحالى عن آدمز على أنه منهج الأسلوب ، والى برنامج الغد على أنه جدول أعمال ، والى التأمل فى التاريخ على أنه نظام . الحقيقة أن هذا الحديث كان يصدر عن شخص فاقد للشعور . وفى صبيحة أحد الأيام التى اجتمعنا فيها رأيت ثلاثة من العلماء مستغرقين فى نوم عميق وكان أحدهم يجلس فى ذات الصف الذى أجلس فيه ، وكان آخر يجلس على المنصة حيث كان يراه جميع الحاضرين ، وكأن أحدا لم يهتم بالأمر اذ يبدو أن النوم كان اجراء معترفا به ! وكانت ملاحظاتى فى صباح ذلك اليوم تضم الكلمات الآتية بخط غير واضح : « أيها الكسول الجالس الى اليسار استيقظ » وفى أسفل الصفحة كتبت لجارى الذى يجلس الى يمينى : « اننى لا أريد أن أبدو متطفلة ، ولكن ألم نسمع هذا الخطاب من قبل ؟ ! » .

لقد صرح الدكتور أوليفر ويندل هولمز والد المستشار هولمز والأستاذ بجامعة هارفارد ذات مرة بأن كرسى الأستاذية يفصل الأستاذ عن التيارات الرأسية . غير أننى هاجمت هذا التصريح ؛ لأن الأساتذة العلماء — بناء على مشاهداتى — يلمسون الحياة أكثر مما يلسمها معظم من نسميهم بالأشخاص العمليين ، بيد أن هذه الفكرة كانت فى الحقيقة بعيدة عن الواقع وكانت أقرب الى الأحلام . وحينئذ انطلق صوت من الطابق المسحور بين الكتب المعروضة ينادى شخصية مفقودة : « مستر بلومر . مستر بلومر . مستر بلومر » .

ربما كنت أنا الوحيدة التى تخيلت هذا البعد ، اذ أنه لا شك فى وجود شخص يدعى مستر بلومر .. شخص كامل له رأس ويدان ويلبس نظارة فى مكان ما ، أم ترانا نميل دائما الى أن ننادى ذلك الشىء البعيد الذى ليس هو بحياتنا المعبر عن وجهة نظرنا ؟ ربما كانت العبارات العلمية قد خطف سناها بصرى وخنقتنى ، وكأننى انسانة أستمع الى أحاديث بلغات مختلفة . فالأساتذة العلماء يعنون فى التاريخ بالحقيقة . ويقولون اننا نتوصل الى الحقيقة بالحرص والحذر . وهم ينادون دائما : « الاختبار ! الاختبار ! » وكانت كلماتهم هذه التى يرددونها فى جميع خطبهم من المنصة — تبدو كأنها نغمة موسيقية متكررة .

ولكنى أعتقد أن هناك طرقا أخرى لبلوغ الحقيقة ، وطرقا أخرى لنشرها . فقد كتب السير فرانسيس بيكون للملك جيمس الأول رسالة أوصاه فيها بأسلوبه اللولبى بتنفيذ خطة معينة للسيطرة على البرلمان الذى كان على وشك الانعقاد فقال بيكون : « انها قد تتطلب بذل مجهود كبير ، ولكن يبدو لى أن هناك شيئا وسطا بين البراعة والحظ ، وأعتقد أن هذا الشىء يطلق عليه الفطنة » .

ولعلنا نعرف أن مصورا للأشخاص وفد الى فيلادلفيـا فى الفترة التى أعقبت الثورة الفرنسية فارا من فرنسا والرعب المنتشر فيها ، وكان هذا المصور يدعى سانت‌ميمين . وأثناء اقامته هنا رسم‌صورا لكبار الشخصيات الأمريكية فى ذلك الوقت بقلم لونه أحمر ، وكانت صوره تمثل مناظر جانبية للوجوه . ورسم هذه الصور بأداة كان يسميها مقياس قسمات الوجه كأن يقيس بها الأنف وعرض الجبهة وطول الذقن قبل أن يبدأ فى الرسم . ولقـد عثرت على صـورتين جانبيتين لچون آدمز من رسم سانت ميمين وكانت احداها فى حجرة الترميم فى متحف متروبوليتان والأخرى فى منزل يقع بالحى رقم ٦٠ شرقا فى مدينة نيويورك ولقد أطلت النظر الى هاتين الصورتين ، ولفت نظـرى حاجب چـون آدمز الكث الذى يظلل عينـه القوية البارزة وخده الثقيل الذى يوحى بالخشونة ، وكانت كل قسمات وجهه توحى بالقوة وصلابة الرأى والذكاء . أما أنفه فقد كان قويا وبارزا ويليق بالوجه بل لقد كان منقارا . وهذا ما كان يوحى لى به هذا الأنف فى الصور الأخرى التى تمثله . ولكى أعطى صورة دقيقة لحديثى أذكر بأننى درست ثمانى عشرة صورة معاصرة‌تمثل‌وجه جون‌آدمز . وانتقلت‌بين المكتبات من مكتبة « فريك » للمراجع الفنية الواقعة « بفيفث افينيو » الى جمعية الآثار القديمة فى دورسستر بولاية مساشوستس ،وفتشت جميع الملفات التى أشارت اليها الفهارس بعنوان « چون آدمز » ، وعرفت الآن وأخيرا أن هذا الأنف كان صحيحا وحقيقيا . ولم يرسم سانت ميمين‌حجمه جزافا ، بل انه قاسه ورسمه فى الصورة بنسبة بوصة لكل نصف بوصة من الأنف الأصلى ، والتقطت صورا فوتوغرافية لذلك الرسم ، ودونت على ظهر الصورة التواريخ والتفاصيل الصحيحة وأضفت اليها العبارة التالية بخط جميل : « لا تشك أبدا فى هذا الأنف ثانية » ..

ولقد جالت بخاطرى شخصية سانت ميمين وأنا أجلس مع الأساتذة العلماء فهم أيضا قاموا بعملهم وألفوا كتبهم بالاستعانة بمقياس قسمات الوجه أو بأداة أخرى شبيهة بها ، فقاموا بقياس الطول والعرض بحيث يستطيع المرء أن يثق فى النتيجة وبالصفحات الأخيرة من مجلداتهم . أثبتوا جميع البراهين وجميع المراجع التى استعانوا بها . وبالقاء نظرة واحدة كان هؤلاء السادة يعرفون أكانت الحقائق الواردة فى أى كتاب من كتب التاريخ صحيحة أم لا ، بل انهم عرفوا كيف يمكن أن يثق المرء بدائرة المعارف . وقد حصلت أخيرا على نسخة من دائرة معارف ابلتون .. وهى تتألف من ستة مجلدات ضخمة ومجلدة بغلاف أحمر اللون ، وتعتبر هذه الموسوعة أنفع مصنف تم وضعه فى عام ١٨٩٤ يضم رسوما تخطيطية لزملاء چون آدمز فى أوائل أيام حياته الذين لم أتمكن من العثور على صورهم فى أى مكان آخر . ومن بينهم محامون مغمورون أمثال أوكنبروج فيشر ، وجرميا جريدلى ، وچيمس بوتنام من دانفرز بولاية مساشوستس . ولقد ذكرت لأحد الأساتذة العلماء اسم دائرة المعارف هذه فحدجنى بنظرة حارة وقال : « نعم . اننى أستخدم ابلتون بنفسى . ولكن خذى حذرك وأنت تقلبين صفحاتها وتعودين اليها كمرجع ؛ فقد كان الناشر يدفع للمؤلفين أجورهم على الحيز الذى تشغله مقالاتهم . فلجأ أحد محرريها — وكان فى حاجة الى المال — أن يكتب ٤٧ مقالا لأشخاص لم يكن لهم وجود على الاطلاق ! .

فخاطبت نفسى قائلة : تبا لك أيها الناشر الفاسد الشرير ! ولكن أيستطيع الأساتذة العلماء أن يفعلوا ذلك بدافع الرغبة التى كانت عند هذا الناشر . ونظرت من حولى فى المؤتمر فلم أر شخصا واحدا — سواء أكان رجلا أم امرأة — على شاكلتى ؛ اذ كنت الشخص الوحيد الذى ليس من العلماء ، اذا استثنينا رجلا أو رجلين من الكتاب الفنيين حضرا ليلقيا خطابيهما

ثم غادرا المؤتمر بعد انتهاء مهمتهما . وقد عرفت فيما بعد ، لماذا غادرا القاعة ، فلا شك أن هذه المجموعة من الأساتذة كانت توحى بالأذى . فلو جلس كاتب التراجم فترة طويلة من الوقت فربما أصابه العجز أو الشلل اذا مضى مستمرا فى الاجتماع . ولم أسمع أحدا يذكر كلمتى العرض والنشر . فان من بين هؤلاء الناس من هو على استعداد ليقضى صباح أحد الأيام فى البحث عن خاتمة حسنة لجملة كتبها ، أو يقضى أسبوعا كاملا ليكشف أفضل وسيلة لعرض أحد المواقف ، وليكن مثلا موقف چون آدمز وهو يدافع عن الجنود البريطانيين بعد الحادثة التى يطلق عليها مذبحة بوسطن فى عام ١٧٧٠ ؟ .. (هل يجب أن يعرض الكاتب قاعة المحكمة حين كان يدلى الشهود بشهاداتهم ، ويذكر الأحداث التى وقعت فى تلك الأمسية المشـئومة أثناء ادلائهم بأقوالهم ؟ أم أنه يجب عليه أن يبدأ الفصـل « بالمذبحة » نفسها التى وقعت فى احدى ليالى شهر فبراير اذ كان ضوء القمر الخافت ، يظهر لفيفا من الرجال المجتمعين فى منحنيات الطرق والحراس البريطانيين وهم فى طريقهم من المعسكرات الى مواقع الحراسة فى الميدان ؟) ان كتابة هذه القصة استغرقت منى ثلاثة أشهر ولم أقض لحظة واحـدة طيلة هذه الفترة فى البحث ، اذ أننى كنت قد قمت بهذه المهمة من قبل . ولقد حاولت ببساطة أن أصور المنظر من الأمام ومن الخلف مستعينة فى ذلك بالمناظر التى تصور الماضى والسرد المعتدل والحديث غير المباشر والعبارات المقتبسة وكل أسلوب أعرفه حتى وضح المنظر — وهكذا كنت آمل — فكان ذا تأثير صحيح متسما بقوة الأداء ممزوجا بالألوان المختلفة التى كان يتطلبها .

وصاح أستاذ من المنصة محذرا : « لا تحاولوا الكتابة للجمهور ، فلو فعلتم ذلك فسوف تسقطون على وجوهكم . اكتبوا لزملائكم علماء

الطبيعة » . ولقد كان هذا أستاذا أمينا ، ومن أجل هذا أكبرته ، ولكن كان هناك علماء أساتذة آخرون لا يتميزون بهذه الصراحة .. قالوا ان الأسلوب هو حيلة يحصل عليها من يقتطع بعض الوقت من واجباته الأكثر أهمية .. حيلة ؟ واسترسلت فى التفكير وأنا جالسة فى المؤتمر وعيناى تتجهان نحو قدمى وخاطبت نفسى قائلة : « ان الأسلوب ليس حيلة . انه التنفس أو الرئة أو الروح ، وكانت اللغة القديمة تشير الى هذه الألفاظ جميعا بكلمة واحدة . لو كان الأسلوب حيلة لكان نقل الدم حيلة أيضا لأنه عبارة عن نقل الحياة السائلة من وعاء الى وعاء آخر . وكانت الصلاة أيضا حيلة لأنها عبارة عن السجود على الأرض وخفض الرأس وتغطية الوجه حتى لا يتساقط الماء من العينين ..

ربما لم تكن كل هذه الأشياء موضوعا للمناقشة ، فقد كانت — مثلها مثل الايمان — لا تتطلب أكثر من الاعتراف بها ، وكان الشخص الذى لا يقبلها ويسلم بها ينتمى الى معسكر آخر غير هذا .. ربما كان يجب أن ينقسم المؤرخون الى طائفتين ، مثلهم فى ذلك مثل المحامين الانجليز الذين ينقسمون الى طائفتين : طائفة لها حق اعداد القضايا وتكييفها ، وأخرى لها حق الترافع أمام المحاكم . هكذا يجب أن ينقسم المؤرخون الى طائفتين : تقوم الأولى بتجميع المواد اللازمة بعد فحصها ، وتقوم الأخرى بكتابة المذكرات وتقديمها للجمهور . واننى كنت دائما أعجب بكارل بيكر الذى كان أستاذا للتاريخ فى جامعة كورنيل . وكان كتابه « اعلان الاستقلال » مرشدا لى ومصدرا للالهام ، وكنت أذكر مقتطفات منه عن ظهر قلب ، وكثيرا ما كنت أرددها فى نفسى . أما كتاباته فتتصف بأسلوب رقيق موجز مفعم بالحيوية ، وكان هذا الأستاذ يلعب بخياله عبر الماضى بطريقة تثير الاعجاب . ولقد كتب شارلز بيرو الى بيكر يقول له : « اننى سمعت عنك

من أحد الثقات أنك لست مؤرخا وانك لست الا أديبا . اننى أحسدك على ذلك » .

اننى أتمنى أن يتاح للمؤرخ الناشىء بعض الوقت يغترف فيه من مناهل الأدب واللغة قبل أن يشعر بالقيود العلمية . غير أننى لا أعرف كيف يمكن أن يحدث ذلك ؟ وكنت أفكر أحيانا فى أن دراسة المؤرخ لجين أوستين قد تكون مجدية فى الوقت الذى يقيم فيه علم تدوين التاريخ العراقيل أمام الدارس . ولقد عقب وولتر باجهيو على الفوائد التى يجنيها العالم الذى يكون ضعيفا فى طفولته لأن هذا الضعف يدفعه الى « عادة القراءة غير المنظمة » . وقال : « ان س . ت كولريدج كان يشعر بتفوقه الشديد على أولئك الذين لم يقرأوا القصص الخيالية فى فترة الطفولة لأنه كان يهوى قراءتها » وكان يعتقــد أنهم يفتقرون الى شــعور يتوافر لديه وهو « الاحساس بالكون وادراكه » .

وهل هــذا الشىء — أى الاحساس بالكون — هو الذى ينقص المؤرخين المحترفين ؟ انه هو بعينه . يقال ان أحسن كتب التاريخ هى التى ألفها هواة وأشخاص لا صلة لهم بالمجال العلمى . والحقيقة أن هذه العبارة ليست صادقة كل الصدق ، ولا شك أن الكاتب الذى يتخذ مثل هــذا الموقف يعتبر أحمق . ويبدو أننى على أية حالة انتابتنى الدهشة اذ لم أر فى ذلك الاجتماع الذى عقد فى شهر ديسمبر سوى عدد قليل من ناشرى الكتب . ولو أننى كنت ناشرة لغشيت هذه الأماكن لأبحث عن الكتب الصالحة للنشر وعن الأشخاص الذين يؤلفونها . وقد شذ عن زمرة المؤرخين شخص واحد هو مستر الفريد نوبف الذى شوهد يذرع الطابع المسروق خافضا رأسه محملقا بعينيه السوداوين فى الكتب المعروضة أو فى البساط الذى يغطى أرضية القاعة أو ربما مستغرقا فى أفكاره الغامضة ، وفى يوم من

الأيام اندفع الرجل نحوى مهرولا واستحلفنى الله أن أقول له لماذا حضرت الى ذلك المكان وكيف تخيرت لى مكانا فى ذلك الاجتماع ؟ .

حينئذ سألته عما اذا كان قد لاحظ أن الأساتذة العلماء كانوا يتحدثون عن « أبواب » العلم فهناك باب يدعى التاريخ وأبواب للعلوم الاجتماعية والمؤلفات الاقتصادية . ويضاف الى هذه الأبواب موضوعات خارج المجال العلمى يطلق عليها اسم معين ويشار اليها بعبارة « الأبواب الأخرى » الغامضة ! .

قلت للمستر نوبف : « اننى أمثل الأبواب الأخرى » وان هذا الأمر هو الذى دفع به الى ذلك المكان . وكنت وأنا فى طريقى الى مدخل الفندق أحدث نفسى قائلة بأن هناك طرقا عديدة تؤدى بنا الى التاريخ ، ولنقل ان الأساتذة العلماء يصلون اليه من الطريق الشمالى الشرقى ، أما أنا فأصل اليه من الطريق الجنوبى الشرقى . ولا شك أن كلا الطريقين يؤديان الى نفس الشىء لو كانت الريح رخاء وانقشع الضباب ..

ويحس كتاب التراجم عندما يسعون الى صحبة هؤلاء العلماء أن هذه الصحبة قد تكون خطيرة الأثر ، اذ أنها قد تفسد أفكارهم وتعرقلها وتشلها ، كما أنها قد تقضى على عنصر القصة . أما النظر الى الحياة والحقائق خلال عدسة « العلم » الضيقة النقية فهذا رأى آخر . فما يعجز الانسان عن تسميته يعجز عن معرفته . وقد لمست هذا الاتجاه لا بين المؤرخين فحسب ، بل خارج المؤتمر بين العلماء ورجال القضاء والمحامين . ان هؤلاء أشخاص موثوق بهم وهم خبراء لا يتوانون عن التحدى والافضاء بالحقائق ، وان تأليف أى كتاب طويل يتعرض لعقبات وعوائق قد يقصدها المؤلف وقد لا يقصدها ، غير أن المحترف يتعلم كيف يستطيع أن يجتازها . ولكن هناك نوعا من العقبات من العسير وصفه وهو انقطاع سلسلة الأفكار واختفاء

الصورة بفعل الشك الذى يكتسح عن عمد عقل المؤلف ، وهذا أشبه بالضربة الخاطفة التى لا تصرع الشخص ولكنها تصيبه بالعمى مؤقتا .

ولا يمكن أن يحقق هذه الآثار سوى الخبراء والأشخاص الذى يعتقد المؤلف أنهم يتمتعون بقدر من المعرفة لا تتاح الا لنفر قليل . ان مواجهة الصعاب تبعث البهجة والسرور وتتطلب مجهودا شاقا فقد يستطيع المرء أن يعبر هوة سحيقة لو كان يقتفى اثر نمر ، أو لو كان يتبعه نمر مفترس .

وانى لأدرج بين طائفة العلماء والخبراء المستشار فرانكفورتر الذى جاء ليقتفى أثر المستشار هولمز ، والذى يعلم الجميع أنه ظل أستاذا للقانون بجامعة هارفارد خمسة وعشرين عاما قبل أن يتولى منصبه فى القضاء العالى فقد ضرب لى أقوى مثال على ذلك فى تجربتى . والحقيقة أننى لو أردت القول بأننى قد التقيت بشخص مطبوع على التحدى فانه هو ذلك الرجل .

فقد ولد هذا الرجل ليتحدى وعلى نحو غير عادى . واننى أعتقد أن المحامى الناشىء الذى يلتقى به يكون سعيد الطالع مالم يحجبه هذا الرجل العظيم . ومما يجدر بالذكر أن الأسئلة التى يوجهها فرانكفورتر تصدر عن تفكير سهل . والواقع أننى أعرفه لأننى شعرت بحد ذلك السلاح .

وعندما وضعت كتابى « أمريكى من أوليمبوس » كنت لا أجتمع بالمستشار فرانكفورتر الا فى فترات متقطعة ، كان لا يريد منى أن أضع هذا الكتاب وأعرب عن رغبته هذه بعبارات غامضة ، اذ أنه كان قد اختار لنفسه شخصا يكتب سيرة حياته . والواقع أننى عرفت المستشار فرانكفورتر منذ فترة الشباب وكانت أختى وأخى يعرفانه ، وعندما كنت أضع هذا الكتاب كانت رسائله تعرضنى لمآزق محرجة ، فكنت أستيقظ ليلا وأسترجعها ، وكانت أحيانا تجعلنى أنهض من فراشى وأذرع الغرفة أجول

بين جنباتها ، اذ كتب المستشار فى شهر يونية عام ١٩٤٣ أنه قد انتهى الى علمه أننى كنت فى واشنطون فى الفترة الأخيرة فى ادارة القضاء العالى . وكان مارشال واجامان قد أبلغه أننى غادرت المكان تاركة بعض الاستفسارات دون الاجابة عليها وقال : « اننى أجيب على الأسئلة لمستر واجامان . اننى أتعجب وأسر لكما فى الوقت ذاته .. يجب عليك عدم الاعتماد على الخيال عند البحث على الحقائق ولكن لابد من بذل مجهودات كبيرة فى سبيل تحقيق الدقة التامة . هل توقفت عن أن تكونى فنانة وأصبحت مجرد فكرة ؟ » .

كانت هذه العبارات مدهشة فظيعة وأنا لا أنظر الى تلك الخطابات والرسائل على أنها أحجار كريمة ، اذ أنها قلما كانت تنطلق منه ولكنها كانت جديرة بالاهتمام « ماذا ستفعلين فى القضايا الكبرى مثل قضية لوخنر ، وقضية جيتلوف ، وقضية روزيكا شويمر ؟ انك بدون الالمام بمبادىء القانون لا يمكن أن تتناولى القضايا الكبرى ؟ ان هذه الأفكار تجعل دمى يتجمد من الخوف » انه لم يكتب العبارات السابقة بل وجهها الى عندما التقيت به فى مستهل حياتى العملية . وان كانت الفكرة كما وردت قد جعلت دم هذا المستشار يتجمد فانها جعلت دمى يفور ويغلى .. وكانت الطاقة التى تولدت كافية لتدفعنى الى كتابة أصعب فصل فى الكتاب . ولو قدر لى أن أكتب سيرة حياة هذا الرجل ثانية فاننى لن أقدم على ذلك دون أن أذكر الملاحظات والرسائل التى كتبها . فقد كانت دائما فى الصميم وكانت تضرب وترا حساسا فى نفسى . وما هى الصفة التى يجب أن تتوافر فى المؤلف سوى ارهاف الاحساس ؟ يجب أن يكون حساسا ازاء الموضوع الذى يكتب عنه ، وأن يتقبل دائما كل ملاحظة ، ويدرس كل اقتراح يعترض طريقه . ولكن يجب أن يكون صلبا ومقاوما للعالم الخارجى .

التحدى ! كانت هذه هى كلمة السر . فلقد استعان بها توماس كارليل وهو يؤلف كتابه « الثورة الفرنسية » وقد قال المستشار فرانكفورتر : « ان الصعوبة الكبيرة فى احتفاظ الانسان بالتوازن الصحيح دون ما يأس أو ثورة ، أى أن يكون متحديا وحرا وواضحا » وكان اعتراض المستشار قويا كدوى المدافع ، ولم يكن هناك بد من تجنبه ، اذ أن الانسان يظل صامدا تحت وابل ضرباته المتتالية . ولكننى كنت أخاطب نفسى قائلة : « اننى سوف أنهى هذا الكتاب حتى وان كان آخر جهد أبذله فى هـذه الأرض . وسوف أحصل على الحقائق ثم سأسرد كل حادثة وكل قضية قانونية كما تتبدى لى . وفى النهاية سوف أقدم المخطوط الى من أشاء قبل الطبع وسوف أخفيه على من لا أريد أن يطلع عليه . ولو عجزت فى نهاية الفصول الثمانية والثلاثين وهى التى كنت أنوى أن يضمها الكتاب — عن عرض صورة حية ناطقة للبطل أ . و . هولمز الآن فاننى سأجعل الكتاب يحتوى على خمسين أو ستين فصلا .

اننى لا أذكر ما كتبته الى المستشـار فرانكفورتر ولكنى أعتقد أننى كنت مهذبة ، وأن انفعالى تركز فى صفحات الكتاب أى فى موضعه الصحيح وقد نجم عن ذلك أن أثمر هذا الانفعال وآتى أكله ، ولكن هـل كان المستشار يرسم الخطة ذاتها ؟ تردد ذلك السؤال فى خاطرى فيما بعد . وعلى أية حالة وبعد أن مضى اثنا عشر عاما من نشر هذا الكتاب ، وقفت أنا والمستشار على منصة اجتماع عام فى واشنطون ، وكنا قد اجتمعنا هناك بناء على اقتراحه . وكان هو يعرف أننى سوف أحاضر فى مسرح مكتبـة فولجر ، ولشد ما كانت دهشتى عندما أبلغ مدير المكتبة أنه لمما يسعده أن يقدمنى اليه . هكذا بدأت المياه تمر تحت تلك القنطرة التى كانت تفصل بيننا .. فى ذلك الوقت كان قد ظهر كتابى عن سيرة حياة چون آدمز وكتابى

عن السير ادوارد كوك . ولكننى لم أكن أعلم أكان المستشار فرانكفورتر قد قرأهما أم لا ؟ وهل أقرهما أم رأى فيهما رأيا مناقضا ؟ وحاصل القول لم يكن لدى أية فكرة مما عسى أن يحدث فى تلك اللحظة .

حينئذ نهض المستشار فرانكفورتر من مقعده ووقف أمام الأضواء المسلطة على المكان وأعلن بصوت مرتفع أننى قد كتبت حوالى ثمانية كتب ، وأنه طلب من مكتبة الكونجرس هذه الكتب وقرأها جميعا فيما عدا كتابا واحدا . وكان لا يزال يعتقد أنه من الأفضل له ألا يقرأه وأنه بذل قصارى جهده ليمنعنى من تأليف هذا الكتاب . وقال ان مسز باون ستؤكد هذا التصريح والتفت المستشار نحوى وألقى على نظرات فاحصة حين كنت جالسة على المنصة وأنا مقطبة الجبين ثم عاد الى الانشغال بما كان بيده . ومضى يقول ان هناك بعض الناس الذين يجيدون عملهم عندما تعترضهم المصاعب واننى من هؤلاء الناس . وخاطب المستمعين قائلا : « اننى أقف هنا لأقدم تعويضات عامة » ثم مضى فى استخدام كلمة الاعتذار ، بيد أنه لم يكن ثمة حاجة الى ذلك . ولكننى لن أنسى أبدا ما قاله تلك الليلة ، اذ أن كلماته قد آلمتنى أكثر من أى نقد وجهه الى من قبل . وبعد انتهاء المعركة هل ثمة ما يدعو طرفى النزال الى اثبات ضرباتهم ؟ ان المبارزة واضحة لا تتغير فهى تبقى المتبارزين واقفين على أطراف الأصابع ، أى حيثما يجب أن يقفا . ولا تغير من وضعهما .

هكذا تحدانى الأساتذة العلماء والمحامون والقضاة الخبراء خلال فترة حياتى الطويلة فى جبهات متعددة . وأثناء كتابتى لسيرة حياة آدمز تحدانى ذات مساء أحد المؤرخين قائلا ان رأيى فى آدمز متأثر بالنزعة الروائية ، وانه يختلف معى فى الرأى . وقال الأستاذ ان جورج وشنطن لم يلتحق بالجيش عام ١٧٥٤ الا لاسترداد أراضيه الواقعة على امتداد

وادى شناندواه الأعلى . ألم أكن أعرف هذا ؟ وان الذين وضعوا دستورنا انما كانوا يحاولون حماية ممتلكاتهم من عدوان الطبقات الدنيا . وقال الأستاذ انه لم يكن يردد ما كان يقوله بيرد ، وانه لم يكن من واجبه أن يفعل ذلك لأن الأمر لم يقتصر على ما ذكره بيرد بل الى أبعد من ذلك . وذكرنى بأن چون آدمز نفسه كان يود أن يتحدث عن الفئة التى تضم الفقراء « أو تلك التى تضم من هم أفضل » وان آدمز كان لا يشير بذلك الى الشخصية بل الى الوضع الاقتصادى .

وأنا أستطيع الرد على ذلك الأستاذ اليوم ، وأعتقد أننى كنت أستطيع أن أجيب عليه وقتئذ ، بيد أننى كنت أستشعر بالخجل يغمرنى .. لم أكن قد تدربت على فن مواجهة الخصوم . ولقد توجهت الى منزلى حينئذ وكتبت رسالة الى برنارد دى فوتو بجامعة كمبردچ لأبلغه ما قيل . وفيما يلى رده الكامل على رسالتى :

« من المؤكد أنك خيالية فى كتابتك عن التاريخ الأمريكى . وقد غاب عن بال أستاذك الحقيقة التالية ؛ وهى أن التاريخ الأمريكى فى صميمه تغلب عليه النزعة القصصية أكثر من أى تاريخ آخر . فقد بدأ هذا التاريخ على شكل أسطورة وظل مليئا بالقصص الخيالية ثلاثة قرون . والواقع أن كل لحظة فى تاريخ أمريكا — دون التفات الى الفترة التى تقع فيها الأحداث — أشبه بتلك الساعة التى كان يبحث فيها الأمير عن القدم الصغيرة التى تناسب ذلك الحذاء الزجاجى الذى عثر عليه فى تلك الأسطورة الشائعة ليلبسه اياها . انه من العسير أن يتوصل الذين يحتقرون النزعة القصصية « الروائية » أن يفهموا معناها . ولو لم تكن رحلة كلمبس أو كارتير أو لاسال أو كورونادو أو چون ليديارد الجنونية قصصية « روائية » ، ولو لم ترقص النجوم فى السماء

عنـــدما انعقـــد المؤتمـــر الذى وضـــع الدســـتور ، ولو كان بجزيرة أطلانطيس أية رقعة من الأرض أجل من أمريكا أو كان فى الجانب الآخر من القمر أضواء ، أو ألوان أكثر من الأضواء والألوان التى تحتوى عليها حلة لنكولن المصنوعة محليا أو معطف جاكسون الصباحى فيحق لى أن أقول اننى لا أعرف كلمة الرواية . ان قصتنا مليئة بالمستحيلات وهى أشبه بالحلم فقد بدأت على أنها حلم واستمرت كالحلم حتى ذلك الوقت الذى قرأت فيه العناوين الرئيسية فى آخر صفحة اطلعت عليها ، ولعلنا نلحظ فى أحلامنا صفتين بارزتين يجب ذكرهما . أولا : ان هذه الأحلام لا تراود الا المجانين ، بل ولا يجرؤ أن يحلم بها الا المجانين . وثانيا : اننا قد أظهرنا قدرة فائقة لتحقيق هذه الأحلام . ولابد أن توصف أبسط الحقائق التى يمكن أن نكتبها عن تاريخنا بالنزعة القصصية « الروائيـــة » . ولو كنت تخشين هذه الكلمة فالأفضل لك أن تبدئى جديا فى التدريب على العزف على الكمان . »

٧

كأس جون آدمز التذكارية

كانت الكأس مثبتة فوق قاعدة فى منتصف قاعة المـزاد ، ولم تكن محفوظة داخل صندوق زجاجى أو مغلقا عليها . وهى كأس ضخمة مستديرة ضاربة فى القدم ، لونها أزرق ، تحمل شارة درع على أحد جوانبها . وقد ورد فى قائمة المزاد أن قطرها يبلغ ١٤ بوصة ، وكتب عليها حرف ج اشارة الى أول حرف من اسم چيفرسون تعلوه صورة خوذة وعلم ، يحمل العبارة التالية : « الثورة على الطغاة هى طاعة الله » وكان بجوار الكأس جرة . ومن المعروف فى أسرة چيفرسون أن عميد الأسرة توماس چيفرسون هو الذى أهدى الكأس والجرة الى الرئيس چون آدمز ، والحقيقـة أننى لم أكن بحاجة للاطلاع على قائمة المزاد لأننى كنت أعرف جميع المعروضات معرفة جيدة نظرا لدراستى الدقيقة لهذه القائمة فى أثناء مرضى بالأنفلونزا ؟ لقد ظلت هذه القائمة تلازمنى عشرة أيام فكنت حريصة على معرفة كل شىء فيها والاطلاع على جميع التفاصيل المتعلقة بالتحف المعروضة . وكانت القائمة تضم بيانات قيمة وصورا فنية رائعة .

كانت تعيش فى احدى ضواحى بوسطن سيدتان ترتبطان بأواصر القربى بأسرتى آدمز وكوينسى . وكانت هاتان السيدتان تقومان ببيع محتويات غرفة كبيرة يتكدس فيها الأثاث الفاخر والتحف النادرة التى يسيل لها لعاب هواة جمع التحف والآثار وخبرائها ، أو مديرى المتاحف فى كل مكان .

وكنت لا أتوقف عن متابعة أنبـاء أسرة آدمز وأقاربهما ومعارفهما والمتصلين بهما ، وظللت قرابة ثلاثة أعوام لا أكاد أقرأ شيئا لا يتصل بهذه

الأسرة فاطلعت على كل ما كتبه كل من هنرى وتشارلز فرانسيس حتى ألفت خطيهما وأصبحت أميز بينهما بسهولة ، بل اننى كدت أفقد البصر نتيجة لانكبابى على دراسة محفوظات تشارلز فرانسيس عن الحرب الأهلية .

وأود أن أشير الى أن جون آدمز قد توفى فى اليوم الرابع من شهر يولية عام ١٨٢٦ ، وهو ذات اليوم الذى كانت تحتفل فيه البلاد بعيد الاستقلال . والغريب أن توماس چيفرسون توفى فى نفس ذلك اليوم أيضا لذلك كان هذا يوما مجيدا يعجز البيان عن وصفه . فى ذلك اليوم فارق الحياة رجلان عظيمان . وقد تأثر تشارلز فرانسيس بذلك الحادث وكتب العبارة التالية : « لقد أرسلت الشمس الغاربة أشعتها فى السماء الممتدة » . ثم أضاف آخر كلمات لفظها آدمز أمكن تسجيلها فى اللحظة التى كان يلفظ فيها أنفاسه الأخيرة وهى : « ان توماس چيفرسون ما زال يعيش بعدى » .

هل قال چون آدمز : « يعيش بعدى » ؟ لا ، انه لم يقل ذلك أبدا ، بل قال « يعيش » فقط ، لابد أنه قال : « يعيش » فقط وهو يفارق الحياة ، فقد كان يتحدث دائما بأنفة وصراحة . ولم يكن « مهذبا » الا فى النواحى الخلقية ، كان خشنا وعاطفيا وقوى الارادة معتزا بنفسه . وكان أمينا ومخلصا للنزعة المتطهرة « التى يتميز بها الفلاحون وفى كل سلوك بدر منه » . وقد قال چيفرسون عنه « انه وطنى منزه عن الهوى والمآرب الشخصية كمن أنجبه » .

كم من المتاعب والأهوال قد لقيتها أثناء تأليفى للكتاب ، اذ عكفت على القراءة فى المكتبات اثنى عشر شهرا مرضت أثناءها بالأنفلونزا عدة مرات . ما أشبه كتابة سيرة الحياة بالكتابة فى علم الآثار : فهى تتطلب العمل بين

الكتب وخارجها أيضا ، وكثيرا ما كنت أقرر زيارة الأماكن النائية التى كان يرتادها آدمز . فاضطررت الى الاطلاع على مخلفات قصر سميث فى ويماوت الواقع فوق التلال حيث كان يركض بجواده ليلتقى بعشيقته ابيجيل ، ثم اضطر الى قضاء أسبوع آخر فى وود سستر حيث كان چون آدمز يتلقى دروسه .. وكنت أقرر البدء فى زياراتى أحيانا فى الحال ، أو أؤجلها أحيانا أخرى ، وكان هدفى من وراء ذلك الاطلاع على جميع الآثار والمتاحف والقاعات والمكتبات التابعة للجمعيات الخيرية التى تضم آثارا لآدمز أو كتاباته أو أثاثه أو أى شىء يتصل به . وكنت أدون فى الملف الذى أحمله « الأشياء التى يجب أن أقوم بها » وأستهل عملى بأول ما فى القائمة دائما .

وقررت ذات مرة التعجيل بشراء تذكرة للسفر الى بوسطن بالقطار مع التخلف فى نيويورك . ولم أقصد بذلك مجرد حضور المزاد فقط بل كنت أريد أيضا دراسة قائمة المزاد وقضاء سويعات قليلة قبل افتتاحه ، وبينما كنت فى طريقى الى نيويورك قمت ثانية بدراسة الصور من جديد حتى لا أكتفى بمجرد القيام بدور المعجبة بالتحف أثناء تجوالى بقاعة المعرض ، فكنت أريد أن أعرف كل شىء وأدرسه وأفحصه ،كانت الصور التى احتوت عليها القائمة واضحة ، وكانت كل قطعة معروضة فى المزاد جميلة وجذابة كما تخيلت ... ولقد وقع نظرى على ثلاث صور لجلبرت ستيوارت وجوسيا كوينسى الذى كنت أحبه وأعجب به ، وقد كان جوسيا مديرا لجامعة هارفارد فى وقت ما . وكانت الصورة وهو جالس على مقعد وثير مع السيدة عقيلته . وكان الاثنان غاية فى الجمال والأناقة . وثمة حقيقة هامة تحضر لى الآن ذكراها ، وهى أن نجم أسرة آدمز لم يرتفع الا بعد زواج چون بابيجيل سميث واختلاطه بمعارفها من أسرة كوينسى . غير أن چون

آدمز لم يفعل ذلك بناء عن خطة وضعها ، اذ أنه كان أسمى مقصدا ونزاهة من أن يقدم على مثل هذه المحاولة . ولكنه على أية حالة لم ينكر هذه الأمور .

كنت أفكر فى كل هذه الأشياء وأنا فى القطار ... واذا بنظرى يقع على ابريق الشاى الخاص ببول ريفيرى وقاعدته ، وكان الابريق يبدو جذابا وأنيقا برسومه الجميلة وصنبوره البسيط المستقيم . فقد كان يشبه چون آدمز ... ورأيت صورتين لكأس الأستاذ فلينت ، بل انهم لن يبيعوا هذه الكأس ؟ .

ومكثت أقلب صفحات القائمة فوقع نظرى على العبارة التالية : « غطاء على شكل قبة به حلقات متتالية على أبعاد متساوية وفى أعلاه بروز به تجويف على هيئة وعاء » .

وعندئذ خاطبت نفسى قائلة : يا الهى !! ما أعجب هذا الأسلوب الخيالى « بروز به تجويف على هيئة وعاء » لا شك أن الأستاذ فيلنت لم يسمع من قبل عن مثل هذا الشىء الذى يحمل النقش التالى « هدية الطلاب الى هنرى فيلنت عام ١٧١٨ » .

وقد كان الأستاذ فلينت عم دوروثى بك ، غريب الأطوار محبوبا جدا ، أمضى فى التدريس بجامعة هارفارد زهاء خمسين عاما . وكان تلامذته يلقبونه بالأب فلينت ، وأخذت أقلب صفحات القائمة مطلعة على الصور والأثاث ، وفى النهاية لفتت ناظرى صورة تشغل صفحة بأكملها هى صورة الكأس .

عندما بلغت المكان قال لى عامل المصعد ان البيع فى الطابق الخامس ، ولكننى ألفيت نفسى أغادر المصعد فى الطابق الرابع حيث ضللت طريقى وسط غابة مليئة بالأثاث والرياش الفاخر وكانت تؤلف مجموعات مختلفة

لكل مجموعة طراز معين ، فوجدت بينها الطراز الفرنسى ، والطراز الصينى ، والطراز الفيكتورى . وكان الطابق غاصا بالنقوش والاطارات الذهبية السميكة التى تحيط بصور أطفال يتدفقون دعة ورقة ... وبينما كنت أذرع المكان ، وجدت الدرج ، فارتقيته الى الطابق الخامس ، وكان حذائى مبتلا فكان يصر تحت قدمى ، وكان يبدو أنه لا يوجد أحد سواى فى كل ذلك البناء الضخم . وقلت فى نفسى ربما كان السبب هو هطول الأمطار .. أو لأن ذلك اليوم كان يوافق الاثنين من أيام الأسبوع ولا يزال الوقت مبكرا .

وفى أعلى الدرج اتجهت يمينا حيث كانت توجد حجرة طويلة تؤدى الى قاعة داخلية . وعلى بعد عشرين خطوة فقط رأيت الكأس فوق قاعدتها، كانت كأسا كبيرة ومستديرة زرقاء اللون . وكانت الدرع فى مواجهتى . تقدمت نحوها ببطء ورحت أتطلع اليها . وأبصرت فى قاع الكأس حبة ذهبية صغيرة قد حال لونها . وكان يحيط بطرفها الأعلى رسم زخرفى قالت عنه القائمة انه « رسم مشجر أزرق به أزهار الزنبق البارزة الليمونية اللون. وبين الحبات المتناثرة خارج الكأس رسمت درعان بأطرافهما نجوم ذهبية وزرقاء وتحمل الكأس حرف « ج » الذى تعلوه خوذة فوقها علم صغير كتب عليه الشعار ... »

انحنيت قليلا الى أسفل فرأيت الدرع ، ورأيت بالتأكيد حرف ج مكتوبا بخط جميل والشعار : « الثورة على الطغاة هى طاعة الله » .

تملكتنى عاطفة جارفة دفعتنى الى التساؤل عن سبب هذا الشعور القوى ؟ فلم أكن من أسرة آدمز أو كوينسى بل لم أكن حتى من أسرة راندولف بفيرجينيا . وفى ذلك الوقت مرّ بى خادم زنجى حديث السن يرتدى حلة خضراء ذات أزرار نحاسية صفراء ، وسألنى قائلا : « هل يمكننى

أن أساعدك يا سيدتى ؟ « فقلت له : « لا ، وشكرا » ثم أضفت قائلة بشىء من البلاهة « هل هذه حجرة آدامز كوينسى ؟ » .

كان كل شىء من حولى فى الحجرة مألوفا فى ذلك الصباح ، بل اننى كنت أعرف جميع المعروضات معرفتى لمنزلى الريفى تماما .

وكانت الحجرة مستطيلة الشكل يشيع فيها ضوء خافت صادر من سقفها الزجاجى وكان جوسيا كوينسى يطل من الحائط ، وكان فى الحقيقة أجمل مما كان يبدو فى القائمة . وكانت صورتا مسز كوينسى الصغرى ومسز كوينسى الكبرى معلقتين أيضا . وشاهدت صورة لشاب ذى شعر أسود فاحم لا أذكر اسمه الآن . فكثير ما ينسى المرء أسماء أبناء أعمامه من الجيل الماضى وان كانت وجوههم تظل ثابتة فى ذهنه .

والى جوار الكأس كان يوجد صندوق مضاء من الداخل به مجموعة من الأشرطة والحواشى العريضة المصنوعة فى بروكسل ، وكانت زخارفها الهشة موضوعة خارج الصندوق فوق قطعة من المخمل الأسود رسمت عليها حديقة تقطعها ممرات تؤدى الى نافورة على هيئة درفيل وأوان من «البورسلان» مليئة بالأزهار الدقيقة الرسم ، وعلى مقربة منى رأيت ابريق بول ريفيرى بيده السوداء المنحنية داخل علبة زجاجية . وشاهدت فى منتصف الحجرة أيضا كأس الأستاذ فلينت ، والى يمينى علبة طويلة مليئة بالأدوات الفضية والكؤوس والملاعق والغلايات ومغرفة للحساء ذات تجويف كبير وذراع خشبية طويلة فاتحة اللون ... وقلت فى نفسى انها ولا شك أجمل مغرفة حساء رأيتها فى حياتى . تفحصتها فوجدت أنها تحمل رقم ١٣ بين المعروضات وكتب عليها : « مغرفة حساء جورج الأول الفضية قام بصنعها تشارلز جاكسون بلندن عام ١٧٢٤ طولها ١٧٫٥ بوصة وبها

تجويف بيضاوى بسيط رقيق ومطوية عند الطرف ومثبت بها ذراع من خشب الكمثرى » .

عدت ثانية الى الكأس التى كان يجذبنى نحوها ذلك السحر الذى كانت تتميز به . وقرأت عبارة « الثورة على الطغاة .. » ثانية وتساءلت : هل كان چيفرسون يتخذ هذه العبارة شعارا له ؟ أم أنه استعارها من بنجامين فرانكلين ؟ أم أنه أخذها عن تشالز الأول ؟ ثم قلت لا بد أن أبحث هذا الأمر عندما أعود الى المنزل .

من المعروف أن چيفرسون هو الذى أهدى هذه الكأس الى چون آدمز ، ولكن متى أهداه اياها ، وكيف ؟ توالت الأسئلة على ذهنى وكنت عاجزة عن الرد عليها سواء بالاستعانة بالصبية الزنوج ذوى الحلل الخضراء أو بالسيدة المشرفة على المزاد والجالسة الى مكتب التليفون . ومن الواضح أن الكأس لم تنتقل الى ملكية چون آدمز عندما كان هو وچيفرسون فى فرنسا . ولا بد أن ذلك حدث بعد عام ١٨٠٠ ، أى بعد أن تولى چيفرسون الحكم للمرة الثانية وبعد حرب مستر ميديسون التى اندلعت نيرانها فى العقد الثالث من القرن التاسع عشر ابان انتعاش التجارة مع الصين ، وبعد أن استأنف الرجلان التراسل فى شيخوختهما ، وبعد أن جدد أواصر الصداقة بينهما الدكتور روسن فأضحت صداقة خالدة على التاريخ .

لا شك أن چيفرسون أرسل الكأس من مونتيشيلو رمزا له . وقد قال چون آدمز عن صداقته لچيفرسون : « لقد طعنا فى السن وأنا ومستر چيفرسون واعتزلنا الحياة العامة ، لذلك عقدنا من جديد أواصر الصداقة القديمة بيننا .. لقد كان يريد أن يصبح رئيسا لجمهورية الولايات المتحدة وقد اعترضت أنا طريقه وان كان النزاع دب بيننا لهذا السبب ، فلا شك

أننى أتعرض للنزاع مع أى شخص اشترك معه فى القيام بأية مهمة » .

هكذا شرح چون آدمز صداقته مع چيفرسون لجوسياكوينسى الشاب الذى قام بدوره بتسجيل الكلمات السابقة .

لابد أن الكأس قد قطعت تلك الرحلة الطويلة من مونتيشيليو الى كوينسى بمساشوستس ، بعضها بالقوارب وبعضها بالعربات . ومن يدرى؟ ربما أرسلها چيفرسون مع بريده الشخصى المستعجل مع مذكرة عاجلة لم يحتفظ بنسخة منها . وربما حمله خادم زنجى فوق صهوة جواده ذارعا تلك المسافة الكبيرة فى فصل الصيف سالكا الطرق الموحشة المتعرجة ، المليئة بالأتربة نحو الشمال حيث كانت مياه المستنقعات تغطى سفوح تلال كوينسى الزرقاء .

وهكذا ظللت مستغرقة فى أحلامى حتى دقت ساعة لم أتبين مكانها ، فقلت انه قد حان موعد مغادرتى للمكان . ومضيت أتلفت ببطء حولى وتساءلت فى نفسى قائلة هل أتذكر هذه الحجرة ؟ ان الحب لا يضمن الذكرى وهل سأحتفظ فى ذاكرتى بهذا الجمال المتألق ، ذلك المكتب وتلك المائدة المصنوعان من الخشب النادر ، وتلك الأوانى الفضية والرسوم الجميلة ... الحقيقة أننى لم أتبين فى هذه القطع الفنية شيئا واحدا يمكن الاستغناء عنه . فقد كانت كل قطعة تحفة فنية كاملة . وكان المكان يوحى لى بالأناقة والنزاهة ويوحى بأسلوب من أساليب الحياة والتفكير . كانت هذه المعروضات بعيدة كل البعد عن الأثاث المصنوع على طراز لويس الخامس عشر وبعيدة عن مثيلاتها من طراز عصر الملكة فيكتوريا ، بل وبعيدة كل البعد عن الشارع رقم ٥٧ الذى كانت تنهمر عليه الأمطار الغزيرة ، والذى كنت أستعد للنزول به .

واعجبا !! فقد كانت كل هذه الأشياء تنطق بفلسفة قرن بأكمله ، أشياء وجدت عام ١٧١٨ مثل كأس الأستاذ فلينت المتينة البسيطة بساطة تتناسب مع العصر الذى صنعت فيه ، وأشياء صنعت بعد ذلك التاريخ بثلاثة أجيال مثل كأس بول ويفيرى ذات الرسوم الدقيقة .

وبينما كنت أفكر هكذا تحدث شخص ما من خلفى ، فانتابتنى رعدة خفيفة ، وعندئذ ظهرت سيدتان من حيث لا أدرى . كانتا تقفان أمام صورة كوينسى ، وكانت احداهما ممسكة فى يدها بمنظار من ذلك النوع الذى نشهده فى المسارح والحفــلات ، وانحنت السيدة نحو الصورة وظلت تحدجها بنظراتها . تذكرت أننى قد التقيت بهاتين السيدتين أو بسيدتين أخريين تشبههما فى شارع بيكون منذ أيام مضت ، فهما طويلتا القامة ترتديان أحذية قصيرة وقد لاحظت أن معروضات آدمز وكوينسى تثير اهتمامهما .

طفق قلبى يخفق فرحا . فهأنذا أخيرا أستطيع أن أصل الى اجابة أسئلتى ؛ اذ لابد أن هاتين السيدتين الأنيقتين الممتازتين تعرفان شيئا عن هــذا الأثاث . انهما تستطيعان أن تجيبا على سؤالى عن تفوق الأثاث الأمريكى طراز هيبلهوات على الأثاث الانجليزى من الطراز ذاته . وقلت فى نفسى ان السبب هو صعوبة الحياة فى مساشوستس عنها فى انجلترا ، اذ أن الجو هنا أبرد ، والصراع من أجل الحياة أقسى وأشد ، وان صعوبة الحياة تترك أثرها على الزخارف ، بل انها تدخل على اللغة كلمات جديدة لم يكن لها وجــود .

كانت السيدتان تتحدثان وقد سمعتهما تذكران أسماء تتصل بقصة آدمز وكوينسى فقلت ربما كانت هاتان السيدتان ترتبطان بوشائج القربى بأصحاب تلك المعروضات الساحرة التى تحيط بى . كانت السيدة ذات

المنظار تتحدث حينئذ ، وكانت عباراتها قوية تشيع فيها لهجة سكان بيكون هيل . كما كانت ألفاظها حاسمة وقاطعة ، وكانت تشق سكون الحجرة بصوتها المسموع . واسترقت السمع اليها فكانت تقول : « .. هكذا تنازلت عن المنزل لأخيها لتفلت من الضرائب » .

آه ! لابد أن هاتين السيدتين تعرفان كل شىء ، بل ربما استطاعتا أن تقولا لى متى أرسل چيفرسون الكأس الى چون آدمز — استدارت السيدة صاحبة المنظار واتجهت نحوى مباشرة ثم سألتنى قائلة ؟ ! .. « هل تستطيعين أن تقولى لى أين يمكننى أن أجـد قائمة معروضـات أسرة آدمز — كوينسى ؟ » :

ونطقت السيدة الاسم الأخير كوينزى بدلا من كوينسى . والواقع أننى كنت أنطقه هكذا . بيد أننى كنت أبذل جهدا كبيرا فى سبيل ذلك . ابتسمت لها وقلت : أتريدين القائمة ؟ يمكنك أن تأخذى هذه القائمة . اننى فى غير حاجة اليها لأنى أعرف هذه الأشياء عن ظهر قلب . غير أننى لست من بوسطن ، بل من فيلادلفيا ، ولى سؤال بسيط : أفلا تتكرمين باخبارى باسم المالك الأخير لكأس الأستاذ فلينت ؟ » .

نظرت السيدة بأنفة دون أن تبتسم .. بل انها نظرت الى ما فوق رأسى دون أن تنظر الىّ واستقرت عيناها فى مكان مرتفع على الحائط المقابل لها وقالت : « أشكرك ! أظننى أرى بعض القوائم على المكتب الذى عند الباب » . ثم تركتنى السيدة وذهبت بعيدا عنى تتبعها السيدة التى كانت ترافقها .

شعرت برغبة شديدة فى أن أقطع لسانها اربا ، لا لأنها حطمت كبريائى فحسب ، بل لأنها استبعدتنى عن المكان وأشعرتنى بالغربة . فحتى تلك اللحظة كنت أشعر أن الحجرة بكل ما فيها ملك لى . وقد أصبحت سريعا

جزءا منها ويعود الفضل فى ذلك الى ارادة الله ، بل الى تنقيبى فى المكتبات أياما طويلة دون ملل .

فى تلك اللحظة دق التليفون الموضوع على المكتب فى الغرفة المقابلة . وتحولت ثانية الى الحجرة والكأس والابريق والرسوم التى تزخر بها . كان الأمر كما توقعت ، بل كما خشيت أن يحدث ، ألفيت الجمود يسود هذه المعروضات ، وشعرت بانقطاع الصلة بينى وبينها . وكانت تحمل أرقام ٦٤ و ٦٥ و ٣١ على التوالى .

هل يمتزج الشعور بالماضى دائما بالوهم ، وهل يتألق فى ذاكرتنا ثم يموت بسهولة ؟ لقد سافرت ذات مرة الى روسيا وعدت الى بلادى وأنا أحمل معى أوهاما . وعندما فتشت عن المستشار هولمز التقيت بسكان شارع بيكون فلم أشعر بالهزيمة ، ترى لماذا يتميز كتاب التراجم بالحساسية الشديدة الى حد الحرص على التعرف على كل ما كان يشغل بال الشخص الذى يترجمون حياته ؟ أفلا أستطيع أن أبدل من هذه الحساسية ؟ .

لم يكن لدى الوقت الكافى للتفكير فى الاجابة على هذه الأسئلة لأن أفكارى متأخرة . تبا لك أيتها المرأة . فليحرقك سعير جهنم ، وليحترق معك أبناؤك وأحفادك . عليك اللعنة !

عادت السيدة ثانية وأحضرت معها الصبى الزنجى ، ووقف الاثنان أمام كأس الأستاذ فلينت وفتح الصبى الصندوق فتناولت السيدة الكأس بيديها وردتنى هذه الحركة الى وعيى وأفقت الى نفسى . ولكنى ما لبثت أن خاطبت نفسى قائلة : اننا لسنا فى متحف ، بل ان هذه قائمة للبيع بالمزاد العلنى ، فنحن نستطيع أن نلمس المعروضات ونمسكها بأيدينا فهى معروضة للبيـــع .

استدرت حينئذ وتوجهت نحو الحجرة المجاورة ، كانت السيدة المشرفة

على المزاد تتحدث فى التليفون ، فانحنيت فوق المكتب وقلت لها : « من فضلك . هل يمكننى أن أطلع على تقدير قيمة التحفة رقم ٦٤ . انها من أمتعة أسرتى آدمز وكوينسى الموروثة » .

هزت الفتاة رأسها وأخذت تقلب مجموعة من الورق أمامها ، وكان صوت سماعة التليفون التى كانت تضعها على أذنيها يصر صريرا مسموعا ثم قالت : « رقم ٦٤ . انها الكأس . ولقد قدر ثمنها بألف وخمسمائة دولار ، أما التحفة رقم ٦٥ التى تكملها وهى الجرة فقد قدر ثمنها بسبعمائة وخمسين دولارا » .

ثم سألتها بعجلة : « ورقم ٣١ • مغرفة الحساء . هل يمكنك أن تقولى ؟ » .

فأجابت : « مائة وخمسون دولارا » .

فشكرتها وعدت ثانية الى القائمة فرأيت بها حظيرة للتليفون . لم أكن أريد التعجل فى التوجه الى تلك الحظيرة . كنت أريد التحدث الى وكيل أعمالى الأدبية الذى يقع مكتبه بالقرب من هذا المكان فى المبنى الثامن الى الجنوب ، شعرت برغبة ملحة فى التحدث اليه ودعوته بالحاح للحضور يوم البيع ، أى يوم السبت ، لشراء تلك المغرفة حتى ولو اضطر فى سبيل ذلك الى المضاربة والوقوف أمام متحف العاصمة وسيدات أسرتى آدمز وكوينسى فى نيوانجلند . كانت صورة وكيلى ماثلة فى ذهنى وهو يتحدى السيدتين فى حماسة . وهو رجل قدير فى الأعمال التجارية من بلدة نيوها مشاير .

ولكن كيف أتصرف لو رأى الرجل أن المضاربة على مغرفة حساء ليس من اختصاص الوكيل الأدبى ؟ أدرت قرص التليفون وانتظرت قليلا . وكان ينتابنى فى تلك اللحظة شعور بالسرور .

وصحت قائلة : « آلو هارولد ! اننى فى قاعة المزاد . اسمع . هناك

مغرفة حساء . أريد منك الحضور الى هنا لابتياعها يوم السبت المقبل . هل تستطيع القيام بهذه المهمة ؟ وهل ستكون بالمدينة فى ذلك الوقت ؟ انها رقم ٣١ . هل معك قلم ؟ الثمن المطلوب هو ١٥٠ دولارا » .

عندئذ سألنى وكيلى فى دهشة قائلا : « مغرفة حساء ؟ أتقولين مغرفة حساء . أستحلفك بالله أن تخبرينى عن مكانك الآن .. كنت أعتقد أنك لا تزالين فى فيلادلفيا — هل ذكرت أن ثمنها مائة وخمسون دولارا ؟ هل قلت ذلك حقا ؟ ولكن ليس بوسعك أن تدفعى مائة وخمسين دولارا فى مغرفة حساء » .

ولكننى كنت فى الواقع على استعداد لدفع هذا المبلغ فقلت له : « ان هذا المبلغ ضئيل جدا . لأننى فى الحقيقة أريد الكأس التى قدر ثمنها بألف وخمسمائة دولار . وأريد الجرة التى تستكمل التحفة وتجعلها مجموعة متكاملة والمقدر ثمنها بسبعمائة وخمسين دولارا » .

بعدئذ دامت بيننا فترة من السكون قطعها هارولد بقوله : « أعتقد أنه من الأفضل أن أحضر اليك فورا » وكان يبدو فى صوته التعب والارهاق ولكنه مضى يقول : « أين أنت الآن ؟ أرجوك أن تبقى مكانك فى حظيرة التليفون . الزمى مكانك فى هدوء .. » ثم رفع صوته قائلا : « لا تتحدثى مع أى شخص الى أن أصل اليك » .

فقلت محدثة نفسى انه يطلب منى عدم التحدث الى أحد . ومنذا الذى سيتحدث معى ؟ ثم قلت له : « آه ! يجب ألا أشغل نفسى كثيرا ، يجب أن أنسى كل شىء .اننى سأستقل القطار الى بوسطن ، الى اللقاء » .

وأعدت السماعة الى مكانها ودلفت الى داخل القائمة التى أخذ الناس يفدون اليها . وكانت حجرة آدمز كوينسى تغص بالمتفرجين الذين أخذت تتردد همساتهم وهمهماتهم فى أرجاء الحجرة . أبصرت رجلين يرتدى كل

منهما معطفا طويلا فعرفت أنهما من تجار العاديات حضرا لشراء بعض التحف. كان حديثهما سريعا وفنيا . وكان كل منهما يحمل منظارا من النوع الذى يستخدم لفحص المجوهرات ولم يظهرا اهتماما بالرسوم قدر اهتمامهما بالاطارات التى تحيط بها . وكان كل منهما يربت بأصابعه على أحد جوانب المكتب الأنيق وينادى زميله بصوت مرتفع ، ولم يقيما وزنا للحاضرين .. وانتظرت قليلا أمام الباب الخارجى ، وشعرت بمعطفى الثقيل يسقط من فوق كتفى ..

دخلت السيدة المشرفة على المزاد والجالسة الى المكتب بخطى سريعة متجهة نحو الكأس . كان فى أثرها شخص ما .. كان هذا الشخص سيدة تضع قبعة فوق رأسها وتحمل مفكرة وقلما فى يدها ثم قالت السيدة التى تحمل المفكرة « هناك شدخ فى الكأس » وهزت السيدة المشرفة على المزاد رأسها قائلة : « ان هذه الشدوخ قد حدثت بفعل الزمن » .

وقالت السيدة الأخرى : « لا . لا » ألا ترين هذا الشدخ الطويل الذى يقسم الكأس الى نصفين ؟ ان الكأس قد شدخت وأجريت لهـا بعض « الترميمات » التى شملتها كلها .

فى تلك اللحظة كنت أقف الى جوار السيدتين .. وخرجت السيدة المشرفة على المزاد ونقرت الكأس بابهامها وسبابتها فأصدرت الكأس رنينا أشبه بالاحتجاج لم يلبث أن اختنق سريعا فى الهواء .

وتدخلت سائلة السيدة بقولى : « هل من شأن هذا الشدخ أن يخفض ثمن الكأس ؟ » .

فهزت السيدة المشرفة على المزاد رأسها بالنفى وقالت : « لا أعتقد ذلك . انه قطعة أثرية تاريخية كانت ملكا لتوماس جيفرســون » ثم نقرت

الكأس ثانية وقالت : « ألا تسمعين هذا الصوت ؟ انه واضح ومدهش أليس كذلك ؟ » .

ثم انحنت قليلا وحملقت فيه ، ثم قرأت العبارة المكتوبة عليه ببطء « الثورة على الطغاة هى طاعة الله » .. لا ان هذا الشدخ لن يقلل من قيمة الكأس .

ثم خرجت السيدتان وشعرت بأنه قد حان وقت مغادرتى المكان ، ولكننى لم أستطع الخروج . كان هناك مقعد خارج الباب فى القاعة يراه من فى الحجرة توجهت اليه وجلست عليه وقد وضعت القبعة والمظلة والحقيبة فوق ركبتى . كان الناس يمرون من أمامى الى الباب الخارجى .. والتاجران أمامى وعلى رأسيهما قبعتاهما ، وكانا يخفيان النظارات التى رأيتها معهما ، ثم وقفا أمام الدرج ، وقال أحدهما للآخر ستكون المنافسة شديدة يوم السبت . قد لا تكون المنافسة شديدة على الرسوم . غير أنه حتى الآن قدم عرضا لشراء الكأس . وتلقى الجرة رقم ٦٥ نفس الاقبال . اننى أعتقد شخصيا أن تقديرهم لثمن الجرة منخفض جدا وانه سوف يصل ثمنها الى ١٢٠٠ دولار .

ومن مقعدى بالداخل كنت أرى جزءا من الدرج وكنت أستطيع أن أرى حجرة المزاد والمنصة وصفا من المقاعد فى انتظار يوم السبت . مكثت قليلا أفكر فى السبب لامتلاك هذه التحف التى تحيط بى والتى لم تكن لتشغلنى من قبل . ولكن بعد بقائى ساعتين فى المكان أقنعت نفسى بأن الكأس والجرة ومغرفة الحساء وصورة جوسياكوينسى وعقيلته وابريق بول ريفيرى وحواشى الثياب جميعا والأوانى والنافورة .. هى كلها ملك لى !

ترى لماذا كنت على هذه الصورة من الطمع ؟ اننى لم أمتلك آبدا فى

حياتى قطعة واحدة من التحف القديمة ، بل اننى فى الحقيقة لم أكن أريد أن أقتنى أية قطعة منها ، كما لم أجمع من قبل أى أثاث من طراز تذكارى مثل طراز هيبلهوايت أو شيراتون ، اذ أننا كنا نستخدم فى منزلنا كراسى العمة اليزا ، وكنا نبتاع أحيانا بعض الأثاثات المريحة ، ولم يكن هناك ما يحفزنى لاقتناء الأثاث الثمين ، بل اننى لم أقتن لوحات فنية مثل « فينوس وهى تخرج من البحر » أو غيرها من اللوحات المعروفة ، وقد قال أحد الفلاسفة : ان الجمال فى عين من يراه ، أليس من الأروع والأجمل أن يكتفى المرء بمجرد المرور على مثل هذا المعرض أو ذلك المتحف ويتطلع الى الجمال دون أن يمتلكه ؟

لا ! ليس هذا بالشىء الجميل . الكأس .. كأس جيفرسون ، أو بالأحرى كأس چون آدمز .. لو كنت أمتلكها لاستطعت أن أراها كل يوم . كنت سأضعها فى منتصف حجرة المائدة المظلمة الصغيرة بمنزلى ، وألقى عليها نظرة كلما مررت بالحجرة لأرى ذلك الفرع الذهبى الحائل الذى يمر بوسطها . كنت سأستطيع الانحناء لأقرأ العبارة المكتوبة عليها . ولا شك أننى كنت سأستطيع — أثناء مرورى — أن ألمسها بيدى .

بينما كنت أخاطب نفسى فى القاعة انبعثت الأضواء من أسفل الدرج مسلطة على حجرة المزاد . يا للعجب عندما مررت صباح اليوم بهذه الحجرة لم أشهد ذلك المسرح ، لابد أن الباب الخارجى كان مغلقا وفتح الآن ، أم أن عقلى هو الذى كان مغلقا ولم يكن على استعداد ليدرك أن هذا بيع بالمزاد ؟ انه ليس قصيدة شعرية أو معبدا بل هو بيع بالمزاد . لقد وضعت هذه الأشياء هنا لتشتت بعدئذ .. هناك شخص فى حاجة الى المال ولذلك فانه سيبيعها وشخص آخر لديه المال ويريد أن يبتاعها — ترى لماذا أقلب هذا الموضوع الى قضية أخلاقية ؟

آه — أدركت الآن أننى تركت المصعد فى الطابق الرابع واخترقت حجرة آدمز كوينسى — هذا الصباح لغرض فى نفسى — لقد عرفت السبب ، أردت أن أطلع على هذه الأشياء بتؤدة وأتبينها بنفسى وأميزها دون أن يقودنى الجمهور اليها ، كنت أود تعرف الصورة والكأس ، وطفت بالمكان محملقة فى المعروضات ، خيال بل حلم أقرب الى الواقع من الحقيقة نفسها . وعندما خطوت فوق عتبة الباب ألفيت نفسى فى مكان آخر وقرن آخر .. انهما نفس المكان ونفس الزمان اللذان كنت أفتش عنهما بين رفوف المكتبات .

سرعان ما أصبحت الحجرة ملكا لى دون حاجة الى أن ألمس شيئا أو أشتريه . ولكننى هأنذا أرى المكان الآن . وهل يشترى المرء صديقا أو ابنة ؟ بل وهل يخسر المرء صديقه بعد أول تهديد أو بمجرد ظهور أول علامات الجفاء ؟ لم أكن هذا الصباح فى حاجة الى وكيل ليبتاع لى الكؤوس ، بل كنت فى حاجة الى فيلسوف ليعلمنى التفكير السليم والأناة . ان لفظ « الملكية » ينطوى على فكرة صعبة ولا يمكن تعريفه باعتباره لفظا مجردا ، انه يثير أسئلة لا أستطيع أن أجيب عنها بناء على رغباتى . ولكن لو كان الجمال فى عين من يراه ألا يمكن أن تكون ملكية هذا الجمال فى عينه أيضا ؟ .

سحبت معطفى وحقيبتى من فوق رجلى وانحنيت الى الأمام ناظرة أمامى حيث حجرة آدمز — كوينسى . وكان المكان خاويا فى ساعة الظهيرة ، لم يكن يوجد به سوى شابين زنجيين يرتدى كل منهما حلة خضراء ذات أزرار نحاسية صفراء بينما تمر على امتداد السروال خطوط صفراء أنيقة . لقد كانا يناسبان الحجرة وهما يقفان فى أحد جوانبها . كان الأفضل لو لبسا سراويل قصيرة ضيقة عند الركبة وجوارب بيضاء . ما أهدأ

المكان وما أجمله . كنت أستريح للجلوس هناك وحدى بعد مغادرة الناس للقائمة . ترى ماذا كان جون آدمز يدونه فى مذكراته فى عام ١٧٦٠ قبل أن يبدأ القتال ، أى كما قال عندما كانت تحدج كل من بريطانيا وأمريكا فى الأخرى ؟ عندئذ قلت فى نفسى سوف أقف الآن وأجمع حاجياتى وأفكر فيما أقرأ وفيما أرى » .

وقفت ووضعت حاجياتى بعناية على المقعد وأعددت نفسى للخروج . من الأفضل أن ألحق بذلك القطار الذاهب الى بوسطن .. وبينما أنا فى المصعد قال لى العامل : « لقد خرجت فى دور غير الذى كنت تقصدين اليه أليس كذلك ؟ » فأجبته بالايجاب واستدركت قائلة : اننى وجدت طريقى .

كاتب التراجم في إجازة

يصل المؤلف الى خاتمة كتابه فجأة ودون انذار سابق ، وليس ثمة شك أن هذا أمر غريب ، اذ أن المؤلف يتربص عادة —شهورا أو سنوات— حلول تلك اللحظة ، وقد استبد به القلق . وقد يوقن أنه سيموت قبل أن يفرغ من عمله ، وعند ما يكون موفور الصحة أثناء قيامه بعمله فانه يأبى الاعتراف بهذا القلق . ويشيع هذا الشعور بين الفنانين ، وأعتقد أن علماء النفس قد أطلقوا عليه لفظا معينا . وكان بيتر تشايكوفسكى يعانى هذا القلق ، فكان — قبل قيادته للفرقة التى تعزف موسيقاه — يعتقد أن رأسه سيسقط أثناء العزف ، ولا شك أن هذا موقف بالغ الحرج حقا ، لأن قيادة الفرقة تشغل يدى القائد بحيث لا يستطيع أن يستغنى عن احداهما ليسند بها رأسه .

ولكن على الرغم من ذلك فان هذا اليأس ينطوى على عنصر له قيمته ، فهو يحمل بين كتفيه قوة دافعة . وقد قال كارليل عندما وصل الى منتصف كتابه « الثورة الفرنسية » : « اننى لا أعلق أى أمل على هذا الكتاب ، كل ما أريده هو أن أنفض يدى من هذا اللهب والدخان » . ولا شك أن القلق يزداد حدة واستعارا كلما كان الكتاب طويلا مثل كتب التاريخ أو تراجم السير . وقال توماس فولر الكبير : « ان الكتاب يتضاعف همه عندما أشرف على النهاية » فى الوقت الذى كان يعتذر فيه عن تأخره فى كتابة الجزء الأخير من كتابه الذى يتألف من ثلاثة أجزاء . ولكن مهما يكن من الأمر فى شىء فان ذلك اليوم سيحل . بل انه قد أزف فعلا . ففى منتصف ظهيرة أحد أيام الثلاثاء فرغت من الكتاب وأرسلته بالبريد الى

الناشر . وفرغ مكتبى والرفوف المرصوصة فوقه وأعيدت جميع المجلدات المستعارة من المكتبات العامة .

اننى لا أصدق أننى أصبحت حرة طليقة أنعم بالفراغ ، انتابنى شعور جارف بسعادة غير عادية كذلك الشعور الذى ينتاب الانسان فى فترة النقاهة أو بعد نجاته من حادث خطير . تساءلت عما يجب أن أفعل فى ذلك الوقت وفى تلك المنحة اللذيذة المفاجئة من الساعات ؟ لقد فرضت على نفسى نظاما صارما دام فى الشتاء والصيف على السواء ، طيلة أيام الأسبوع السبعة ، وكان هذا النظام يشغل كل ساعة من وقتى كأننى راهبة متنسكة. لقد عشت وتحركت فى زمن غير الذى نعيش فيه بل فى مكان وفى قرن مختلفين عن المكان والقرن اللذين نعيش فيهما الآن . بعد مضى خمس سنوات على اشتغالى بكتاب « چون آدمز والثورة الامريكية » كان شعورى قويا وجارفا . وبحلول عام ١٩٥٠ أصبحت رحلتى الى الوراء عدة قرون مألوفة وعادية بل كنت استمرىء لذتها ، شغلت نفسى بانعام النظر فى مذكراتى وغمرتنى مشاعر شتى عندما تذكرت الأشياء التى حذفتها من الكتاب وما أضفته اليه . ولقد حذفت كثيرا من المواد الشائقة لضيق المجال . ان كتابة التراجم تتطلب حذف كثير من المواد التى لا يرضى عنها المؤلف والغاء بعض الخطط الخاصة بالبحث كلما ضاق الوقت .

وقد استعنت فى معظم قراءاتى عن آدمز بالمكتبات العامة فى بوسطن وكامبريدج — هذا الى جانب ما قرأت من مكتبات فيلادلفيا . ولقد أحسست باغراء شديد للقيام برحلات أخرى الى مكتبة كلمنت فى آن أربر بولاية ميتشيجان ، ومكتبة نيوبيرى فى شيكاغو ، ومكتبة چون كارتر براون فى برفيدنس برود أيلند . ولم تكن هذه المكتبات تضم مواد

تتعلق بالقرن الثامن عشر فحسب ، بل انها كانت تضم أمناء ذوى كفاية معروفين للدارسين فى كل مكان . كنت أريد الالتقاء بهؤلاء القوم وتبادل أطراف الحديث معهم ، فهم يعرفون الأسماء والأشخاص والأماكن التى أصبحت مألوفة لى . انهم يجيبون على الأنباء المتعلقة بهؤلاء الرجال والنساء الذين ولوا منذ عهد بعيد والذين صاحبتهم يوما فيوما ، أولئك الذين لم أكن أستطيع التحدث اليهم ، لأنه ما من أحد فى هذا العصر شهد هؤلاء الناس أحياء . ولقد بعثت برسالتين الى راندولف آدمز بآن أربر — أثناء تأليفى الكتاب — طالبة الالتقاء به ، والواقع أن كتابه الصغير « أفكار الثورة الأمريكية السياسية » هو أول كتاب أثار اهتمامى بجون آدمز ، فأجاب راندولف مرحبا بهذه المقابلة ولكننى أقلعت عن فكرة زيارة آن أربر لأن آخر موعد نص عليه العقد كان يقترب فى حين كانت المواد التى جمعتها ضخمة ، ولم أكن لأستطيع أن أتعرض لمواد أكثر لأحشدها فى كتابى .

وهكذا حل اليوم الذى فرغت فيه من الكتاب ، وفجأة شعرت بأننى أستطيع أن أذهب الى حيث أشاء ، اننى تحررت ، وكانت النسخة الخطية من الكتاب قد وصلت الى دار النشر فى بوسطن . وعلمت أن نقاد مجلة كتاب الشهر قرروا الاطلاع على النسخة الخطية قبيل الطبع . وكان هذا يؤدى الى تعطيل طبع الكتاب عدة أسابيع أو شهور أظل أثناءها معلقة . من المستحيل أن أبدأ فى أى مشروع جديد أو حتى أن أفكر فيه .. ما أشد هذه الفكرة كراهية الى نفسى .. من أجل هذا اتصلت بالناشر تليفونيا وأبديت له شكوى صاخبة ، وهل يقدر هو هذه المتاعب التى أعانيها وأنا معلقة هكذا ؟ الى متى أضطر الى تحمل هذه الأوضاع المعلقة ؟

أبدى لى الناشر اقتراحا قائلا : لماذا لا تذهبين للاستجمام فى مكان ما ؟

قومى برحلة قصيرة . استقلى الطائرة الى تلك المكتبات التى تتحدثين عنها دائما واطلعى عليها .

اننى لا أميل الى الطيران ، وأعتقد أن جميع الذين يتذوقون القراءة ويحبونها يميلون الى ركوب القطارات لتوافر الهدوء فيها ، ولأنها تبعث فى النفس رغبة الاطلاع . ما ألذ شعورى وأنا جالسة الى جوار النافذة وبيدى كتاب أضعه على ركبتى كلما كلت عيناى ، على حين تتسابق وتتوالى المناظر الريفية أمامى ... تلك المناظر التى لم يعمل الانسان فيها يده ، وذلك الأفق البعيد الذى لم أره من قبل . ولقد أهدتنى احدى صديقاتى حقيبة من القماش الأسود الخشن الملمس وبها أبزيم وعقدة حتى يمكن تعليقها على الكتف . وضعت داخلها أربعة كتب ذات أغلفة سميكة ، كنت قد استعرت كتابين منها من مكتبة احدى الكليات المجاورة وتناولت الآخرين من مكتبتى . ووضعت فى أركان حقيبة الملابس أربعة كتب مغلفة بأغلفة من الورق . ولما لاحظ قرينى هذه الاستعدادات عقب عليها قائلا : « انها اجازة مليئة بالنشاط والعمل . وكنت أحسب أنك قد فرغت من چون آدمز والقرن الثامن عشر . »

قلت له : « أريد أن أتحدث عن چون آدمز . أريد شخصا يتحدث معى عنه » . كنت أشعر بالبهجة وأنا مفعمة بالآمال .. ان عدم الاحتياج الى المواد التاريخية لا يعتبر سببا كافيا لعدم الخروج والاستمتاع بهذه المواد . والآن أستطيع أخيرا أن أقرأ دون أن أمسك قلما . أستطيع أن أنبش بين رفوف المكتبة وأخرج الكتب القديمة وأتصفحها دون أن أنظر الى الفهرس باحثة عن حرف أ . وهو أول حرف من اسم آدمز . كانت مكتبة كليمنت تحتوى على عدد من رسائل رجال الجيش حررت فى نوفاسكوتيا أثناء حصار الفرنسيين فى المنطقة عام ١٧٤٥ ، ولقد اطلعت

على قائمة تلك الرسائل . كان چون آدمز يبلغ من العمر عشر سنوات عندما كان جنود مساشوستس يصوبون مدافعهم على هذه القلعة الشهيرة. لا بد أن أرى هذه الرسائل بين الأشياء الأخرى على الرغم من أننى كنت أعلم أن كتابى ليس به حيز لأضيف اليه شيئا .

كتبت الى راندولف آدمز فى آن أربر والى دكتور لورنس روث فى مكتبة براون ، واتجهت أولا الى برفيدنس برود ايلاند . وكانت مكتبة چون كارتر براون وفقا لتقارير مديريها متخصصة فى «الكتب والمخطوطات الأمريكية حتى عام ١٨٠١ » ترى أية مكتبة تتصل بعملى أكثر من هذه ؟ لقد استمتعت كثيرا بقراءة كتاب دكتور روث الصغير « رف الكتب الأمريكى فى عام ١٧٥٥ » . كان بحثا علميا ينساب عذبا مترقرقا وكأنه أنشودة حلوة . وما أجمل أن يتخيل المؤلف أنه قارىء يعيش فى عام ١٧٥٥ وينتقى الكتب من الرف ويبحثها ! ولقد شاهدت يوما قائمة بالكتب التى ألفها دكتور روث وتحمل أسماء مختلفة من « المعاهدة الهندية فى الأدب » الى « نهاية الجنون بالكتب » ومن هذه الكتب رسمت صورة لورانس روث . فقلت فى نفسى : لا بد أنه شخص طويل ونحيل وذو عينين زرقاوين متأثر بسمات القرن الثامن عشر ، ولا بد أنه سينحنى لى تحية منه عندما أدلف الى مكتبه .. صعدت الدرجات التسع الرمادية اللون التى تؤدى الى المكتبة ثم اجتزت حجرة نظمت فى رفوفها مجلدات أنيقة مكسوة بالجلد ، ثم قدمت الى رجل متوسط الطول ، عريض المنكبين ، صلب العود ، تطل عيناه السوداوان الكبيرتان من خلف منظار ذى اطار معدنى. كانت ابتسامته قصيرة وان كانت تنسم بغلالة من العطف ، وكان يبدو عليه الغموض عندما رحب بى وسألنى عن سبب قدومى لرؤيته .. والواقع أن هذه كانت المرة الأولى التى أدخل فيها مكتبة للبحوث دون أن أضع

خطة سابقة ودون أن يكون لى هدف علمى محدد . لذلك قلت للدكتور روث اننى حضرت لأراه . وكنت صادقة فى ذلك وأبلغته عن اهتمامى بكل ما يعنى باطلاعى عليه .

عندئذ سألنى قائلا : « هــل تريدين أن تعرفى شيئا عن المعــاهدات الهندية مثلا ؟ »

الحقيقة أن المعاهدات الهندية كانت آخر ما يمكن أن يطرأ ببالى ، فلم أر فى حياتى معاهدة هندية ، بل ولم أكن أريد أن أرى أية معــاهدة منها . واتضح لى سريعا أن الدكتور روث كان مشغولا بهــا فى ذلك الوقت . وقبل أن أعرف ذلك كنت أجلس وحدى الى نضد طويل فىحجرة المطالعة الخالية أتصفح المعاهدات الهندية . تركنى الدكتور روث واختفى داخل حجرة صغيرة ، أو بالأوضح صومعة كان يميل الى الجلوس فيها . وقال انه سيعود فى الساعة الأولى لتناول الغداء .

مكثت ساعة أتصفح المعاهدات الهندية ... وقع بصرى على العبارات التالية : « اننا سوف نجدد الروابط بيننا وندعم الوحدة القائمــة حتى لا ننقسم ، بل لنظل أصدقاء واخوة ما ظلت الشمس ترسل ضياءها على الكون . وتأكيدا لذلك نعطيك هذا الحزام المصنوع من الصدف . »

ولقد سلم هذا الحزام وسط صيحات الهنود « يوهاه » . ثم تساءلت فى نفسى عن معنى كلمة « يوهاه » هذه ولكننى وجدت حاشية فى أسفل الصفحة « اليوهاه صيحة عالية تعبير عن الرضا ويتفوهها الهنود جميعــا بنغمة موسيقية معينة » .

فحاولت أن أنطق هذه الكلمة ببطء مرة بصوت مرتفع ومرة بصوت منخفض « يوهاه » ولكننى ... وا أسفاه اذ لا أعرف كيف أنطق الكلمــة وأنغمها ! ليس هناك ما يثير الدهشة فى رغبة الدكتور روث الاطلاع على

هذه الوثائق المطبوعة ذات الحواشى والشروح التوضيحية . اننى شخصيا لم أرغب أبدا أن أفكر فى الهنود الأمريكيين . كما أننى لست معجبة بتصرفنا ازاءهم ، وأفضل أن أقرأ فى أى موضوع آخر غير ذلك الموضوع . اننى أذكر أن چون آدمز لم يكن يروقه التفكير فى الهنود ، فقد رفض ذات مرة العمل فى لجنة هندية . كان يجب على أن أحدد لنفسى هدفا قبل أن ألج باب المكتبة ، ولا شك أن أمناء المكتبات الذين يؤلفون عن المعاهدات الهندية لا يهتمون بالسيدات اللائى يترددن عليهم فى الصباح دون هدف وفى حماسة ، بيد أن أمين المكتبة يختلف عن أمين المتحف ، بل انه حتى اذا انعقدت المشابهة بينهما فانه لا يستطيع أن يهتم بكل علامة من علامات حب الاستطلاع التى يبديها الزوار .

ورأيت على المنضدة بالقرب منى كتيبا صغيرا عنوانه « مكتبة چون كارتر براون » وكان يبدو أن هذا الكتيب يحوى خطاب الدكتور روث الذى ألقاه منذ بضع سنوات بمناسبة مرور مائة عام على انشاء المكتبة . قرأت هذا الكتاب من الصفحة الأولى حتى الصفحة الأخيرة . والواقع أننى لم أعرف أبدا أن خطابا تذكاريا بمناسبة مرور مائة عام سيكون ممتعا الى هذا الحد .. وقد نوه فى هذا الخطاب بشاب يدعى هنرى ستيفنس بدأ فى منتصف القرن التاسع عشر فى مساعدة مستر براون على جمع الكتب التى تضمها المكتبة وأطلق على نفسه اسم « هنرى ستيفنس من فيرمونت » لقد أحببت هذا الشاب لأول وهلة قرأت فيها اسمه . ولقد سافر هنرى ستيفنس الى انجلترا ليبتاع مجموعة من الكتب ثم أضحى تاجرا للكتب واستقر فى لندن . ولكيلا لا يفترق عن أعضاء الطبقة الأرستقراطية فى انجلترا الذين يلحقون بأسمائهم بعض الأحرف اشارة وتنويها بالألقاب أو الأوسمة التى يحملونها ، أضاف هذا الشاب الى

اسمه بعض الأحرف فاشتهر بالاسم الثانى « هنرى ستيفنس »، ص . ج . أ . و . ن . ك . س » وكانت الأحرف الثلاثة الأولى تشير الى الأحرف الأولى من الكلمات الثلاث الآتية : « صبى الجبـل الأخضر » وكانت الأحرف الأربعة الثانية تشير الى « نادى أثينيوم للكرة السوداء » الذى وقع له حادثة فيه !

استغرقت منى قراءة الكتيب نصف ساعة تقريبا ، نهضت بعدها متنقلة بين جنبات قاعة المطالعة متفحصة الرفوف . ثم استقرت عيناى على كتاب « استكشاف غيانا » الذى ألفه والى ، وتناولت الكتاب بعد أن وضعت بطاقة فى المكان الذى كان يشغله وتوجهت الى مقعدى وأخذت أقرأ فيه حتى الساعة الواحدة الى خمس دقائق ثم أعدته الى مكانه ثانية .

اننى لا أستطيـع أن أذكر الآن — بعـد مضى سنوات على زيارتى للمكتبة — كيف كان الغداء ، وماذا أكلنا ، وعم تحدثنا ؟ اننى لا أذكر الا أن الغداء كان مقبولا وأننى كنت مغتبطة لذهابى الى ذلك المكان . ولكننى عرفت أيضا أننى سأكون على استعداد للرد على دكتور راندولف آدمز فى مكتبة كليمنت بميتشيجان لو ســـألنى يوم الثلاثاء القادم عن سبب زيارتى له وعما أريد الاطلاع عليه . سأحمل فى يدى قائمة بأسماء الكتب التى أريدها ، وسوف أعد له شيئا غريبا وصعبا أتحدى به براعته كأمين للمكتبة . فقد يسألنى قائلا : « مسز باون ، علام تريدين أن تطلعى بصفة خاصة » .

مهما كانت اجابتى فلا شك أننى سأستبعد المعاهدات الهندية .

وعندما وصلت الى منزل دكتور آدمز فى آن آربر كان وقرينتـــه فى انتظارى أمام باب المنزل . وابتدرانى بالسؤال عن عنوان كتابى الذى اتخذته عن سيرة حياة چون آدمز وعما اذا كنت سأطلق عليه اسما جذابا .

وعما اذا كان الحافز الذى دفعنى الى تأليفه هو كتاب راندولف الصغير « أفكار الثورة الأمريكيــة السياسية ؟ » فأجبت على السـؤال الأخير بالايجاب قائلة ان هذا البحث الصغير أثار حماستى للكتابة ، فهو بحث علمى خيالى جميل تناول أشياء لم يشر أحد اليها من قبــل وأنه وصف عبقرية جون آدمز وتنبؤاته .

وعندئذ استغرق راندولف آدمز ضاحكا وهو يحدجنى بنظــراته ، حين كنا جلوسا فى بهو المنزل . وعلى الرغم من أنه كان مريضــا فى ذلك الوقت فقد أوحى لى بالحماسة وكانت جميع حركاته سريعة . ومضى يقول: « ليس ثمة ما يدعو الى التخاطب بالألقاب ولتنادينا باسم راندولف » . وسألنى عن حقيبة ملابسى : « هل تركتها بالفندق ؟ » ثم أضــاف قائلا : « عبث » فان لدينا حجرات كثيرة فى منزلنا اذا لم يكن لديك اعتراض على النوم بين كتب الطفولة . كان ابناهما قد شبا ، وترعرعا ، ومضــيا يعملان ... بيد أن توم كان يحتفظ بكتب أيام الطفولة ... كنت قد قررت البقاء هناك يومين وليلتين . ولكن كيف يستطيع أى انسان أن يطلع على مكتبة كليمنت فى يومين وليلتين ؟ لا شك أن فى هــذا انتقاصا لعظمتهــا وانتهاكا لروعتها .

والواقع أننى لم أقض فى حياتى وقتا أبعث على الرضا من الوقت الذى أمضيته هناك ولم أستشعر بالارتياح فى أى مكان آخر مثلما شعرت هناك . كانت كل حجرة من حجرات منزل آدمز عامرة بالكتب ، ومضيت لمــدة عشرين دقيقة ، وبعد أن عدت فتح راندولف حقيبــة كتبى وأخــذ يتلو أسماءها بصوت مرتفع معلقا على محتوياتها ثم ســألنى ألم أجتلب معى سواها ؟ وبعد عشرين دقيقة أخرى كنا فى طريقنا الى المكتبة . ولمــا كنت قد ألفت جو الكآبة الذى يجلل مكتبات الجمعيات التاريخية وأقســام

المراجع بالكليات فقد سألت راندولف عما اذا كانت رهبةالمكانستشملنى.. فقد قيل لى انه قصر للكتب . بل انه هيكل مقدس ! .

فأجاب راندولف : « اننا لا نلج المكتبة أبدا من الباب الرئيسى » . فهل كان هذا ردا على سؤالى ؟ والمعروف أن الأبواب الخلفية متواضعة .. ودلفنا الى الداخل وصعدنا بضع درجات ثم استدرنا الى اليمين ودخلنا حجرة لا يقل طولها عن تسعين قدما ذات سقف مزخرف بالرسوم . انها فى الحق أفخم قاعة مكتبة رأيتها فى حياتى ، وتبعت راندولف الى داخل القاعة . وكانت الأرضية من الخشب الصليد المغطى بطبقة من الشمع . وقد اكتنست ببساط سميك حتى لم أكد أسمع وقع خطاى ، واستدرنا الى اليمين نحو حجرة أنيقة أخرى متوسطة بها نوافذ عالية فى منتصفها نضد كبير ، ورأيت فيها صورة لشخص وقور يرتدى ياقة أنيقة ورباطا للعنق وسيما وجميلا . قال راندولف « هذه أهم حجرة فى الدار ثم اتجه صوب الحائط » وأشار الى الصورة وقال : « هذا هو مؤسس المكتبة وواهبها ... سوف نرى الكتب بعد هنيهة . فى هذه الحجرة يجتمع مجلس ادارة المكتب .. لماذا تلوذين بالصمت ؟ » .

كنت قد توقفت لحظة وأخذت أنعم النظر فى صورة معلقة فوق الباب ثم سألته : « هل هذه صورة توم بين ؟ ترى ما علاقته بهذه الأشياء ؟ » وكنت أشير بيدى الى محتويات الغرفة .

وتطلع راندولف الى أعلى وقال بعبارة موجزة : « ان من دواعى الفخار أن يشرف توم على الحجرة . اننى قد علقت هذه الصورة بنفسى .. ذلك الرجل الثائر . ومن العجيب أن أعضاء مجلس المكتبة لا يعرفونه ! »

اقتادنى راندولف الى مكتبه ، وطلب احضار مجموعة من الخرائط . وليس ثمة ريب أن كاتب التراجم يولع بالاطلاع على الخرائط ، ولم أكن

حتى تلك اللحظة قد رفعت خرائط مساشوستس وليكسنجتون وكونكورد وبوسطن وبرينترى وفيلادلفيا ، كان بعضها حديث العهد وبعضها الآخر منقولا عن خرائط قديمة . وفى تلك اللحظة رأيت أمامى على المكتب خرائط وصورا يعود عهدها الى القرن الثامن عشر من مجموعة هنرى كلينتون الشهيرة التى كان يستخدمها القائد البريطانى فى حملته على أمريكا . وكان بعض هذه الخرائط مطويا ، وغيرها منبسطا. ولو كانت هناك كتب قديمة تصور الماضى وتبعثه حيا من جديد فلا شك أن رسوم الخرائط كانت أشد وقعا وتأثيرا وتوضيحا لأنها وضعت فى ذات المكان الذى تصوره بالحبر الأحمر والحبر الأسود ، كما أنها توضح الشوارع والطرقات بأسمائها القديمة التى لم يكن لها هجاء أبجدى مستقر .

وأسفت أشد الأسف على عدم ترددى على هذا المكان من قبل وساءلت نفسى قائلة : « لماذا لم أحضر الى هنا قبل الآن ؟ ولماذا لم أقض عاما كاملا فى مكتبة كليمنت حينما كنت أكتب عن جون آدمز ؟ » ثم وجهت هذه الأسئلة الى راندولف : « لو فعلت ذلك لما شارف الكتاب نهايته » ثم قال : « ألم يكن هولمز الذى ترجمت حياته هو الذى قال لسكرتيره : يا صديقى . لا بد أن يحين الوقت الذى يرى فيه أنه يجب أن ينتهى فيه الكتاب ؟ »

أعدنا الخرائط الى مكانها وعدنا الى الحجرة ثانية . والواقع أن فخامة البناء وروعته لم تجتذبا انتباهى ، لأن روعة الكتب التى كانت تضمها المكتبة طغت على كل شىء . فقد رأيت بها كتاب «رحلات هالكويت» وكتاب « تاريخ أمريكا » من تأليف دس برى . وكانت المكتبة تضم كتبا ضخمة مغلفة بأغلفة من الجلد مختلفة ألوانها فيها ذوات اللون الذهبى

والقرمزى والبنى . وبينما كان راندولف يحادثنى كنت أقلب صفحات كتاب تاريخ أمريكا ، واسترعى انتباهى صورة فتاة هندية تقف الى جوار نار موقدة وهى تنهش بشهوة بالغة وغبطة ، كتف أحد المستكشفين الاسبانيين فى حين كانت أطراف الرجل متناثرة من حولها . وقال راندولف : « ان الكتاب يفتح عادة على هذه الصفحة » .

ومضيت أقلب صفحات الكتاب فألفيت فيه خطاب كلمبس عام ١٤٩٣ وقد حرر باللغة اللاتينية . ووقع بصرى على عدة قصص ومغامرات مرت بتاريخ أمريكا .

كان تاريخ أمريكا يزخر فى بدايته بالمستكشفين والتجار والمبشرين . فكان من الطبيعى أن يقوم هؤلاء الأشخاص بمغامرات خطيرة قبل أن يظهر چون آدمز لينهض ببلاده ويدفعها الى الأمام . كان لا بد من قدوم الآباء اليسوعيين الذين كانوا يجوبون أرجاء المناطق الجميلة والمجهولة والتى كان يطلق عليها وقتئذ « الأرض المجهولة — من أجل عظمة الله » وعندما تواردت الى ذهنى هذه الذكريات الغريبة أحسست كأن الكلمات تحتبس فى حنجرتى . وكادت تطفر الدموع من عينى ، فأخرجت منديلى لأخفى فيه شهقة عارضة . وعندئذ انحنى راندولف ليلقى نظرة على وقال — وهو بادى السرور : « حسنا ، يبدو أنك الآن فريسة لأزمة عاطفية .. »

والحقيقة أن هذه لم تكن المرة الأولى التى رأيت فيها رسالة دبجها دى برى أو كلمبس . ولكننى لم أطلع على مثل هذه الرسائل فى وقت كان يتحدث فيه الى جوارى شخص بصوت ملائكى . كما بدا لى صوت راندولف .

وما لبث راندولف آدمز أن رحل عن هذا العالم بعد زيارتى له ببضع سنوات . ترى هل يجلس الآن الى جوار أحد رفوف الكتب فى السماء

شارحا للمستمعين اليه من مختلف الطبقات معنى كلمة العالم ورسالته ؟ لو استطاع أحـد من الملائكة أن يتفوق عليـه فى الحـديث فاننى على استعداد للتنازل عن الرهان للملاك المعين أمينا لمكتبة السماء !

لا أستطيع الآن أن أذكر الفترة التى أمضيتها فى آن آربر وفى مكتبة كليمنت ، وعلى أية حال فلقد قادنى راندولف فى صبيحة اليوم الثالث أو الرابع الى الطريق الرئيسى المواجه للمكتبـة والذى تكتنفـه الأشجار المتناثرة ، وصعدنا الدرج الكبير للمكتبة ومررنا بين أعمدتها الضخمة . فرأيت الى جوار الباب نقشا محفورا قرأته بصوت مرتفع هذا نصه :

« يعيش فى دياجير الظـــلام أناس

لا يعلمـــون عن تاريخ بلادهم شيئا »

لم تكن هذه العبارة نظما أو شعرا ، وكان التهكم ينطوى فى معناها ، بيد أنها كانت عبارة صادقة تصور موقفا كنت أحاول أنا وراندولف آدمز تحسينه وتطويره بأساليبنا المتعددة . لشد ما أسعدنى اذ استبان لى اهتمام راندولف بجون آدمز وأنه ألف كتابا عنه . وجـــدت ضـالتى فى ذلك المكان ، فقد مضى راندولف آدمز يحدثنى عن القرن الثامن عشر كما لو كان يعيش فيه بالأمس وانه يعود اليه غدا . ولم أكن بحاجة الى توجيـه بعض الأسئلة الغريبة اليه ، فقد كان هو الذى يسألنى وينتقـل بى من موضوع الى غيره ومن عام الى آخر عبر التاريخ . ولم يكتف بالماضى بل انه قفز الى الحاضر وطفق يستفسر عن كتابى وما اتخذته دار النشر بصدده وعن المرحلة التى بلغها فى ذلك الوقت وطلب الى البقاء فى المكتبة الى أن يصلنى نبأ قبول « نادى الكتاب » أو رفضه لكتابى وربما اضطر الناشر حينئذ الى السماح لى باضافة بعض المواد التى رأيت حذفها نظرا لضيق المجـال ....

وبعد ظهر ذلك اليوم جلست وحدى فى الطابق العلوى من المكتبة حيث يوجد قسم المخطوطات ومضيت أقرأ رسائل الجنود التى كتبت فى نوفاسكوتيا ابان حصار الفرنسيين فى عام ١٧٤٥ . وقد نقلتنى عبارات أولئك الجنود الى ذويهم فى أرض الوطن والتى سطرت على قراطيس من ورق ناعم ، الى تلك الأوقات العصيبة ، والى ذلك الشاطىء الموحش الذى اشتد زمهريره النائى عن قرى مساشوستس ومدنها . والواقع أننى كنت على يقين من أن كتابى عن آدمز كان مسهبا ، ولا حاجة لاضافة أية مقتطفات أخرى اليه بالرغم من اقتراح راندولف ،و لكننى فى الوقت ذاته كان يعز على أن تفوتنى هذه الرسائل ، وبدأت أقتطف بعض فقراتها فى المفكرة التى كنت أحملها فنقلت العبارة التالية « أعلن الحاكم شارلى والأميرال وورن انه يجب علينا البقاء لحين وصول القوات البريطانية ، ولذلك فاننا لن نعود الى ديارنا هذا الشتاء . سيدى ب . س . اننا جميعا على قيد الحياة وفى صحة جيدة ، أطلب اليك أن تذكرنى فى صلواتك . واقتطفت من رسالة القائد الكولونيل فوجهان العبارة التالية : « اننى أعانى مرارة شديدة فى حياتى هنا وأقوم بواجبى مغتبطا فى الوقت الذى أحتقره فيه ! »

كان قسم المخطوطات فى مكتبة كليمنت يتألف من حجرتين يتوافر الضوء فيهما ومجهزتين بأنضاد للكتابة وتليفون ويصل بينهما باب مفتوح. وكان الهدوء يسود الطابق الذى لم يلجه أحد سواى عندما مكثت به ، ولقد أمضيت سحابة اليوم كله فى القراءة والاطلاع وأحسست بالوهن والثقل يتسللان الى عينى . وعندما فرغت من قراءة الرسائل مضيت أفكر فى عنوان لكتابى عن آدمز ، والحقيقة أن الجهد الذى بذلته فى سبيل اختيار اسم للكتاب كان يؤرقنى منذ أن أرسلت النسخة الخطية الى الناشر

فى بوسطن . فقد كانت كتبى الثلاثة السابقة عن حياة عظماء الرجال تحمل عناوين خيالية من ذلك النوع الذى يصفه الناشرون . انه عنوان جذاب مثل « الصديق الحبيب » أو « الفنان الحر » أو « أمريكى من جبل الأوليمبس » بيد أن هذه الأسماء لم تكن توحى للقارىء بأى شىء عن موضوع الكتاب ، بل انها كانت تضلله فى حين كنت أرى أن هذا عمل غير لائق ، وخدعة يقع فيها من يشترى الكتاب . اننى كنت أفضل العناوين الواضحة الواقعية مثل « چون آدمز والثورة الأمريكية » وقد اقترحت هذا الاسم على الناشر ولكنه رفضه ، وقال ان أحدا لن يقرأ كتابا بهذا العنوان وانه عنوان جاف ثقيل لا يجتذب القارىء الى شرائه. كنت مضطرة الى البحث عن عنوان آخر أفضل من العنوان السابق ... عنوان موسيقى جذاب مثير ، يلفت الأنظار ! .

من أجل هذا فتحت الكتاب المقدس ، كما أخذت أقرأ فى « الأمثال » وسفر « الجامعة » عساى أن أجد فيها بغيتى . غير أننى فى هذه المرة لم أستطع العثور فيها على أى عنوان . ان بعض العناوين مثل عنوان كتاب « الأمثال المعروفة » لبار تليت ، ومجموعة خطب المستشار هولمز ، لم تكن جذابة بأية حال من الأحوال . واخترت حوالى اثنى عشر عنوانا لكننى لم أعجب بها جميعا فقد كان بعضها مألوفا والبعض الآخر طويلا .. واستقر بى الرأى أخيرا على تسمية الكتاب « چون الأمريكى » وقد اقتبست هذا العنوان من رسالة كتبها « چون آدمز فى عام ١٧٧٨ لأحد أصدقائه فى مساشوستس . فقال انه اعتاد أن يسمى نفسه بافتخار « چون بول » ولكنه استبدل هذا الاسم وأسمى نفسه « چون الأمريكى » ولم يكن يروقنى كثيرا هذا العنوان فقد كان يبدو لى أنه من الحماقة أن أنشر كتابين يحملان كلمة « أمريكى » الا أن الناشر ذكر لى أنه عنوان رائع ، وطالت

بيننا المناقشات واستقر الرأى أخيرا على تسمية الكتاب « جون الأمريكى » مع الاحتفاظ بالعنوان الأصلى الذى كنت قد اخترته وهو « جون آدمز والثورة الأمريكية » .

جالت كل هذه الأفكار فى ذهنى وأنا جالسة فى الطابق العلوى من مكتبة كليمنت . فكرت فى عنوان « جون الأمريكى » الذى لم أكن أرتاح اليه وبدأت أستعرض مجموعة من العناوين مثل « أمريكى من أوليمبوس » ... « وجون الأمريكى » .. و « الأمريكيون العمالقة » .. و « الجد واللهو » تحدثت الى أمناء مكتبة كليمنت فأظهروا اهتماما متزايدا نحوه مما أشاع فى نفسى الغبطة والمسرة فسألنى راندولف عن السبب فى ترددى على هذا النحو قائلا لى : « لماذا لا يستقر بى الرأى عند عنوان معين يقع عليه اختيارى ؟ وهل أريد أن يملى أحد على العنوان .. وان الناشرين قد وجدوا لتخفيف أعباء الكتاب واراحتهم لا لاثارة المتاعب أمامهم . وتساءلت عن الساعة ... بيد أننى ألفيت أن ساعتى قد توقفت ، وقدرت أن الساعة لا بد أنها الرابعة بعد الظهر ، أى انه قد حان موعد تناول الغداء ، وما من شك فى أن شخصا ما سيصعد الى الطابق الثالث مسرعا لنجدتى ، فنهضت وتطلعت الى ساعة على الحائط . وكانت الساعة الثالثة الا خمس دقائق .

وفى مثل هذا الوقت من النهار يصل نشاط القراء فى المكتبات الى الحد الأدنى ، وحدثت نفسى قائلة : « لا بد أن الساعة فى جهنم ستتوقف عند الثالثة بعد الظهر » ولا بد أن الذى يجلس ليقرأ أحد المخطوطات فى الساعة الثالثة بعد الظهر بطل قوى .. والحقيقة أننى فعلت ذلك مرات عدة ، ولكن هذا لم يحدث الا حينما أكون فى سبيل اعداد كتاب أو حينما تطاردنى أشباح كتاب وتسوقنى الضرورة الى القيام بهذا العمل البطولى .

وحينئذ دق التليفون فى الحجرة المجاورة وتوالت دقاته .. ولم يكن من شأنى أن أجيب غير أننى نهضت وتناولت السماعة فقالت لى عاملة التليفون : « بوسطن مساشوستس تطلب المكالمة لمسز باون » ..

وكان المتحدث هو الناشر . ابتدرنى قائلا ان دار النشر قد قررت اصدار الكتاب فى شهر يولية ، أى بعد ثمانية أشهر .

وأضاف قائلا ان الدار قد غيرت عنوان الكتاب ولم يعجبها عنوان « جون الأمريكى » !

فقلت له متسائلة : « أتقول ان العنوان لم يعجبهم » وسألته عما اذا كان هذا يعنى التنقيب من جديد فى سفر « الجامعة » وفى كتاب بارتليت . فأجابنى الناشر بالنفى قائلا بأن « نادى الكتاب » قد اختار عنوانا للكتاب . وكان صوته فى هذه اللحظة قد تغير ، فسألته عن العنوان الذى تم اختياره .

قال : انهم قد اختاروا « جون آدمز والثورة الأمريكية عنوانا له » .

فقلت له : « وافرحتاه » .

انتابتنى الفرحة فاندفعت نحو السلم ، ثم بلغت القاعة الطويلة بسرعة وتوجهت نحو مكتب أمين المكتبة واقتحمته دون أن أقرع الباب وأبلغته هذا النبأ . حينئذ قفز راندولف من خلف مكتبه وأمسك بيدى ثم احتوانى بين ذراعيه ضاحكا وقد غمرته السعادة والمرح ، وعندما سمع موظفو المكتبة هذه الحركة هرعوا الى داخل الحجرة . والواقع أننى لا أذكر تماما ما حدث بعدئذ ، وان كانت لا تزال صورة راندولف وهو يحيينى ويعانقنى بجوار مكتبه ماثلة أمامى على حين كان موظفو المكتبة يهنئوننى مبتسمين .. ترى أهذه حقيقة أم مجرد حلم ؟

تحية إلى أمناء المكتبات

قلما يبلغ المرء تلك المرحلة من السعادة الغـــامرة التى تسمى بالحب الصادق دون أن يعانى فى سبيل ذلك مشقة وعنتا .

وأستطيع اليوم أن أعلن صادقة أننى على حب بأمناء المكتبـات من أعماق قلبى ، بل انه لتربطنى بكل من يقومون برعاية الكتب والعناية بهـا وشيجة لا انفصام لها من عاطفة مشبوبة .

وفى الحق أننى عندما كنت أدرج فى العقد الثانى من عمرى ، أى فى ذلك الحين الذى كنت منكبة فيه على مطالعة مجلدات الصحف أو البحث بين فهارس الكتب ، كنت أومن أن أمناء المكتبات انمـا وجدوا من أجل هدف واحد وهو منع الناس من المطالعة . من الطبيعى أن يحس القـراء فى شبابهم بالارتباك والخجل فى المكتبات الجامعيـة أو مكتبات المـدن الكبرى ، اذ أن وجـود أكداس من الكتب يبعث فى نفوسهم الحميـة والخوف معا ... وطالب العلم فى سن اليفـاعة يميـل الى قراءة الكتب التمهيدية دون التعمق الشديد اذ أن مثل هذه الكتب سهلة المأخذ ميسرة وهو يجعلها وسيطا بين نفسه وبين تلك الثروات العظيمة .

حاولت فى مستهل حياتى ألا أثير أية متاعب فى وجه أمناء المكتبات ، وكان هذا أول خطأ ارتكبته . فهؤلاء القوم يتعشقون المتاعب ، بل انهم وجدوا من أجلها وصاروا يألفونها ، وغالبا ما يروح أمين المكتبة الناجح هنا وهناك مفتشا عن مكان مجلد غير موضوع فى مكانه الصحيح أو عن كتاب غير مسجل بالفهارس . فهو مرهف الحس الى هذه الأمور التى كلما اشتم رائحتها مضى منطلقا يبحث ويفتش وكأنه فى معركة حامية الوطيس ،

غير أننى لم أكن أدرك هذه الحقيقة ، اذ أننى كثيرا ما غشيت مكتبات البلدية الضخمة وأنا أحمل فى يدى قائمة قد تضم عشرة كتب أو خمسة عشر كتابا ، ولم أكن أقرأ هذه الكتب فى المكتبة بل كنت أستعيرها خارجها وأصحبها الى المنزل للاطلاع عليها ونسخ فقرات كثيرة منها ، وكنت أنعم بقدر من الوقت أستطيع فيه أن أعمل الفكر أثناء الكتابة . لم أكن أتصل تليفونيا بالمكتبات قبل ذهابى اليها لأطلب اعداد الكتب التى أريد استعارتها ، بل آخذ القائمة التى أعدها وأظل أبحث بين فهارس الكتب أتفحص ما أريده منها وأحمل البطاقات الخاصة بها الى مكتب أمينة المكتبة ، فكانت السيدة تنظر الى البطاقات ثم تقول لى : انه لا يمكن استعارة أكثر من كتابين فقط بالخارج ... وعندئذ كانت الكراهية تزحف نحو قلبى الذى كان متفتحا وعلى استعداد لابداء المحبة والود ...

ولقد قال والت هويتمان فى هذا الصدد : « لا تغلقى أبوابك دونى أيتها المكتبات » وكانت هذه الكلمات تبعث الراحة فى نفسى لأنها كانت تشعرنى بأن العظماء طالما لاقوا صنوفا من المتاعب فى المكتبات ، بيد أننى كنت أبدى الاستياء من ذلك وأتساءل : « ترى لماذا تحاك هذه المؤامرات لابعاد الناس عن الكتب ؟ » ثم أجيب قائلة انه ربما كان الخطأ معزوا الى أو كان نتيجة لحاجتى الى تدريب منظم على عمل البحوث . كان هذا هو رأيى قبل أن أجتمع بالأساتذة وقبل أن أحضر اجتماعا للمؤرخين فترة طويلة ، اذ كان يسيطر على ذهنى حتى ذلك الحين وهم" بأن الشخص الذى يحمل درجة الدكتوراه فى التاريخ يلقى أمامه طريقا ممهدا معبدا رحيبا يؤدى به الى لباب الموضوع الذى يبحث فيه .

عندما كنت أضع مؤلفى عن حياة تشايكوفسكى فى عام ١٩٣٨ حدث أن نزل أحد أساتذة الموسيقى البريطانيين ضيفا على أخى ، وهو

البروفيسور دينت ، وكنت معجبة بكتبه التى وضعهـا عن الموسيقيين ، واثقة من أن هذا العالم الشهير يستطيع أن يرشدنى الى كيفيـة البحث ووسائله وان خبرته أتاحت له أسلوبا ساحرا للتفاهم مع الأبناء ، وأنهـا زودته بكلمة السر التى تفتح له أبواب المكتبات الضخمة على مصاريعها . فسألت مستر دينت عن كيفية أدائه فى البحوث التى يقوم بها (الحقيقـة أننى كنت عديمة الخبرة بحيث لم أدرك أن هذا ليس بالسـؤال الذى يوجهه المرء الى العلماء) ولكننى مع ذلك سألته قائلة : هل تدون أسماء الكتب التى تستعين بها فى بطاقات حجمها ٥ بوصات فى ٨ بوصـات ، وكيف تبدأ البحث مثلا ؟

وعندئذ ابتسم مستر دينت وسـألنى : كيف تبدئين ؟ وكيف تقومين بدراستك وبحوثك ؟

فقلت أنا ؟ اننى أغوص فى خضم المكتبات باحثة عن الكتب .. والواقع أننى لم أعرف أن مستر دينت أدلى الى بالرد الوحيـد الذى يجب أن يوجه لمثل سؤالى الا بعد انقضاء ثلاثة وعشرين عاما وبعد أن ألفت خمسة كتب ، فليس هناك طريق قصير ممهد لهذه الرحلة الطويلة المرهقـة من الكتب ... هكذا مضيت فى سبيلى قدما مندفعة نحو المكتبـات متلمسة طريقى بينها أو متسللة منها بعد هزيمتى . اننى لا أعرف ماذا يحدث لطلاب التاريخ الآخرين ... ولكننى كلما رجعت بذاكرتى الى الوراء أحسست أن كل خطوة الى الأمام لم تكن ثمرة النجاح بل كانت ثمرة الاخفاق ، ثمرة الضعة والمهانة اللتين كنت أقاسيهما ، وكان كل هذا يلهب الغضب فى نفسى ويثيره ويزيدنى اصرارا وتهافتا على العثـور على ما كنت أوقن أن الرفوف كانت تحمله ويزيدنى اصرارا على استخدام الكتب بطريقـة أو بأخرى .

ويوما ما أصبت بيأس مرير فى المكتبة العامة بنيويورك . ولم يخفف من وقع هذا الحادث أننى كنت السبب فيه ، اذ توجهت يوما الى القسم السلافى بالمكتبة وقلت لموظف القسم — وهو رجل مثقف — اننى بصدد تأليف كتاب عن حياة تشايكوفسكى ، وسألته عما اذا كان يمكننى أن أقوم بجولة فى القسم وألقى نظرة الى الكتب وعناوينها لا الفهارس . فسألنى الموظف المختص قائلا :

« .... هل تتكلمين الروسية ؟ انك تعرفينها طبعا ؟ وفى الحق أننى فوجئت بهذا السؤال المباغت الذى لم يخطر لى ببال ، فقد كنت أستطيع قراءة العناوين وأتفهمها . ولكننى أجبت على سؤاله بالنفى فى حذر . اننى لم أكن أتكلم الروسية .

عندئذ رفع الموظف كتفيه مستهزئا قائلا : لا تتحدثين الروسية ! وما جدواك من ولوج هذه الحجرة اذن ؟ ما جدوى كتابتك عن حياة بيتر ايليتش تشايكوفسكى ؟

أدرت الى الرجل ظهرى وأشحت عنه ، وانصرفت وقد بلغ بى الاضطراب حدا بعيدا حتى لم أحاول أن أوضح له أن هناك شخصا روسيا يتعاون معى على اخراج هذا الكتاب وأننا نعرف مهمتنا جيدا . واحتجزت تذكرة السفر الى بلدتى فى ولاية فيلادلفيا ومضيت أحدث نفسى فى القطار قائلة ، انه لا بد أن يعنى القوم بتقديم الكتب الى بدلا من أن يعملوا على اختطافها أو الحيلولة بينى وبينها . ومهما يكن من الأمر فقد قررت وقتئذ أن أصفى الحساب بينى وبين هؤلاء السيدات والرجال المكلفين بالعناية بالكتب ، وبينما كان القطار يشق طريقه خلال المنطقة الشمالية من فيلادلفيا طافت بذهنى فكرة كالوميض وقلت لنفسى ، اننى

لم أكن فى حاجة الى دراسة ما بالكتب أو النظم المكتبية ، بل اننى فى حاجة الى دراسة أمناء المكتبات أنفسهم !

ابتعت مفكرة جديدة كبيرة الحجم ، وهذا ما أفعله دائما فى أوقات الضيق ، بل هذا ما يقدم عليه كل طالب علم لأن المفكرة الجديدة توحى بخطط جديدة وجريئة ، وكتبت على غلاف هذه المفكرة العنوان التالى : « أمناء المكتبات والمكتبات » . ثم بدأت بعدئذ فى كتابة قائمة تضم أسماء أمناء المكتبات الذين اشتبكت معهم .

وبعد كل اسم كنت أكتب بعض الصفات الشخصية ذات المغزى ، واستغرقت كتابة هذه القوائم منى عدة سنوات ، وكانت جميعها تتسم بطابع الجد ، وكنت أعتبرها مرجعا عمليا له خطره بالنسبة الى ، ثم ان هذه القوائم أخذت تتضخم بحيث ضاقت بها المفكرة الأولى ، وما زلت محتفظة بها الى اليوم ، وفيما يلى بعض العينات التى لم أغير فيها شيئا سوى حذف اسم واحد من كل منها :

مكتبة الكونجرس :

مستر شو ــ مستر كول يستطيع أن يدلى بأى شىء .. ولكن يجب ألا أنسى رقم الكتاب .

سجلات هارفارد :

مستر لوفيت يلبس نظارة ، هو رجل ذكى ، ومستر ايليكنز فى الطابق السابع . انه لا يستطيع أن يفهم ما أحاول القيام به ولكنه يقدم لى مساعدات نافعة ، قال لى انك لا تريدين كتبا ؟ هل تريدين شيئا ؟ لم يكن هناك داع لأذكر لماذا أريدها .. يكفى أن أعطيه أرقام الكتب التى أريدها.

الطابق الأرضى من مكتبة وايدنر :

مستر ك رجل عجوز خبيث يكره النساء ، يجب أن أبتعد عنه . علىّ

أن أتعرف اسم الرجل القصير الذى يجلس الى المكتب الذى بجوار السلم، انه رجل لطيف .

مكتبة الجمعية التاريخية بمساشوستس :

مسز هيتشكوك سيدة لطيفة تعرف مستر هنرى آدمز . فكلما جاء الى المكتبة تصعد الى لتخبرنى بذلك ، وهى تذكر لى أن من الأفضل ألا يرانى فى الطابق الأرضى الى جوار مذكرات چون آدمز .. وتقول انه ينزع السماعة التى يضعها على أذنه حتى يصعب عليه السمع . وتقول لى : « لا تتحدثى بصوت خفيض ، بل ارفعى عقيرتك عند ما تتحدثين اليه » دونت الملاحظة الأخيرة فى العقد الخامس من هذا القرن ، أى قبل اذاعة مذكرات آدمز التى تشمل معلومات تاريخية عظيمة الأهمية للعلماء .

وكان مستر هنرى آدمز حارسا على المذكرات ولم يكن ليسمح بالاطلاع عليها فى الحجرة الداخلية الا لنفر قليل من نخبة العلماء .

وفى الحقيقة أن الاطلاع على رسوم مستر بارنيس السرية الشهيرة لم يكن على أية حالة أصعب منالا من الاطلاع على هذه المذكرات ، ولقد توجست أن أخفق فى الاطلاع على هذه المذكرات . وكنت على اتصال بمستر آدمز . غير أننى اكتفيت بتوجيه الأسئلة والاستفسارات دون أن أطلب شيئا .

وقد أعددت ثمانية أسئلة واضحة سلمتها فى مكتب مستر آدمز فى شارع « ستيت » . والواقع أن مطلبى من مذكرات آدمز كان متواضعا ، وكانت اسئلتى تتعلق بحياة چون آدمز فى الكلية أى ما بين عامى ١٧٥١ و ١٧٥٥ . والمعروف أن مذكرات آدمز طبعت منذ قرن مضى ووصفها الناشر بأنها مقتطفات تبدأ من عام ١٧٧٥ . وكانت جمعية مساشوستس التاريخية قد طبعت كتبا تحدث فيها آدمز عن امتحانات القبول بجامعة

هارفارد التى كان من بين طلابها ، وكان يبدو لى أنه لا بد أن هناك مواد أخرى فى مكان ما . ومما هو جدير بالذكر أن آدمز كان يهتم كثيرا بالتعليم .

لذلك لا بد أنه تناول الحديث عن أساتذته ومدرسيه ، وكنت أعقد أهمية بالغة على اجتماعى مع حارس هذه المذكرات فى الجمعية التاريخية وكنت أدرك أن هذه هى الفرصة الأخيرة أمامى .

وفى احدى زياراتى لمساشوستس ترددت بانتظام على المكتبة أسبوعا كاملا ، وفى صبيحة أحد الأيام بعثت الىّ مسز هنتشكوك رسالة جاء فيها أن مستر هنرى آدمز قد وصل لتوه الى المكتبة فى طريقه الى المصعد . ويتألف الطابع الثانى من مبنى جمعية مساشوستس التاريخية من حجرات أنيقة متعددة ذات أبواب عالية وأرضية من الرخام ، وكنت أقف على بعد عشر خطوات تقريبا من المصعد عندما خرج منه مستر آدمز . وعندما رآنى بدا فى نظراته الفزع ، فلم يلبث أن انتزع أزرار السماعة من أذنيه ، فكان هذا دافعا لى على التراجع .

بيد أننى تقدمت نحوه ودخلت معه حجرة كانت مفتوحة ومكثت أتحدث اليه نصف ساعة ، وكان لدى مستر آدمز قائمة بأسئلتى فى حين كنت أحمل صورة منها ، وما ان استويت على مقعدى حتى بدأت بصوت عال حتى يسمعنى ، وأخيرا أمسكنى مستر آدمز من مرفقى وقال : « مسز باون ، اننى لا أريد أن أعطل كتابك ولا أريد أن أكون سببا فى تشويه فصول هذا الكتاب كما تقولين ، ولكنك لن تستطيعى الحصول على هذه المعلومات التى لم تطبع أبدا . وأنت تعرفين جيدا أنها لم تطبع من قبل ، بل كيف تعرفين أنها توجد فى مذكرات آدمز ؟! »

قلت لمستر آدمز : « اننى لم أكن أعرف أن المعلومات التى أطلبها فى

المذكرات ، وانني توفرت على دراسة حياة جده دراســة مستفيضة فترة طويلة من الزمن ، وان هذه الدراسة جعلتنى أستنتج أنه يحتمل أن يكون جون آدمز قد تحدث عن هذه الموضوعات فى مذكراته الخاصة » .

وقلت له « ان الاستدلال من صميم عمل كاتب التراجم .. عنــدئذ ارتفعت عقيرة مستر آدمز فى شىء من الضيق وقال : « مسز باون اننى أتمنى ألا تكون عيناى قد وقعتا عليك . »

تركت هذه النغمة اليائسة التى أشاعت فى عبارته أثرا بالغا فى نفسى ، وكان واضحا أن مستر آدمز كان يعانى فى تلك اللحظة من الأسف أشد مما كنت أعانى ، لذلك يئست من اجابته مطلبى ، وافترقنـا على الفور وهبطت السلم الى حجرة الاستراحة وألقيت بنفسى على أحــد المقاعد ، وكانت نبرات صوته لا تزال تتردد أصداؤها فى أذنى . لقد كان جميع من فى الجمعية التاريخية يعلمون عن كتابى وآمالى ورغباتى . وتمنيت فى تلك اللحظة أن أكون شخصا مغمورا لم يسمع عنه أحد . وبينما كنت جالسة شاهدت فتاة تقف أمام مرآة وهى تصفف شعرها ، وتقدمت الفتاة نحوى وقالت : « معذرة يا سيدتى هل تكتبين عن حياة جون آدمز ؟ »

فأجبت الفتاة انها لا بد قد عرفت ذلك فى تلك اللحظة ، بل لا بد أن كل من فى المبنى يعرف ذلك ..

ابتسمت الفتاة ابتسامة مهذبة ، غير أنها أفزعتنى حين قالت : «وما الذى يخشاه السيد العجوز ؟ »

قفلت عائدة الى فيلادلفيا وقد ازداد بى الضـــيق والأسى ، وكنت أحدث نفسى متسائلة : ترى كيف يمكننى أن أنهى هــذا الفصــل دون الحصول على هذه المعلومات ؟ وكان الاضطراب يموج بى ، بل كنت أعانى حالة من اليأس المرير ، ولم أكن لأستطيع أن أمضى فى اتمام الكتاب .

وبعد انقضاء ثلاثة أسابيع ، أى قبل حلول عيد الميلاد ، وصلنى خطاب يحمل ختم بوسطن . وعندما فضضت غلافه ألفيت بداخله رسالة رقيقة من مستر آدمز تضمنت كل ما طلبته منه . كان من الواضح أنه دخل هذه الحجرة المقدسة وعثر على الأوراق التى كنت أنشدها فأخرجها ونسخها سطرا فسطرا . وتساءلت عن ذلك البلسم العجيب الذىألان قناة هذا الرجل . ان ما كنت أعرفه فقط هو أن موجة من الفرح والارتياح قد اشتملتنى ، بل اننى لا أزال أستشعر حتى الآن هذا الفرح وذلك الارتياح بعد مضى نحو عشرة أعوام على ذلك الحادث .

وبعد مرور هذه الأيام العصيبة أخذت الأمور تسير على سننها الرتيب فى المكتبات التى كنت أغشاها . وبالرغم من أننى اطلعت على خمسة آلاف كتاب فقد لازمنى الحياء من أمناء المكتبات بل ربما زاد درجة ولا أعنى بذلك أننى أتضرج بحمرة الخجل فى حضرة أمناء المكتبات واننى ما زلت أذكر ذلك اليوم الذى بدأت الأحوال تتبدل فيه . فقد حدث ذلك فى جمعية بنسلفانيا التاريخية بولاية فيلادلفيا وكنت قد انتهيت من ثلاثة أرباع كتابى عن چون آدمز وكنت فى حاجة الى طائفة من الصور التى تمثل طراز السفن الحربية التى كانت سائدة فى القرن الثامن عشر لأزين بها فصول الكتاب عن المؤتمر القارى .

ولقد قمت ببحوثى المتعلقة بكتابى السابق عن المستشار هولمز فى بوسطن وواشنطن ولم أتردد على جمعية بنسلفانيا التاريخية ولم يكن لى فيها أحد أعرفه وتوجهت الى مبنى الجمعية ودخلتها ثم صعدت الىالمكتبة وسجلت اسمى فى دفتر الزيارات ثم ذهبت الى قسم الفهارس بجوار نافذة.

ولم أكد أنظر الى حرف « أ » فى الفهرس حتى شعرت بشخص يربت على كتفى ثم ناولنى أمين المكتبة قصاصة من الورق مطوية من مكتبه .

وكانت هذه الورقة رسالة قصيرة من ريتشارد نوريس ويليامز مدير المكتبة قال فيها : « مسز باون ، ألا تفضلين الجلوس فى حجرة هادئة بالطابق العلوى ؟ »

احتفظت بهذه الرسالة فوق مكتبى لبضعة أسابيع . فلقد سررت بها على الرغم من أننى لم ألب طلب دكتور ويليامز الرقيق ، لأننى فى الواقع أفضل الحركة الطبيعية التى تسود حجرة الفهارس وصحبة القراء الآخرين ومجاورة الكتب . ولكن فى مكتبات البحوث كان التردد يضايقنى ، ونجم عن هذه الحيرة ، السؤال الذى وجهه الىّ لأول مرة مستر ايليكنز فى الطابق السابع من مكتبة وايدنر ، والذى طالما ردده بعدئذ وهو « انك لا تريدين كتبا ؟ هل تريدين شيئا ؟ » ان هذا السؤال الذى يوجهه أمناء مكتبات البحوث بصيغة النفى يبعث الفتور الى نفسى ويفت فى عضدى .

ولما كان كاتب التراجم دائم البحث عن التفاصيل فانه يعثر على المعلومات التى يحتاج اليها فى أماكن لا يحتمل أن يجد فيها شيئا . ويصدق هذا القول على المكتبات كما يصدق على المقابلات الشخصية ، أو البحوث الخارجية عن طريق المجالس البلدية أو المحلية ، ولنفترض مثلا أن أحد كتاب التراجم يبغى معرفة اسم مالك حانة معينة بفيلادلفيا كان جون آدمز يرتاح بالتردد عليها فى شهر يوليه من عام ١٧٧٥ . قد تكون الاجابة عن هذا السؤال فى مجلد عادى مثل مذكرات منشورة لأحد أبناء أعمامه ، أو فى مذكرات منتشرة فى شوارع فيلادلفيا جمعها أحد المهتمين بالأحداث التافهة فى منتصف القرن التاسع عشر وطبع هذه المذكرات على نفقته الخاصة .

ان مثل هذه المطبوعات قد تبدو غير ذات اعتبار بالنسبة للعلماء الذين يهتمون بالمصادر الأولية أو الخطية ، وهذا ما كنت أدركه تماما .

ولقد صادفنى حادث جعلنى أتحرر كثيرا من مثل هـذه المذكرات ، وكان مسرح هذا الحادث المكتبة الحرة بفيلادلفيا وبدأ فى الطابق الثانى الفسيح عندما توجهت لأحصل على أرقام الكتب التى أريدها ، وكنت أحمل معى قائمة بأسماء الكتب يبلغ عددها ثلاثة عشر وكلها تنوه بأشياء هامة تتصل بموضوعى ، واستطعت الحصول عليها بعد أن أنفقت فى ذلك وقتا طويلا وجهدا فائقا .

لم أكن قد ترددت على هذه المكتبة العامة قبل ذلك اليـوم ، بيد أن مجموعة المراجع العامة كانت كبيرة وكان يبدو أن هـذه المجموعة تضم المجلدات التى أريدها دون ما حاجة الى مجموعات الكتب الأكثر تخصصا.

فوجـدت أرقام الكتب فى البطاقات وذهبت بها الى أمينة المكتبة فى قسم الاستعارة الخارجية فابتدرتنى قائلة : « لا يمكن استعارة أكثر من كتابين فى وقت واحد . »

فخاطبت نفسى قائلة : ترى هل يكفى لغذاء البقرة عودان من البرسيم؟ وتركت الكتب على النضد ومضيت أجول فى أرجاء المكتبة ... ليس من الحكمة أن يكون الانسان الزائر للمكتبات عجولا ، فما لا شك فيه أن التسرع يعرض الباحث للخطر . وهبطت الى الطـابق الأرضى ألتمس المساعدة بعد أن تركت الكتب مكانها فألفيت أمامى بابا كتب عليه « أمين المكتبة المساعد المختص بالبحوث » ولا شك أنه كان عنوانا غريبا جذابا فى مكتبة عامة . وطرقت الباب ودلفت داخل حجرة مربعة كبيرة ووجدت داخلها الأدوات التى يستخدمها العالم وهو يقوم ببحوث مبعثرة هنـا وهنـاك ... معاجم ودوائر معـارف وفهارس كتب نادرة وعناوين كتب ورسائل .. أغلب الظن أنها واردة من أمناء مكاتب آخرين .

فى تلك الساعة كان يقف خلف مكتبه شاب اشتعل رأسه بياضـا ،

وكان منهمكا فى الكتابة وذكرت له اسمى وما صادفنى فى الطابق العلوى . فأمسك بيدى وهزها وقال لى ، اننى أستطيع أن أحصل على كل ما أروم الحصول عليه من المكتبة ، وأخذ منى القائمة وألقى عليها نظرة عاجلة ، ثم قال بصوت مرتفع : « حثالة ! كل ما فى هذه القائمة حثـالة ، اننى أدعى جون باول . ماذا تريدين من هذه الكتب التى تعتبر من كتب الدرجـة الثالثـة ؟ »

كان هذا اللقاء استهلالا لصداقة طويلة . فقد كنت أستعين بهذا الشاب فى الدفاع عن نفسى ، وقد فعلت ذلك وتساءلت قائلة : كيف يجرؤ أمين المكتبة على مهاجمة محتويات كتب لم يقرأها هو نفسه . ان هذه المجلدات تضم رسائل من ابنة جون آدمز الى أمها لم يسبق طبعها ، تقول فى احداها مثلا : « لقد تناولت طعام الغداء فى منزل جنرال نوكس ولم يعـد الجنرال بدينا كما كان . »

وقد كان جون باول نفسه من كتاب التراجم ، وعندما وصلت الكتب من الطابق العلوى تصفحها بعناية وعقّب عليها قائلا انه ما من مادة يمكن أن يتجاهلها كاتب التراجم سواء أكانت أولية أم ثانوية .

لقد قال توماس كارليل فى جرأة ان التاريخ يخفى عنا الكثير وقال : « لو أننا تتبعنا الأحداث منذ قرنين عبر الفجوات الهائلة التى يحدثهـا الموت والدمار فلن يكون من اليسير علينا أن نحيط علما بكل شىء . »

ليس من اليسير أن يعرف الانسان أى شىء على وجه الدقة ، أو على الأقل أى شىء يتوارد اليه من أفواه السامعين من الرواة عبر القرون ، وما أشبه كاتب التراجم بالصحفى الذى يفتش عن الأنباء ، وهو لا يبحث عن المواد التى يمكنه أن يجدها فى الكتب ليملأ بها مؤلفاته ، بل انه يفتش عن الأنباء التى تتصل بحياة الأشخاص الذين يكتب عنهم . وهو يلتقط أنباءه

أحيانا من عناوين الكتب . وما زلت حتى الآن أذكر صباح ذلك اليوم من أيام الصيف الذى رأيت فيه مكتبة أسرة هولمز لأول مرة . والمعروف أن الكتب التى كانت تضمها المكتبة قد آلت ملكيتها الى مكتبة الكونجرس فى واشنطن انتظارا لتنفيذ وصية المستشار هولمز قبل ادراجها فى الفهارس وتنظيمها . فعندما دخلت تلك المكتبة ، قابلنى شاب نشط يعمل بها وصعد معى الى الطابق الأعلى فى مصعد صغير خاص بموظفى المكتبة ، واصطحبنى فى ممر ينتهى بباب مغلق ما لبث أن فتحه ودعانى الى الدخـول فى حجرة ضيقة ذات جدران صنعت من الصلب .

وكانت الكتب الخاصة بثلاثة أجيال من أسرة هولمز مكدسـة فى الحجرة ، بعضها على الرفوف ، وبعضها على الأنضاد أو المقاعد ، وكانت الحجرة تضم نحو ستة آلاف مجلد ، ربما كان نصفها كتبا عن القانون . وكان بالحجرة اطارات للصور مكدسة أيضا ومنتشرة على أرض الغرفة ، وكان بها صندوق خشبى ملىء بالأوانى الخزفية ، وكانت كل قطعة ملفوفة فى ورق رقيق ، ورأيت على النضد الذى الى جوار الباب كومة من كتب المغامرات الرخيصة على أغلفتها صور مثيرة ، فعجبت لوجودها فى ذلك المكان وتساءلت فى نفسى عن الذى جمعها من أفراد الأسرة .

ورأيت بالحجرة مجموعة من الكتب الجميلة المثيرة يعلوها التراب وهى كتب أثيرة لدى أسرة هولمز تحمل اهداءات على الصفحات الأولى منها ، مثل الأهداء التالى مهدى الى أ • و • ه الابن من والديه الحبيبين فى عيد الميلاد عام ١٨٥٩ ، وهناك أيضا شاهدت كتب دكتور هولمز عن الموسيقى التى لا شك فى أنه قد ابتاعها حينما كان يتعلم العزف على الكمان فى عام ١٨٥٠ (وهى فترة عصيبة مرت بها الأسرة . وقد كان دكتور هولمز يعتقد أن العزف على الكمان انما هو مسألة وقت ومرانة) ... ولاحظت النسخة

الألمانية من كتابه المستبد أمام مائدة الافطار .. ما أغرب هذا العنوان الذى يقلب الحقيقة .. ترى ماذا كان شعور دكتور هولمز عندما رأى الكتاب لأول مرة .

ورأيت هناك أيضا كتبا طالما تاقت نفسى اليها ، ككتاب المحاورات المرحة ، وكتاب حب الاستطلاع فى الأدب لأسحق دزرائيلى . ورأيت عددا كبيرا من الكتب اللاتينية تكفى لانشاء مكتبة مدرسية بأكملها ، فخطر لى أنها صادرة عن مدرسة مسترابيبس سارجنت ديكسويل الخاصة التى تلقى فيها العلم أ • وهولمز الابن . ورأيت من هذه الكتب كتابا بعنوان « رسائل الى طبيب ناشىء فى مستهل حياته العملية » من تأليف دكتور چيمس جاكسون ، فخاطبت نفسى قائلة : لا بد أنه جد المستشار هولمز من أمه ، وكان هذا الكتاب مهدى للنطاسى البارع دكتور چون • ك ورن أستاذ الجراحة بجامعة هارفارد . وكان هذا الكتاب يضم فصلا عن المشى أثناء النوم والمغناطيسية الحيوانية والجنون . وفصلا آخر عن السل أوصى فيه المؤلف المريض بممارسة الرياضة فى الهواء الطلق وخاصة ركوب الخيل . وكان الفصل الخاص بسوء الهضم فى صميم الموضوع ، اذ ذكر فيه المؤلف : « أعتقد أن كثيرين من الناس يستفيدون من عصير العنب لذلك فاننى أنصح به . اننى أحب أن أقول الحق حتى وان تكن الحقيقة تبدو قاسية ! » .

قلت فى نفسى ما أحسن هذا الكتاب ونقلت منه العبارة التالية ، وهى لدكتور جاكسون : « عند دخول حجرة المريض يجب على الطبيب أن يكون هادئا ورزينا دون اكتئاب لطيفا دون تكلف . ويجب عليه أن يتخلى عن الرعونة أو الطيش وألا يلفت الأنظار اليه ويجب عليه أن يغادر الحجرة والبشر يعلو وجهه » .

كان أمين المكتبة طيلة ذلك الوقت جالسا فوق صندوق بجوار الباب منتظرا اياى . وتوقفت عن المطالعة وقلت له : ان الشخص يستطيع أن يعرف عن أسرة هولمز فى تلك الحجرة الصغيرة أكثر مما يمكنه أن يعلم من عشرات المقابلات التى يقوم بها مع أصدقاء المستشار وأقاربه . وسألنى الرجل : كم من الزمن يكفينى للاطلاع على ما تحتويه الحجرة ... ؟ فقلت له : طيلة اليوم . فأجابنى قائلا بأنه مضطر لأن يبقى معى اذ أنه غير مصرح للزائرين من القراء بالبقاء وحدهم فى تلك الحجـرة فأعربت له عن أسفى لتعطيله معى . وبعد ذلك أخرجت من حقيبتى أوراقا وعددا من أقلام الرصـاص المسنونة ووضعتها الى جوارى ثم خلعت قبعتى وتخلصت من الحقيبة التى كنت أحملها فوق كتفى وألقيتها جانبا .

كان الموظف يراقبنى طيلة ذلك الوقت : فابتسم وقال بهدوء : « أعتقد أن المكتبة يمكنها أن تتحمل هذه الخسارة » ثم غادر الحجرة .

لم أر هذا الشخص مرة أخرى ، ولكننى كلما تذكرت هذا الشاب أحسست بالجميل الذى أسداه الىّ فقد قادنى الى حيث أريد وأطلعنى على المواد التى كنت أبحث عنها وأعد لى كل شىء ثم مضى الى حاله .

وقد سمعت محاميا شابا يقول : « عندما أذهب الى مكتبة ناجحـة تحدث أمامى أمور كثيرة » لا شك أن هذه العبارة تنطوى على أعظم الثناء وأصدقه الذى يمكن أن يوجه الى أمناء المكتبات . فمنــذ أن بدأت أقرأ فى المكتبات منذ ثلاثين عاما مضت تبدلت الأوقات وتبدلت السياسات ، والجدير بالذكر أن أمناء المكتبات الحديثين يعتقدون أن من صميم عملهم أن يجعلوا الرفوف جذابة فى نظر القراء . وتتوقف سياسة أمين المكتبـة طبعا على مكانه فى المكتبة ، فالعناية الشديدة ضرورية جدا بالنسبة للكتب

النــادرة فى حين أنه من الضرورى أن تكون عناوين الكتب خارجــة عن الأرفف فى المكتبات العامة بالمدن الكبرى .

وان كاتب التراجم يضع أمين المكتبة الواسع الثقــافة ، فى مستوى المؤلف اذ أن أمين المكتبة يكتشف بطريقة فنية بارعة ، خطة الكتاب والى أى حد يريد الكاتب أن يستطلع مراحل التاريخ المختلفــــة وشخصياته الهامة . وقد تشجع مقترحاته على التوسع والتعمق فى معالجة الموضوعات ، فهو يقوم باجراء محادثات تليفونية ويحرر الرسائل فى اللحظات الحرجة لمساعدة المؤلف وكثيرا ما نسمعه وهو يتحدث قائلا :

اننا فى سبيل الحصول على هذه الوثيقة الخطية أو تلك الصورة أو ذلك الخطاب ، لقد كتبنا الى انجلترا مرتين . وتتوقع وصول الرد . اننــا بالتأكيد سوف تتتبع هذا الموضوع . قبل أن أنسى لقد وجدت نسخــة عام ١٦٠٧ من كتاب كاول . فهل تريد أن تأخــذها معك الى المنزل ؟ . أريد أن أقول ان معالجتك لقصة نورديتش قيمة جدا واننا نأمل ألا تيأس وتمضى فى هذا السبيل الى غايته .

ان هذا الاهتمام المستمر ، عن ادراك وخبرة طوال السنوات الخمس أو الست التى تستغرقها فى كتابة ترجمة حياة أحد العظماء ، أشبه مايكون بجرعة الماء للظمآن الصادى ، فأمين المكتبة يتعدى نطاق واجبه ويؤمن بما يؤمن به مؤلف الكتاب ، والدليل على ذلك اندماجه فيه . فقــد يحذف كاتب التراجم قصة هامة نظرا لنقص المعلومات المتعلقة بها بيد أن نشاط أمناء المكتبــات يشحذ عزيمته ويشـــد أزره ، فكثيرا ما يلتقط المؤلف الفصل الناقص بين صفحات الكتاب ويضيف اليه صفحة يكتب عليها مثلا « أمين مكتبة مسترس سيزوّدنى بالمعلومات اللازمة » ويعتمد على ذلك فى كتابة بقية الفصول .

والواقع أننى أعتمد على أمناء المكتبات الى حد كبير ، لأن خطتى فى كتابة تراجم الحياة تتطلب منى أن أقرأ بنفسى جميع المراجع ، وعلى عكس النظام الذى يسير عليه غيرى من المؤلفين ، فاننى لا أكلف الباحثين بالتنقيب فى المكتبات أو الاطلاع نيابة عنى ، فمهما بلغت مهــارة الشخص الذى يساعدنى وخبرته فقد تفلت منه صورة أو اسم أو حادث ثانوى قد يلقى أضواء على الشخصيات التى أدرسها ، لذلك فاننى أفضل القيام بجولاتى بمفردى على الرغم من أن هذا يطيل مهمتى .

وفى الحقيقة اننى قد تعرفت على أمناء مكاتب نصف العالم ، وأعتقــد أنهم كثيرا ما يفتقرون الى من يمتدحهم . وانه لمما يسعدنى أن أقدم لهم عاطر الثناء وأعرب عن تحياتى لهم حيثما وجــدوا وأتمنى لهم التوفيــق والسعادة فى قيامهم بواجبهم .

البحث عن موضوع

لا يقصر كاتب التراجم عملية البحث عن موضـوع بين الكتب على ساعات العمل فحسب ، بل انه أشبه بالعشيق الذى يتوق للجلوس الى عشيقته اليوم بأكمله ، دون أن يطيق الافتراق عنها ، وتسيطر على عقله هذه الفكرة دائما وتلح عليه الحاحا وتسعده وتشقيه فى آن واحد ، دون التفات الى ما يقوم به من الأعمال ، حتى وان كان يشغل وقته بتنسيق الأشجار أو اقتلاع الجذور والحشائش الطفيلية من الحديقة أو فى اعداد الشاى ، أو فى أى عمل آخـر . فكاتب التراجم الذى لا يكون لديه موضوع للكتابة قد يفتقر الى التركيز فيما هو بصدد كتابته ، وهو لا ينى لحظة عن التفكير أبدا ، بل انه ليسعى جهده الى الحركة متوثبا بتفكيره قـدما .

ولقد ألف اسحق دزرائيلى والد دزرائيلى رئيس وزراء بريطانيا فى وقت ما ، عدة كتب عن تراجم حياة العظماء ، من بينها كتاب رائع أطلق عليه اسم « الشخصية الأدبية أو تاريخ العباقرة » . واستهل المؤلف فصلا من كتابه بفقرة يشير فيها الى أحـد الذين كتب عنهم وان كانت هـذه الفقرة تصور غبطة دزرائيلى بعمله الأدبى فقال : « يؤدى الكثير من المزايا الخاصة الى ايجاد عاطفة لها صولتها وخطرها . فهى بالنسبة للعقول المتفوقة ذات نفوذ يجعلها تسود جميع العواطف الأخرى وتزيلها ، فى حين تضعف الميول الضارة التى قد تلازم العقول المتأخرة وتبعث الاستقلال فى نفوسنا ، وقد قال أحد كبار الرياضيين — المقصود علماء الرياضة — . « ان الرياضى لن يكون شقيا لو عاش فى صحراء جرداء . »

ان الدنيا بأسرها لتبدو كالصحراء بالنسبة لكاتب التراجم اذا لم يكن لديه موضوع ولم تكن لديه تلك العاطفة الغلابة ، فهو يستشعر حينئذ بأن عقله قد وهن وأن ميوله تضعضعت ، وهكذا فاننى كلما ألقيت نظرة على كتب التراجم الخمسة التى ألفتها ، كنت أحس بصعوبة بالغة فى اختيارى للبطل بالرغم من أننى بعدئذ كان يخيل الىّ أن الشخصيات التى كتبت عنها قد برزت من اطار التاريخ ، وتقدمت نحوى رافعة يدها الى بالتحية دون أية صعوبة ، بيد أن هذا غير صحيح كله ، اذ أن مذكراتى ورسائلى أثناء الكتابة تسجل كفاحى وشكوكى وجهودى ، فقد كنت أتخير الشخصيات التى أود أن أترجم حياتها وأمضى على هذا النحو ستة أسابيع أو ستة أشهر وأنا مفعمة ثقة وأملا ، ولكنها لا تلبث أن تفترق عنى تاركة اياى وقد تستمر محاولاتى وجهودى عاما كاملا أو أكثر من عام ، أحس بعده بالضغط واليأس ، ولست أعنى بذلك اليأس من الشخصية التى أكتب عنها بل أعنى ادراكى أن هذه الشخصية لم تكن لى .. وأنه ليس هناك علاقة وطيدة بيننا ، ولم تبعث دراستى فى نفسى روح التحيز أو الرغبة القوية فى القيام برحلة تستغرقمنى خمس أو ست سنوات فى صحبة ذلك الرجل وأصحابه . والواقع أن تشايكوفسكى كان الوحيد من بين الشخصيات التى كتبت عن حياتها الذى لم يبرز أمامى من اطار التاريخ أو من قراءاتى للكتب ، فقد لعب الحظ والظروف دورا كبيرا فى ذلك اذ هبطت بربارا فون مك مدينة نيويورك حاملة معها رسائل تشايكوفسكى فأقبلت على قراءتها وأعجبت بها من فورى ، ولما حاولت نشر هذه الرسائل طلب الىّ الناشر التعليق عليها وتبويبها بيد أننى بعد أن أمضيت شهورا عدة فى دراسة تلك الرسائل ، طلبت اليه بدورى أن يتيح لى مهلة أخرى دبجت خلالها ترجمة حياة الموسيقار .

ولعله من المشاهد فى كتاب « ملبورن الصغير » لسيسيل وهــو من أوفر كتب التراجم نجاحا أن المؤلف بذل نصف مجهوده الأدبى فى اختيار الشخصية التى ترجم حياتها .

أن شخصية الكتاب والمؤلف يؤلفان معا وحــدة متكاملة بحيث انه لا يمكن أن ينفصلا بل انهما متشابكان ، كما تتشابك الأصابع العشر ، وقد تطلب الالمام بهذه الحقيقة منى خبرة طويلة ، الا أن هناك شخصيات عاشت حياة مثالية بل ومثيرة ، ومع هذا فانه ليس من المستطاع الكتابة عنها ، اذ أن هذه الشخصيات لم تبرز حياتها فى اطار جــذاب ، وكانت متوارية لا تظهر على مسرح الحياة وان كانت تنهض بأداء أدوار هامة من وراء الكواليس ، تنظر متواضعة ، ولا تحاول قط أن تسفر عن دورها العظيم .. وتدخــل كثيرات من السيدات اللائى روى التــاريخ ذكرهن وأسماءهن فى هذه الفئة ، وعادة ما تقف السيدة الفاضلة بالذات ، بعيدة وراء رجل كانت قد وهبته حبها أو اقترنت به ، أو وراء ابن عظيم قامت هى على تنشئته وتربيته أفضل تربية ، ويمكن أن نضرب بأبيجيــل آدمز مثالا رائعا على ذلك ، ولنفترض أن أحدا حاول الكتابة عنها ، فليس ثمة شك أن قرينها الرئيس چون آدمز أو ابنها الرئيس چون كونيسى ستبرز شخصيته وتغمرها وتطغى عليها ...

وقد يقع اختيار كاتب التراجم على احدى الشخصيات نتيجة لاهتمامه بفئة بذاتها من الناس ، ولقد وقع اختيارى فى كتابىَّ الأولين على شخصيتين من عالم الموسيقى ، ويعود ذلك ببساطة الى ولوعى وشغفى بالموسيقى فى سنى حياتى الباكرة ، وكان للشخصية الموسيقية سحر على نفسى جعلنى أقدم على دراستها . وقد اطلعت على مؤلفات الموسيقيين المعاصرين وطالعت كل شىء استطعت العثور عليه عن النبوغ الفنى ابتداء من دراســـات

سانتايانا الى دراسات جامعة ايوا عن المواهب الموسيقية ، ورتبت دراسات جامعة ايوا التى أجريت منذ خمسة وعشرين عاما ، موهبة الموسيقى ونظمتها وأرجعتها الى خمسة عناصر رئيسية ، مازلت أذكرها حتى الآن ، وهى مهارة الأصابع والشعور بطبقة الصوت والاحساس باللحن والذاكرة الموسيقية وحب الموسيقى ، وليس ثمة شك أن العنصر الأخير يثير الدهشة .. وقد تأثرت كثيرا بهذا التقسيم لأننى بعد دراسة جدية طويلة للعزف على الكمان أدركت أننى لا أتمتع الا بعنصر واحد من بين العناصر الخمسة التى أسلفت تبيانها ، وهو العنصر الأخير الذى أفادنى فعلا .

ولا يفوتنى أن أذكر أن بعض الفئات من الرجال والسيدات يعزفون عن أن يكتب أحد عنهم ويبسط حياتهم ، وهناك شخصيات تبدو كما لو أنها لا تزال غير مستكملة للنضج ، وأعتقد أن وولتر باجيهو هو الذى قال ان الفارس يظل دائما شابا ، وفى الحق أننى لم أكن أستطيع الكتابة عن أى فارس لأننى أحب الشيوخ ، بما يحوطهم من الجلال والهيبة والجد ، ولقد كنت أوثر أن أكتب عن المستشار هولمز وهو فى سن الثمانين أو التسعين .. بل حتى وان اضطررت لضيق المجال الى انهاء قصتى قبل أن يموت البطل بخمسين عاما — كما فعلت فى كتابى « جون آدمز والثورة الامريكية » — فاننى أشعر بأن هذه الشخصية طاعنة فى السن وأنها أينعت ونضجت قبل أن تشيخ . ويسيطر على الاعتقاد بأن شباب الانسان وشخصيته فى مستهل حياته يتأثران كثيرا بما ستكون عليه شيخوخته . ولو أن الشاعر الانجليزى كيتس مثلا — الذى مات فى ريق الشباب وصبوته — عاش حتى الثمانين من عمره فهل كان ذلك سيجعله فى شبابه أكثر تشابها مع وردثورث منه مع كيس ؟ لا شك ان هذه طريقة مقلوبة للتفكير .. لذلك فقد أبدو أنا الوحيدة التى تقول ان كاتب التراجم

يجب أن يضع فى تصوره حياة الشخصيـــة التى يكتب عنها كاملة حتى عندما يكون بصدد كتابة الفصل الأول من الكتاب .

ويتعرض كاتب التراجم للنقد والهجوم اذ يبدو أن ترجمة الحياة من اختصاص كل شخصية . فبالنسبة للقصصى نجد أن عقدةكتابه المنتظر دائما ما تظل سرا خاصا لا يعرفه أحد سواه وكاتب الآلة الكاتبة فحسب ،وليس ثمة شك أن هذه السرية تبعث على الرضا ، لأنها تسمح باستيعاب القصة وصياغتها دون تدخل ما سواء أكان اغراء أم تهجما . ولكن — بالنسبة لى بالذات على الأقل — فانه ما يكاد يعرض كتابى الأخير فى المكتبـــات حتى تنهال على الرسائل مقترحة الشخصيات التى يجب أن أكتب عنها .. فيبدو لى كأن أشخاص الماضى الذين واراهم الثرى ، يهبون من أرماسهم صائحين بمطالبتى بالكتابة عنهم . وانه لما يثير دهشتى وعجبى ذلك العدد الكبير من الأجداد والعمات والأعمام الذين هم فى غمرة النسيان ، والذين يطالبنى بعض الناس بالكتابة عنهم .. وكثيرا ما تصلنى برقيات تقترح علىَّ تحديد يوم معين وساعة معينة للاجتماع بى حتى يمكننى أن أحظى بشرف الاحاطة علما بظروف وحالات تلك الشخصيات التى مضت ... وأحيانا تكون الشخصية المقترحة لم تمت اذ أرى توقيعها على البرقية المرسلةالى.. وعندئذ أضطر الى الرد بالبرق متلمسة الأعذار أو متعـــللة بالسفر الى أماكن بعيدة على الفور . وفى أحيان أخرى تطرق هذه الشخصيات باب منزلى دون أن تذكر اسمها ، وتنتظر على عتبته فى الخلاء .. صائحة بأعلى صوتها !

وثمة مضايقة أخرى من الرسائل الرقيقة التى يبعث بهـــا الناشرون المنافسون (ولشد ما كنت أسعد بها لو أنها وصلتنى قبل هـــذا بعشرين عاما !) وحتى اذا لم يكن ناشرى قد اقترح على فعلا أن أترجم حيـــاة

شخصيــة ما ... فانه يبعث اليَّ باقتراحات كى أكتب عن شخصيــات هامــة مثــل جورج واشنطن أو چون آدمز أو ادنا ميلى أو المستشــار براندیس أو چون مارشال أو روجر تانى أو كلارا شــومان أو القــاضى سيويل الذى حكم باعدام السحرة والعرافين ثم ندم على ما فعل ... بيد أن ناشرى يقظ دائما فهو لا يلبث أن يحادثنى تليفونيا من بوسطن عارضا على اقتراحين يسميهما « فكرتين » ذاكرا لى أنهما فكرتان — جميلتان . ولكننى لا أستمع الى اقتراحيه ...

أجل اننى لا أريد أن أسمع شيئا . وفى الواقع أن اقتراح الشخصيات على كاتب التراجم ذو أثر خطير عليه وخاصة اذا أمليت أو فرضت عليــه هذه الشخصيات أو أغرى بالكتابة عنها ، اذ أن بعض الألوان الأدبية اذا خضعت للاغراء المادى فقدت قيمتها ورواءها ، فلا بد أن يتسم الانتــاج بطابع المصنع الذى صنع فيه ، من أجل هذا فانه عندما نزرع فاكهة ما فى معمل للاختبار ونهيىء لها الدفء اللازم ، فانها تنمو وتنضج ، ولكنهــا لا تتميز بالطعم أو المذاق الذى تنفرد به مثيلاتها ، التى غرست فى الأماكن الملائمة لها . اننى أعتقد ان الكتب التى يضعها أى مؤلف انمــا تتحدث عن المؤلف ذاته بغض النظر عن الشخصية التى يكتب عنها . ولا يستتبع ذلك أن ينطوى الكتاب على أنانية المؤلف ودون اعتبار للون الأدبى الذى يحلو للمؤلف أن يعالج موضوعه به — سواء أكان قصة أو قصيــدة أم ترجمة لحياة أحد العظماء — فان المؤلف ليقوم بأداء عمــله كى يخلص نفسه من شحنة قوية ، ويطلق شبحا يسيطر على نفسه ، ويريد الانطلاق من عقاله ، وعندما أكون فى صحبة الأدباء فانه كثيرا ما يلقى على السؤال : عما اذا كنت بصدد تأليف كتاب .. أو عن الموعد الذى أتوقع فيه «ميلاد» الكتاب .. وليس ثمة شك أن الأدباء لهم مايسوغ أسئلتهم هــذه اذ ان

المؤلف عادة ما يفصل جزءا من نفسه ويودعه كتابه .. فهل يمكن أن يتصور أحد أن كاتبا فكر فى تأليف كتاب « الثورة الفرنسية » غير توماس كارليل واضع هذا الكتاب أو أن أحدا سوى فراود كان يمكن أن يكتب عن « تاريخ عصر الملكة اليزابيث ؟ » ان أسماء الكتب ذاتها تحمل طابع مؤلفيها ، فليس الانتاج الأدبى من صنع آلة ، بل انه — ان صح التعبير الذى تطلقه على المنتجات المصنوعة — من صنع اليد ، ، فالأخطاء التى ينطوى عليها انما ارتكبها الصانع نفسه لا الآلة وهى تنقل رسالته ... وما أشبه الكتب فى عدم انتظامها بالانسان الذى يكون تارة كسولا وتارة أخرى نشيطا ... وهى تتميز بذلك الطابع الذى يصعب على الفنان أن يخلقه أو يزيفه ألا وهو طابع الحياة نفسها .

ويعثر القصصى على بطل قصته خلال تجاربه فى الحياة ، فهو ينظر عبر الماضى ويستقى منه ما يريد ، ولا شك أن كاتب التراجم أيضا يستعين بالماضى فى تصويره وتبيانه للشخصية التى يدرسها . فهل كان يستطيع أى انسان أن يكتب عن السير فرانسيس بيكون لو لم يكن قد عرف الحسد ، أو عن فلورنس نايتنجيل اذا لم تحفزه الرغبة الى القيام بأعمال عظيمة ، أو عن برادست لو لم يشعر أبدا بالخوف والمرض ؟ الا ان كاتب تراجم حياة العظماء الذين خلدهم التاريخ يختلف أمره عن القصصى بأنه لا يستطيع أن يعثر على الشخصية التى يريد الكتابة عنها فى الحياة اليومية.. فهو انما يتعارف اليها ويتصل بها عن طريق الكتب ، وسيرة الحياة أشبه بالتاريخ فهى تنمو وتتطور ويقوم بنيانها على معلومات ثابتة ، أما كاتب التراجم فهو يعيش حياته بين الكتب والمجلدات التى يستمد منها غذاءه . والأوراق هى موطنه فهو يسبح فيها كما تسبح السمكة فى النهر . ولا أقصد بذلك أن موهبة كاتب التراجم مستمدة ، وأنها أقل أصالة وابداعا

من موهبة القصصي .. فانني أشك فى صفة الابداع . فلو كان للفن غرض فانما هو — تفسير الحياة وبعثها من جديد وفى صورة جديدة . وتختلط التجربة بدماء الفنان ثم تتخذ معنى يمكن نقله الى الآخرين . ولا شك أن هذه العملية هامة وصعبة أيضا سواء أكان الحاضر هو الذى يقوم بهذه العملية أم الماضى السحيق .

ولكن لما كانت التراجم التاريخية هى نتاج الاطلاع ، ولا شىء سوى الاطلاع والدرس ، فلا بد من أن ننظـر الى اختيـــار كاتب التراجم للشخصية التى يتناولها على أنه عملية اقرار وليس عملية تصور ، اذ أن هذه الشخصية قد وجدت فى وقت من الأوقات وعاشت بين الناس ، ومن الممكن العثور على ظروف حياتها العملية فى السجلات والرسائل والوصايا والمذكرات والصحف والكتب والأوراق والمذكرات الخاصـــة بطائفة العلماء . وعلى هذا الاعتبـار يجب على كاتب التراجم أن يبذل قصارى جهده فى اختيار الشخصية التى يخلد ذكراها والتى تنفـــذ آثارها عبر الموت ، وتجتاز عصور التاريخ المختلفة . ويبدو أن بعض الرجال والنساء يتغلبون على الموت والبعد الزمنى ، كأنما القرون والأجيال تزيدهم قوة وجاذبية وبريقا .. وهى صفات لا يتمتع بها الأحياء أو الذين فارقوا الحياة حديثا . ومن الأمثلة على ذلك السير وولتر رالى « الذى تبدو شخصيته نابضة حية دائما ، وكأنه يذرع الآن طرقات لندن ، يحوطه عدد من البحارة الممتلئين بالحيوية والنشاط وفى تاريخنا أيضا أمثلة على ذلك منها شخصية « توم بين » محرر النشرات الثورية والذى يؤجج الثورة وتثقل كاهله الديون ذلك الرجل الموهوب الذى كان لا يكف عن اثارة المتاعب فى وجه السادة المحترمين .

هكذا كنت أشعر أثناء اطلاعى على حياة الشخصيات الفذة .. وكأنما

توحي الى أن أكتب عنها فهى ما تلبث أن تهب أمامى من سجلات التاريخ فى قوة واصرار رافضة أن تلوذ بالماضى فى هدوء . انها شخصيات مسلية وجذابة تقوم بمشروعات غير مضمونة النجاح .. ومن العسير مقاومة هذه الشخصيات لأن أحاديثها رزينة محببة وأطوارها جذابة ، وليس ثمة ريب أن الخطيئة تترك أثرا أكبر من صفة البراءة أو الفضيلة التى تتميز بطـابع العنـاد .

ولكن لا بد من المقاومة ، اذ أن سحر الشخصية وجاذبيتها وقوتهـا لا تكفى لعقد أواصر صداقة طويلة الأمد . فلا بد من أن تنشأ علاقة قوية بين كاتب التراجم والشخصية التي يكتب عنهـا — علاقة أشبه بصلة القربى — وعندما يواجه الكاتب الشخصية التى سيكتب عنها حقا يشعر فى الحال بالمتاعب التى ستثيرها هذه العلاقة والأمل الذى يمكن أن يتحقق منها ، لو كان لديه القليل من الحكمة والصبر . يعرف كاتب التراجم حق المعرفة أنه قبل أن ينتهى من كتابه يقوم بعدة اختبارات عسيرة يصوغهـا القدر وهى أشبه بالاختبارات التى يجريها المحب الذى يريد أن يتأكد من أن حبيبته جديرة بحبه قمينة به . وقد يتساءل الكاتب عن حياة الأشرار ، وحياة الشخصيات الجذابة ، هل كانت مثيرة كما تصورها الأساطير ؟ وهل سيصل فى مرحلة من مراحل الكتابة والتأمل تنتهى فيها أعمالهم الشريرة وهل سيضطر الى التعرض لمسائل كان يجب أن يقاومها ؟

اننى لا أعنى بالأشرار أولئك الأشخاص الذين خرجوا عن المألوف فى سلوكهم وعاداتهم خروجا بسيطا أو المتساهلين ، فقد كان تشايكوفسكى فريسة للجنسية المثلية لذلك فانه بعد أن ظهر كتابى « الصديق الحبيب » اعتقدت أن جميع المنحرفين فى ولاية بنسلفانيا تطلعوا الى وكأننى بطـلة أدافع عنهم ، فقد حضروا الى وكشفوا لى عن سرائر نفوسهم الى درجة

لا يمكننى احتمالها ، الا أننى أسارع الى القول بأن تشايكوفسكى كان أولا وقبل كل شىء فنانا لم يترك الحب أو الخوف يحول بينه وبين النجاح فى مجال الفن . فقد سكب تشايكوفسكى مخاوفه وعذابه وشعوره بخيبة الأمل فى فنه بعد أن انتهى زواجه بفضيحة صامتة سببت له عذابا شديدا، وبعد أن انتابه شعور جارف بالخوف والقلق . وسواء اتفقت مقطوعاته السيمفونية مع أمزجة بعض الناس أم لم تتفق معها فانها تتيح لنا صـورة صادقة واضحة عن هذا الموسيقار . ولا شك أن الصراع الذى كان يعتمل فى نفس هذا الرجل قد رفعه الى مرتبة الأبطال . وهكذا كانت العبقرية الموسيقية والجاذبية الشديدة فى شخصيته ، والخوف الذى كان يسيطر عليها ، أسبابا كافية تدفع كاتب التراجم للكتابة عنه .

كتبت عن حياة تشايكوفسكى وروبنشتين وهولمز وجـون آدمز . ودائما ما كانت تمضى فترة وجيزة بين كل كتاب وآخر ، كانت تبلغ نحو أسبوع أو أسبوعين أو شهر وشهرين . ولكن بعد أن ظهر كتابى « جون آدمز والثورة الأمريكية » مضى عـام ونصف عـام دون أن أتمكن من تحديد الشخصية التى يجب أن أكتب عنها ، ولقد حشدت صفحات كثيرة من مفكرتى بعدة شخصيات محبذة بعضها ، مستنكرة غيرها ، وأخـيرا وضعت قائمة تضم أربع شخصيات الواحدة تلو الأخرى ، بل أربعة أبطال وأمام كل علامة استفهام كما يلى :

(كوك) ؟ ميلتون ؟

كروميل ؟ أ . نيوتن ؟

اننى لا أذكر حتى هذه اللحظة لماذا وضعت اسم كوك بين قوسين ، وقد كان كوك مدعيا عاما فى عهد الملكة اليزابيث ثم عين رئيسا للمستشارين فى انجلترا فى عهد الملك جيمس الأول كما كان سياسيا وعضوا فى البرلمان

طيلة حياته ، وظلت مؤلفاته القانونية تضايق طلبة القانون فى انجلترا وأمريكا ثلاثة قرون تقريبا .. وقد قرأت عن لورد كوك أثناء قراءتى عن فترة التمرين على المحاماة التى قضاها جون آدمز والتى درس خلالها مرافعة كوك فى قضية ليتلتاون بوورسستر بولاية مساشوستس مع المدعى العام مستر بوتنام كما وقعت على صورة لكوك فى نسخة جميلة من كتابه الذى نشر بعنوان « القوانين » وكانت الصورة منقولة عن تمثال منحوت فكان يبدو فارعا قوى البنيان ، فى ردائه القضائى ، وكانت لحيته تتدلى الى ما دون شعره المستعار وظل وجهه عالقا بذهنى ، ولم أنس أيضا كلماته وأعماله الجريئة فى عهد الملك العنيد . والحقيقة أن البعد الزمنى بينى وبين هذه الشخصية كان يثير فى نفسى الخوف ، الى جانب اضطرارى الى الخوض فى كتب القانون وتعمقى فى اللغتين اللاتينية والفرنسية ، وبالاضافة الى هذا كله فان اسم كوك لم يكن معروفا فى أمريكا الا لقلة من المحامين مما كان يوحى لى بخطر الأعمال الذى قد يتعرض له الكتاب بعد نشره ، إذ أن الناس لا يميلون الى شراء الكتب التى تتحدث عن شخصيات عتيقة غير مألوفة عندهم .

لم أكن فى ذلك الوقت أطمع فى الخوض فى التاريخ عن طريق القانون ، حقيقة اننى كتبت عن حياة اثنين من رجال القانون أطلق عليهما النقاد « الترجمتان القانونيتان » بيد أننى لم أقصد ألبتة الكتابة عن هولمز وآدمز باعتبارهما من رجال القانون فقد كان ذلك من قبيل المصادفات ، ان الأمر الذى دفعنى الى الكتابة عنهما هو أن حياتهما قد مست ، أو بالأحرى قد غيرت مجرى التاريخ الفكرى والسياسى الأمريكى. وعلى الرغم من أن وضع الدساتير لا يقتصر على رجال القانون فقط فانهم هم الذين يعدون الصيغة النهائية لها ، ويعلل المؤرخون الكتابة عن التاريخ

« بحب الاستطلاع الشديد » وبفضل حب الاستطلاع هذا بالماضى — وباعتباره عاطفة من العواطف التى تبدو علينا — لا ينقطع أبدا بل يظل ينهشنا بنيرانه كالغيرة تماما ، وقد كانت هذه العاطفة تؤرقنى . والحقيقة اننى أدركت بعد دراستى لهولمز وآدمز اللذين كان ينتمى كل منهما الى قرن مختلف عن الآخر — أدركت أن الانسان لن يفهم امريكا ولن يكشف أسس الحكم الدستورى فيها ، الا بعد دراسته لتاريخ انجلترا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ولم أتمكن من الاستمرار فى الرجوع الى الوراء والتنقيب فى عصور التاريخ الماضية ، فلا بد أن يقف بى البحث عند فترة معينة . ولكن هذه الحقيقة تركت أمامى القصة ناقصة ، بل تركت بها ثغرة كان يجب على أن أملأها .

« من ذا الذى يبدأ مرحلة استكشافية وهو يعلم الى أين ينتهى به المطاف ؟ » لم يردد هذا السؤال بحار ، بل ردده دكتور جيسوب الانجليزى ببلدة نورويتش الذى كان قسيسا وناظرا لمدرسة ومؤرخا وقارئا حصيفا مدققا .

التجربة والخطأ

كانت المعضلة التى أمامى هى البحث عن أفضل شخص يمكن أن يقودنى الى الهدف الذى أبغى الوصول اليه . ولم يكن بحثى يدور حول موضوع أقل خطورة من موضوع الالمام بالنوازع الفلسفية التى مهدت لذلك العام الأمريكى المشهود ١٧٨٧ هل يكون رائدى محاميا أو جنديا أو رساما أو معلما ؟ لعل أفضل من يرشدنى هو الشاعر ، وليكن شاعرا عظيما تستوعب مخيلته جميع أوجه الحياة البشرية ، وليكن ممن كانوا عظيمى الاهتمام بالسياسة والتشريع فى بلادهم . ولقد صادفت اسم الشاعر « ميلتون » فى كثير من المرات عندما كنت أكتب « انجلترا الجديدة فى القرن الثامن عشر » . ولم يكن جون آدمز قد بلغ العشرين من عمره أو كاد عندما دوّن فى مفكرته الملاحظة التالية : « يوم الجمعة . قضيته فى قراءة ميلتون . يبدو لى أن روح هذا الانسان قد اتسعت حتى شملت الخلق كله » .

ولقد كتب ميلتون مقالات ذات اتجاه تحررى حول الطلاق وحول حكومة الكنيسة . وسافر الى فلورنس وتحادث مع جاليليو ووقع فى شجار مع الأساقفة الانجليكان نشرت تفاصيله على الملأ ، وكان السبب الوحيد الذى حفظه من الدخول فى جيش البيوريتان هو على حد قوله ، ان ذهنه كان أقوى من بدنه . وألف ميلتون فى « ملكية الملوك والحكام » كما نشر كتيبا ذا طابع جرىء هو « الأريوباجيتيكا » (نسبة الى جبل أريوباجوس حيث كان يعقد فيه الأثينيون محكمتهم العليا) دافع فيه عن حرية الضمير وحرية الصحافة . وكانت انجلترا الجديدة تعد ميلتون من

بين الأبطال الذين أنقذوا بريطانيا مع محكمة ستار التعسفية من آل ستيوارت ولقد وجدت أن «الفردوس المفقود» نال من الذيوع والانتشار فى بوسطن ما ناله الانجيل المقدس . ولقد كتب آدمز ، بعد أن عقدت الانتخابات الداخلية المحلية لعام ١٧٧٥ بزمن وجيز ، من بلدة برينترى يقول : « ان الأوغاد القدامى الفاسدين ويقصد بهم المحافظين فى مساشوستس عادوا الى الحكم من جديد . وعاد هؤلاء كما قال آدمز الى حيلهم وألاعيبهم المألوفة . ومثل الشيطان وكتائبه بعد أن سقط بجنوده من السماء ، أصبح فعل الشر دائما هو متعتهم الوحيدة » . وأضاف جون آدمز قائلا : غير أن هذا الذى اقتبسته قد يبدو « فكهها بعض الشىء ولا يتفق وروح العصر » .

ولم يستمد الآباء الأمريكيون وحيهم من أشعار ميلتون المازحة فحسب بل استمدوها أيضا من نثره . فقد كانت المستعمرات التى ما برحت ترزح تحت عبء الظلم والاستعباد ، تحاول جاهدة أن تكسر قيدها وتأخذ مكانها بين الدول المتحررة ، وبدا كما لو أن الفقرات التى سطرها قلم ميلتون الثائر كتبت من أجلهم : « يخيل الى أنى أرى بذهنى أمة ناشئة فتية تستجمع قواها وتطرد الكرى عن جفون بنيها كما يفعل الرجل القوى حين يصحو من نومه ويهز جدائل شعره التى لا تقهر ، يخيل الى أنها فى صورة نسر يبدل ريشه فى عنفوان شبابه ، ويلهب عينيه النافذتين فى أشعة الشمس الباهرة » .

كم هو المجال متسع أمام كاتب التراجم لكى يقتبس وينقل عن ميلتون . ان أبيات ميلتون قد تطغى على كتابه جميعه . وبالاضافة الى ذلك فقد كان هذا الرجل شجاعا مقداما ، ومن الطيب أن يكتب الانسان عن الرجال الصناديد ، أما عن هذا الرجل فقد كان شجاعا الى درجة قد لا يبلغها خيال

الجنود . عيناه النافذتان .... كنت أفكر فى ذلك الشعور الجارف الذى تنطوى عليه هذه العبارة . هل لغير الكفيف آن يدرك مغزاها ؟ وما عسى العمى أن يكون ؟ وهل يمكن لشخص مبصر أن يدركه ؟ وسرت وعيناى مغلقتان ، محاولة أن أتحمل الظلام ولكن عينى ما لبثتا أن فتحتا ذعرا بعد ثلاثين ثانية فحسب . واذا أراد المرء أن يكتب عن رجل كفيف فان عليه أن يعيش وفكرة العمى متأصلة فى ذهنه . ولقد آلمتنى عيناى بعد أن قضيت خمس سنوات فى القراءة حول آدمز وهما دائما ما تؤلماننى بعد أن انتهى من عمل يستغرق فترة طويلة من الزمن . ولم يكن الوقت مناسبا لأن يطيل المرء فى التأمل والتفكير فيما يعنيه فقد البصر . وتخيلت عن الموضوع ميلتون . ولو أن السبب الذى ذكرته من قبل لا يسوغ أن أتراجع عن الكتابة عن ميلتون فان هنا سببا آخر ، أو على الأصح هى القاعدة التى تقول ان على الكاتب أن يعيش الحياة التى عاشها من يؤرخ له .

وكانت حياة أوليفر كرومويل ، الذى يقع اسمه فى المرتبة الثالثة من قائمتى ، تجتذبنى وتأسر لبى . ويبدو أنه كان على علاقة وطيدة بميلتون. اذ ذكر كارليل الشخصين مقترنين فى فقرة مشهودة ، قال : « انه لمما يحز فى قلوبنا أن نعلم أن السيد چون ميلتون قد كف بصره وهو فى خدمة الحكومة ، وهو يعيش الآن فى « بيروكيج ووك » ، وما زال فى مقدوره القيام ببعض الأعمال اذا دعى الى أدائها ، ولم يفقد ذرة من الأمل أو الرجاء . ويعتقد مستر ميلتون أن حماية سمو السير أوليفر كرومويل له أمر تقضى به الضرورة وتحتمه القوانين السرمدية » .

ولقد كان ميلتون ، شأنه شأن كرومويل ، من الأبطال الذين أسروا لبى فى حداثتى . ولما كنت قد انحدرت عن أم تدين بالبروتستانتية وتتعصب

لها أشد التعصب ، كما أن والدها كان أيضا من الفرنسيين الهيجونوت ، فقد نشأت على النظر الى البابا وكأنه يحمل قرنى الشيطان تحت قبعته . ثم انه ، ألم يكن كرومويل هو مارى جرجس الرومانى بالنسبة لذلك التنين العجوز ؟ ان لفظة أسقف كانت لا تخلو فى نظرة البيوريتان فى انجلترا الجديدة من نذر الشر . والواقع أن كرومويل هو الشخص المطلوب ، لأنه هو الذى أطاح بالأساقفة كما أطاح بالملك تشارلس . وان المرء لا يسعه الا أن يتأثر بكرومويل أعظم التأثير ، فحيوية ذلك الرجل كانت فى قوة العاصفة الهوجاء . لقد دخل التاريخ البريطانى صارما عنيفا عنف النار المطهرة ، وما لبث أن قضى على النظام البيروقراطى وسحقه سحقا ، رغم معارضة ذوى الهمم الخائرة والنفوس الضعيفة ، لقد صرح كرومويل فى مجلس العموم عام ١٦٥٧ فى ازدراء وسخرية « انى أذكر جيدا أننا قضينا فى البرلمان القديم ثلاثة أشهر طوال ، ولم نستطع أن نحرز معنى للفظة « العوائق » . لقد طفق كرومويل يردد على مسامع نواب البرلمان : « لقد كانت مشكلة شائكة ، اذ جاءوه للمرة الثالثة يطلبون اليه أن يكون ملكا». وكانت هذه مشكلة شائكة بالفعل ، فقد حل اجتماع تلك البقية من النواب وأوصد أبواب البرلمان . وسعى اليه من اغتنم لهذا التصرف . هل كان محقا فعلا فى أن يحل البرلمان ؟ ولم يزد أوليفر عن القول : « اننا لم نسمع كلبا واحدا يعوى عليهم اذ رحلوا . وعندما عاد البطل المظفر من أيرلندة ، قوبل فى بريستول باطلاق المدافع تحية لمقدمه . وقال له واحد من رجال البلاط : « كم من الجموع قد جاءت لشهود موكب نصرك ؟! » فرد عليه أوليفر بقوله : « أجل ، ولكن كم تبلغ هذه الجموع عددا وضخامة ، لو كان المشهد مشهد اعدامى ! » .

ان المرء ليشعر بالتهاب عاطفة هذا الرجل ، بل ان تواضعه أيضا

مشبوب بالعاطفة . ربما كان من الغارقين فى خشية الله وهذا هو الواقع ، غير أنه تميز منذ نشـأته بشعور فطرى ، بمكانه الطبيعى فى العـالم . وقد صرح ذات مرة فى البرلمان بقوله : « لقـد كنت نبيلا منـذ ولدت ، لا أعيش على ارتفاع كبير كما لا أعيش منزويا فى السراديب والكهوف » .

انها لعبارة ممتعة بسيطة ... أصدق عبارة يمكن أن أفتتح بها ترجمة لحياته . وكم ستكون سعادتى أن أصف هذا النبيل الذى انحـدر عن هاتنجبتون ، وهو خارج بصحبة صقره وكلب الصيد الى ضفاف نهـر « أوز » ... وانه لمما يشيع الرهبة فى النفس أن نراه وقد زادته الحـرب والظروف التى أحاطت به صلابة وقوة ، حتى أصبح ذلك الطود الشامخ الذى أطلق عليـه النـاس اسم « اليد الفولاذية » . وكم كان هؤلاء القديسون العصاميون يدركون أهدافهم ويشـقون طريقهم اليه فى ثقـة واعتداد يجلان عن الوصف ، ثم انهم بالاضافة الى ذلك قد حلوا من الله محلا قريبا ، وجعلوا لهم به صلة وثيقة ، لقد كانوا يعلمون دائما أن سن القوانين أو ازهاق أرواح العدو ، هو من عمل الله . لقد كتب اللورد القائد بعد احدى المعارك ، يقول : « اننا بعد ثلاث ساعات من القتـال أسرنا ما يقرب من ٥٠٠٠ جندى من جنود العدو ، وليست هذه اليد التى قتلت وأسرت غير يد الله ، واليه وحده يرجع المجد والفخر ، اللذان لا يشاركه فيهما أحد » . وهكذا ذبح شاول الآلاف وأزهق داود عشرات الآلاف ، كل ذلك من أجل مجد الله وحده وتحقيقا لمرضاته .

وما من شك فى أن هذه النعمة التى كانت للبيوريتان ، والتى وجدت طريقها الى القرطاس ، كانت صادقة تصدر عن ايمـان ، فى ذلك العصر . ولكننا اليوم لا نستسيغها بحال ، ولا نرضى بهذا الخلط العجيب بين ماهو ممتع مبهج وما هو محزن مفجع . لقد كتب أوليفر كرومويل وهو فى ذروة

مجده ، الى أحد أصدقائه رسالة يقول فيها : « كم هو جميل أن نلتصق بالمسيح دائما ... ليس هناك ماهو أجدر باهتمامنـــا غير ذلك . ولست أقطع الأمل قط فى أنه له المجد . سوف يجعل فى وسع دودته الفقيرةالبائسة وخادمه الضعيف أن يفعل مشيئته . وانى أرجو فى ذلك ابتهالاتك » .

الدودة البائسة وكيف ذلك ؟ لا ، ليس فى اســتطاعتى أن أكتب عن سير أوليفر كرمويل ، انى أترك حياته ، وقلبى يتقطع أسى . كتب عنــه كارليل يقول : انه رجل غضوب حقود ومن الممتع حقا قراءة ماكتبه كارليل عن كروموبل فلقد كان بين كارليل الذى قام بنشر رسائل كروموبل . وبين كرموبل نفسه صداقة وثيقة تصل الى أغوار النفس وتكشف عن أسرارها. كتب كارليل يقول : « كان كروموبل يشعر دائما بأنه على وشــك أن يموت ، كما كانت تستبد به الخيالات والأوهام كلما مر بصليب المدينة ».

ماذا كان يراه كروموبل من أشباح عندما كان يمر بمفــرده بصليب المدينة وقت الغسق ؟ هل كان يظهر له فى العتمة خيال انســـان معلق به وجهه الذى يعصره الألم والناظر الى الأرض هو وجه أوليفر نفسه وملامحه هى ملامحه ؟ وهل من شخص له بعض الخيال لم يتصــور ذلك مرة فى حياته ؟ ولو أنه كان هنــاك صليب بمدينة . « كريجن باتوك » . فلا بد أن كارليل ، هذا المكتئب الذى انحدر عن أصل دينى اسكتلندى ، قد رأى مثل هذه الخيالات . يقول كارليل ان العظمـــاء جميعهم مصــابون بالسوداء . » ولندع أوليفر يتلمس راحته فى أحــزانه وهمومه الحالكة . أفلیس يعنى هذا القدر من الاكتئاب فى نفسه ، أن لديه نفس القسط من العاطفة والاشفاق ، ونفس الحظ من القدرة على تحقيق انتصارات مقبلة؟ ان حزننا انما هو صورة معكوسة لنبل عاطفتنا . ان عمق قنوطنا وانقباض أنفسنا يدلان على عظم قدرتنا على تحقيق مآربنا وآمالنا » .

وليس فى وسع أى كاتب للتراجم أن يصف كرومويل كما وصفه كارليل ، أو أن يغوص فى أغوار نفسه كما فعل . وما ان مضيت فى قراءة هذه الرسائل ، حتى شعرت بميل لا ارادى الى أن أغض النظر عن الدساتير وأن أغير الموضوع الذى أكتب عنه فأكتب عن كارليل نفسه وان فكاهاته تعد من المواد التى يتوق اليها كاتب التراجم ، فقد كتب فى مذكراته بتاريخ ١٨٣٧ يقول : « ان قوى الهيولة والفوضى متأصلة فى نفسى وفى روحى بالاضافة الى بلاهة ضافية وخور فى الرأى والعزيمة ، وانقباض فى النفس اما عن اليأس المجرد أو الجنون المطبق ، فقد زايلانى تماما كما يبدو لى . »

هل من انسان فى العالم كان على هذا القدر من الاكتئاب ، وكان فى استطاعته أن يصور اكتئابه فى هذه الصورة الجميلة ؟ ان هذا لعجيب حقا ، والأعجب من ذلك أن تتحمل جين كارليل كل هذا العناء . لقد كتب كارليل وهو فى أوج نشاطه وقواه الخلاقة وهو مزمع أن يقضى عطلة الصيف فى استجمام ومتعة يقول : « أجلس فى حالة أشبه بحالة الحزن والابتئاس والاستسلام للقدر ، وأنا أنظر الى العالم الذى اكتسى بالخضرة ، ولا أشعر فى الواقع بأى ميل اليه ، أو لأى شىء فيه » .

وشعرت حينذاك أن ترجمة حياة مثل هذا الرجل انما هى مغامرة لا أمل فى خروجى منها سالمة ، وفعلة وخيمة العواقب ، تقودنى الى مجاهل وفياف لا عهد لى بها . يقول كارليل : انى أشعر بأن فأرة تقرض أحشائى. ولكنه لا يسع المرء أن يشعر بأن رجلا له مثل هذه القوة الخلاقة العجيبة لا يمكن أن يمتد به الاكتئاب الى زمن طويل ، فان مجرد التعبير عن حزنه كما عبر عنه بالصورة السالفة كفيل بأن يذهب عنه هذا الاغتمام ، لأننى أنا كاتبة هذه السطور لا أجد بلسما يشفى جرحى غير اللفظة المعبرة عن ضائقة نفسى .

إن ميلتون وكرومويل وكارليل ، كلها شخصيات سامية ، غير أنها تخرج عن نطاق بحثى ، ان قضية كرومويل قد ماتت ، انتهت ثورته الكبرى الى مجرد تنصيب ملك آخر ممن تلقبوا بتشارلس ، وكان كارليل من رجال الأدب قلبا وقالبا ، ولم يكن هناك ما يربطه بأمريكا أو العالم الجديد غير مذهبه البروتستانتى . ومن حمل قبل هؤلاء الكتاب شعلة الفلسفة التى ورثتها أمريكا ؟ ومن قاد العالم الغربى على أقل تقدير الى مثل هذه السياسة ؟ لا أحسبه جنديا ، بل المرجح أن يكون كاتبا محترفا ، أو مفكرا صناعته التفكير . الى أى مدى يعود كاتب التراجم باحثا فى سجلات التاريخ ... هل يبدأ بديكارت والنفوذ الفكرى الفرنسى الذى دفع لوك وتلامذته الى العمل ، أو الى فترة الانفصال عن القيود المذهبية القديمة وعن سلطة الدين المطلقة ، أو الى بداية تكوين السموات والأرض؟ وقفز الى ذهنى اسم جاليليو ثم كيلر ثم فولتير الذى بسط للبشر قوانين الطبيعة ، واذا كنت أبحث عن همزة الوصل بين العصور الوسطى والعالم الحديث ، فقد يكون اختيارى لترجمة حياة عالم من علماء فترة الانتقال هو الاختيار الأمثل . لقد كان بودى فى السنوات الماضية أن أكتب عن تشارلس داروين . ولكنى كنت كلما عدت الى قراءة « السيرة » التى كتبها عن نفسه وقراءة « رحلة البيجل » (وهو من كلاب الصيد) زاد اعتقادى بأن داروين قد كتب قصة حياته كاملة ، لا تقبل أية اضافة ولا تحتاج الى أية تفاصيل أخرى ، وبدا لى من العبث أن أطارده من جديد بقلمى وفكرى . وهذا العبقرى من عباقرة العلم ان هو الا « نوع » من المعجزات . ومثل هذا الصنف من الرجال ، لا ينشأ وذهنه ما زال جنينا لا يلبث أن يتطور شيئا فشيئا بمضى الزمن ، بل يبدو أن ذهنه يولد مكتملا يسبق زمنه ولا يعرف سنة التطور . حقيقة ان كتاب « أصل الأنواع »

لم ينشر حتى بلغ داروين سن الأربعين . غير أن فكرة هذا الكتاب كانت قد طرأت على ذهنه منذ أمد بعيد . أما عن سير اسحق نيوتن فقد قال عن نفسه أنه عندما كان فى سن الثالثة والعشرين ، كان « فى أوج عمره كمخترع ، وكان يعى الرياضيات والفلسفة بصورة لم تتيسر له فى أى وقت آخر من أوقات حياته » .

ومتى ابتدأ العصر الحديث فى حقيقة الأمر ؟ ما من شك فى أنه ابتدأ بالسير اسحق نيوتن . وتسلسل ورثة العلم واضح لا يحتاج الى تبيان ، فمن كوبرنيكوس الى جاليليو الى نيوتن الى داروين ثم أينشتين . لقد وصفه چون آدمز بقوله « نيوتن الذى ليس له نظير » . والحقيقة أن قد ذهب الأمر الى أن رفع أهل العصر نيوتن الى مرتبة الاله . تغلغل السير اسحق نيوتن فى كل ناحية من نواحى الحياة فى عصره ، وملك زمامه كما لو كان يمسك بالحصاة التى وصفها فى عبارته المفحمة التالية : « لست أدرى كيف سأبدو فى نظر العالم ، ولكننى أبدو لنفسى كما لو كنت صبيا صغيرا يلعب على شاطىء البحر ملهيا نفسه بالبحث من وقت الى آخر عن حصاة أو قوقعة لها ملمس ناعم أو مظهر جميل . هذا على حين أن بحر المعرفة الشاسع يقبع أمامه لغزا غامضا لم تمتد اليه يد مستكشف بعد»

كم هى جميلة بساطة عظماء الرجال وشيوخهم أيضا ، ان رجلا يقول هذه العبارة وهو فى الثمانين من سنه ، لا يمكن بحال أن يبدو فى شبابه غامضا لرجل الشارع أو لشخص غير عليم بالرياضيات مثلى . لقد كنت أقرأ الأعوام والأعوام فى الكتيبات التى ألفت فى الثورة الأمريكية والتى تحدثت عن « قوانين الطبيعة ، وطبيعة الله » . واذا أراد المرء أن يدرك معنى هذه العبارة فليس عليه أن يقف عند زمن فحسب ، عليه أن يتعمق التاريخ شوطا آخر ليرى ما كان يعنيه « الآباء الأمريكيون » والرواد

الأوائل للعالم الجديد ، عندما كانوا يلقون بهذه العبارة فى ثقة بالغة فى بياناتهم السياسية . ان هؤلاء الساسة الذين عاشوا فى القرن الثامن عشر كانوا يفكرون بالطريقة التى أطلقوا عليها فى اعتزاز وفخر عبارة «الرياضة السياسية» . وكانت ترتسم فى مخيلتهم صورة المكون وقد نسق على نظام وترتيب جديدين . وكان الآباء يجدون راحة نفسية كبيرة فى هذه الصورة التى ارتسمت فى مخيلتهم . لقد كان اعتقادهم أن معرفة العالم الطبيعى سوف تطلق الانسان من عقاله وتهبه الحرية . وكان سير فرانسس بيكون قد ألمع الى هذه الحقيقة ، أما السير اسحق نيوتن فقد أشار بأصبعه الى الطريق . ان هذا الكون الذىظل قرونا سرا من أسرار الغيب ، لم يعد بعد كذلك فقد تلمس فيه نيوتن طريقه فى جرأة حاملا شمعته المضيئة الدقيقة وما كشفه فى هذا الطريق قد دل على أن هذا النظام الكونى ليس سرا من الأسرار ، بل ان الأرجح أنه نظام تحدده الطبيعة نفسها ، ولا يثبته سفر التكوين الثانى بل تثبته حركة سقوط حجر أو ريشة أو تفاحة . وفى وسع الانسان أن يكشف بمنشور ثلاثى عن طبيعة الضوء نفسه . وخلاصة القول ان الاعتقاد السائد أصبح يقول بأن الله يؤكد وجوده المنطق والعقل.

قلت للناشرين : « سوف أكتب عن سير اسحاق نيوتن « فهل هم عازمون على ابرام العقد معى ؟ » . وكانت استجاباتهم يحوطها الحذر والحيطة . وسألونى قائلين : « وما عساك فاعلة مع الطبيعة ؟ وما سيكون أمر البصريات والتكامل والتفاضل ؟ ما من شك فى أنك ستجدين عنتا من أمر التكامل والتفاضل هذا . وبدت لى هذه الأسئلة فى غير موضعها . حقيقة اننى وقت أن كنت فى السادسة عشرة من عمرى قد رسبت فى صف الجبر لأن المدرس قال اننى أعطل تقدم بقية التلاميذ . ولكن الحدث كان من أسعد الأحداث التى مرت بى فى حياتى ، فقد قضيت على اليأس

الذى تملكنى فيما يختص بقواى العقلية ، وأتاح لى زيادة الساعات التى أقضيها فى التدريب على العزف على الكمان . أما عن التفاضل والتكامل فان طفولتى التى قضيتها فى ساحة جامعة ليهاى قد حلت هذه المعضلة . فقد كان الطلبة فى هذه الجامعة يقومون بعد أسبوع الامتحانات من كل شتاء باحراق جثة التفاضل والتكامل فى المساء ، فى حفل صاخب عرف باسم حفل حرق التفاضل والتكامل . ولم تكن والدتى ترحب بحضورى هذا الحفل ، فلقد كان هناك طابع واقعى غريب فى تلك المشنقة القائمة المرفوعة على المحرقة ، وتلك الدمية المحشوة قشا تتأرجح فى الفضاء ، والطلبة يرقصون حول اللهب وقد غطوا رؤوسهم . وكان للحفل تأثير كبير على نفسى . وكنت أهرول بعد انتهاء الحفل مسرعة الى البيت ، وأنا على اعتقاد راسخ بأن قد قضى على الرياضيات قضاء مبرما ، وأن أمرها قد انتهى ولم يعد لها أية قوة فى المستقبل على الايذاء .

ولكن الناشرين فى عام ١٩٥٠ ، لم يكونوا يدركون شيئا عن حفل حرق التفاضل والتكامل وما كان زوجى أيضا على علم به ، وقد كان نشاطه متجها الى العلم ، ولم يخف على شعوره بالرضا لأنى قد اخترت أخيرا موضوعا « له قيمة » . وهو يقصد أنه موضوع لا يتصل بمحام أو موسيقى . وأشار زوجى أيضا أنه سيكون سعيدا لو أتيح له أن يعيننى فى دراستى العلمية . قال لى ان من الأفضل أن نبدأ نحن بموضوع انكسار الأشعة ، فانكسار الضوء هو بداية كل شىء . وأخرج وعاء به ماء وغمر سكينا فيه ، وما ان تحركت صورة السكين حتى بدأ يشرح لى انكسار الضوء ولم أشعر بأنى أفهم شيئا ، بل كان شعورى بالضيق شديدا مؤلما. وماذا تعنى لفظة « نحن » هذه بالنسبة لكاتب تراجم ، فقد قال : من الأفضل أن نبدأ «نحن» . ليس هناك جمع فى الموضوع ، انالكاتبة تكتب

مؤلفها بمفردها . كان يحسن بى ألا أكشف عن الموضوع الجـديد أو الشخصية الجديدة التى اخترتها لكتابة ترجمـة لها ، على الأقل كان يجب على أن أكتم الأمر حتى يمر تأليف الكتاب بمرحلته التمهيدية .

وقلت لزوجى ان طريقته فى الحديث معقـدة ، وأحضرت الكتـاب وأخذت أقرأ بصوت مرتفع وصف نيوتن نفسه لمنهج تعليمه فى صبـاه : « فى بداية عام ١٦٦٦ حصلت على منشـور ثلاثى زجاجى لتجربة ظاهرة الألوان المشهورة به » .

هذه هى الطريقة الصحيحة للحديث ، فى وسع أى امرىء أن يفهمها . وبالاضافة الى ذلك ، فليس لدى أية نية لأن أقف طويلا فى هذه الترجمة عند البصريات أو التفاضل والتكامل ، الذى لم يكن يسمى فى عصر نيوتن — كما ذكرت زوجى — بهذا الاسم ، بل كان اسمه « نظـرية الفروق الرياضية » . ولقد درس چون آدمز نظرية الفروق الرياضية وقرأ أيضـا كتاب جرينساند بعنوان « مقدمة لنيوتن » وقد اطلعت على هذا الكتاب . ان هناك طرقا غير مباشرة لأداء كل عمل ، وليس كاتب التراجم بحاجة الى أن ينطح صخرة علم الطبيعة بقرونه الضعيفة . وبالاضافة الى ذلك فقد عقدت النية على ألا أعالج الأمور من الزاوية العلمية للقرن العشرين ، بل من زاوية السحر والخرافات التى كانت سائدة فى القرون الوسطى ،ولعلنى بادئة بالفلك . فقد كان الفلك اذ ذاك أشبه بقصص الجنيـات الزاخرة بالحيات ، والأسود الخضر والشموس الملتهبة والشعر .

وقال لى زوجى فى نبرات جافة : ان الفلك أفضى الى الكيمياء ، لا الى الطبيعة . قلت ان الأمر متوقف على الزمن والمكان اللذين يختارهما الكاتب حين يبدأ موضوعه . ان ما أتصوره فى ذهنى ليس كتابا عن اكتشـافات نيوتن العلمية ، بل حول تأثير نيوتن على التيار الفكرى فى عصره ، وعلى

الفلسفة السياسية السائدة في زمنه . لقد كانت شخصية نيوتن ، من الناحية البيوجرافية ، من أمتع الشخصيات وأجدرها بالتأمل ، ولعله كان أغرب العباقرة فى كل زمن وعصر خاصة وأنه كان يهتم بتواريخ العهد القديم ، كما أن له كتابا بالعنوان « ملاحظات حول دانيال وسفر الرؤيا » . ولقد عثرت على قصص حية ، قد تكون فى الظاهر تافهة ولكنها عظيمة الأهمية بالنسبة لكاتب التراجم . كيف أن نيوتن كان ضئيل الحجم وهو طفل حتى ان أمه قالت انه كان باستطاعتها أن « تضعه فى كوز » وكان ضعيف النشاط الى الحد الذى حدا بامرأتين كانتا قد بعثتا فى شراء دواء مقو الى الاعراب عن دهشتهما لأنهما وجدتا الطفل ما زال على قيد الحياة عند عودتهما .

وقال لى زوجى انه سوف يخرج من المسرح حتى أصل الى موضوع التفاضل والتكامل . وهنا سيهب لمساعدتى ، بعد أن أكون قد جأرت بالشكوى وصحت النجدة ، النجدة . قلت : ليكن ذلك ولكننى تساءلت كم من العظماء كانت طفولتهم مريضة ، ومن ثم دفعوا الى القراءة والتأمل؟ ان القصص الصغيرة التى رويت عن نيوتن ممتعة حقا ، وهى تقربنا من هذا العبقرى الى حد بعيد . ومن حسن الطالع أيضا أن عنوان الكتاب ما لبث أن قفز الى ذهنى « الخطة العظيمة » . وهى عبارة وردت من كتاب ديكارت « حديث الطريقة » . ولم يحدث قط أن عثرت على عنوان لكتاب من كتبى حتى أكون قد فرغت من كتابة المخطوط وسلمته الى الناشرين ، ولعناوين الكتب بالنسبة للمؤلف أهمية بالغة . ان عنوان «الخطة العظيمة» سوف يشمل كل شىء ، ثم انه يتيح لى ميدانا للحديث أرحب وأعظم .

وكنت أتحدث فى شأن نيوتن فى كل مكان ، كنت أوجه الأسئلة وأقبل التحدى كلما تصدى لى ناقد . كنت يائسة ، وكان الخطر يتهددنى أن يثبط الخبراء همتى ، أو يخيفونى عن مواصلة البحث ، على أنه كان

لا بد أن أسعى الى هـؤلاء لأحادثهم وأسـتفيد بخبراتهم . ولكن ذلك التفاضل والتكامل الذى كنا نشعل النار فى دميته كل عام ما لبث أن أخذ يحوم حولى من وقت لآخر . فقال لى عميد كلية سمارثور الذى لم يكن يعلم شيئا عن العلوم التى حصلتها ، انه اذا ما ثبت لدى أن علم الطبيعـة سيعوق بحثى ، ففى وسعى أن أنضم الى فصول المبتدئين فى الطبيعـة بكليتى . وقال ان بوسعه أن يدبر الأمر لى . وشكرت وانصرفت مهرولة ، قائلة : بوسعى أن أتصرف فى الأمر بمفردى .

لقد كتب سير توماس برونى فى مقدمة كتابه « حديقة قبرص » عبارة اعتذار ساحرة . قال انه لم يكن يملك أية حديقة ذات مساحة معقولة ، وانه ما كان ليحاول الكتابة عن حديقة من الحدائق لولا أنه قـد لاحظ « أن الرجال الذين يولدون مكفوفين يحسنون الحديث عن البصر ، وان من لا ذرية له يتحدث بلباقة عن النسل » . قرأت هـذه العبارة فزايلنى الشعور باليأس . وشجعنى أيضا ما قاله روسـو فى الفقـرة الأولى من « العقد الاجتماعى » قال : « اننى أطرق موضـوعى دون أن تتحقق لى أهميته ولسوف أسأل عما اذا كنت أميرا أو مشرعا حتى أكتب عن السياسة. وجوابى هو أنى لست هذا ولا ذاك ، وان هذا هو السبب الذى دعانى الى الكتابة . فلو كنت أميرا أو مشرعا لما كنت قد أضعت وقتى فى الحديث عما يحتاج الى التنفيذ ، فاما أن أنفذه واما أن ألزم الصمت » .

وقلت لنفسى انى لو كنت عالمة من علماء الرياضة لكنت مشغولة الآن فى اعداد بحث عن نظرية الكم أو النظرية النسبية أو مبدأ الوسط المبعد. كما أنى أنتوى أن أكتب كتابا عن الفلسفة الطبيعية ، بل كتابا عن حيـاة عبقـرى .

هكذا كان منطقى ، وهكذا بدأت مغامرتى ورحت وأنا فى عجلة من أمرى وفى موجة من الحماسة أغوص فى الماء ثم أطفو فى ميـاه لا يعرف لها قرار .

١٢

عثرت على الموضوع

تقع مكتبة هنتنجتون فى سان مارينو بكاليفورنيا ، وهى مكتبة شهيرة يعرفها الدارسون فى جميع أنحاء العالم . وللمكتبة حديقة خاصة بعلم النباتات ومعرض فنى يؤمه الناس من كل صوب وحدب . ومقر المكتبة قصر شيد على أحد التلال المرتفعة . وهناك جيش من عمال البساتين يتعهدون النباتات الغريبة التى كتب اسم كل منها على لوحة بخط كبير واضح . وقد توجهت الى هذه المكتبة فى شهر مارس . وكانت أزهار الكاميليا متفتحة نضرة اذ ذاك . وكان بالحديقة ممر طويل تصطف على جانبيه التماثيل الرومانية ، فى صفين الى كل جانب ، وكانت تبدو أشكالا مبتئسة كئيبة لا تألف المكان الذى وضعت فيه بين نبات البوص الهندى وأشجار النخيل .

وكان يبدو لى منذ أول وهلة ان هذا المكان انما هو مكان غريب لا يمكن البحث فيه عن شخص مثل سير اسحاق نيوتن . وقد كنت أقرأ منذ عدة أشهر عن مجموعة مكتبة هنتنجتون الخاصة بالمقالات والكتيبات التى تنتسب الى القرن الثامن عشر ، وكنت فى لوس انجيليس ، ولذا فقد سنحت الفرصة لزيارة هذه المكتبة . وفى طريقى الى الشاطىء تخلفت فى شيكاغو لزيارة مكتبتين أخريين من مكتبات البحث هما نيوبرى وجون كريرار ، لأرى ما تحتويانه وأقرر خطة رحلتى بعد ذلك . وبدا من الصعب أن أقنع أمناء المكتبات بأنى مهتمة بسير نيوتن فليس هناك فى حياتى الماضية ما يدل على أن بى ميلا الى الفلكيين . وأصبحت فى قلق نفسى أشعر معه بأن عدوانا وتحديا سأواجههما فى كل لحظة . بيد أنه لم

يكن فى وسعى أن أستخف بموضوع بحثى أو آخذ الأمر مأخذ الهزل . لقد كنت جادة كل الجد ، حازمة أمرى على بلوغ غايتى ، ولكننى كنت فى قلق بالغ ، ثم انى لم أكن أدرى كيف أبدأ هذه الترجمة لحياة اسحق نيوتن بصورة لا تحملنى من العناء مالا أطيق .

أسرعت بالكتابة الى مكتبة هنتنجتون ، وأبلغتها أنه ليس أمامى سوى أيام ثلاثة وأشرت الى الكتب التى آمل أن أجدها ... مثل الطبعات الأولى من بصريات « نيوتن ومبادئه » . ووددت لو رأيت الصورة التى رسمها بليك لاسحق ، وهو مكب على مثلث ، عار كما ولدته أمه . ووددت أن أرى كتاب ڤولتير « مبادىء فلسفة نيوتن » المهدى الى الماركيزة التى كانت ترعى ڤولتير والتى وصفها بقوله : مينيرفا فرنسا (مينيرفا الهة الحكمة) وايميلى الخالدة ، وتلميذة نيوتن . والحق لقد كانت شهرة نيوتن فى فرنسا عظيمة ، ومما أسرنى أن سيدة ڤولتير هذه كانت من المناديات بالمبادىء الرياضية المروجات لها . ومن بين مجموعة بورتسموت ، أوراق تتعلق بنيوتن ، تتضمن خطابا من والدة نيوتن عندما كان طالبا فى جامعة كمبردج .

وذكرت السيدين أمينى المكتبة مستر تشاد وجودفرى دافيس بكل ذلك عندما استقبلانى بالترحيب عند باب المكتبة . ولكن ماذا عن الأزهار؟ ألا تريدين أن تشاهدى أولا نبات الأوركيد الشهير ؟ ثم معرض اللوحات الزيتية . لوحة الصبى الأزرق ولوحة سير توماس لورنس باسم بنكى ؟ قالوا لى : انه ما من أحد لا يريد أن يرى لوحة بنكى .

قلت لهم : لا ، انى أريد رؤية الكتب فحسب ، واستطردت : « أعتقد أن لديكم أقدم تاريخ لحياة نيوتن بقلم فونتينيل ، نشر عام ١٧٢٨ ؟ (فمن العبث أن تذكر اسم كتاب لأمين المكتبة دون أن تذكر تاريخ النشر .)

وابتسم دافيس قائلا : «أراك تريدين أن تبدئى مكتبة نيوتن من آخرها». ان لدينا كتابا مدرسيا فى المكتبة . ربما تعرفينه ، نشر فى فيلادلفيا عام ١٨٠٨ وعنوانه « النظام النيوتونى » بقلم توم تلسكوب هل تريدين الاطلاع عليه ؟ .

لم يكن هناك شك فى أنى أود الاطلاع عليه ، فقد يكشف لى توم تلسكوب عن كثير مما أغلق على فهمه . ثم انى أريد أيضا ما لديهم فيما يتعلق بمدينة جرانتام فى لنكونشير ، حيث كان نيوتن تلميذا بالمدرسة ، سواء أكان منقولا على أفلام أو مصورا ، أى شىء فى هذا الموضوع يستطيعون تقديمه . وأخبرت أمينى المكتبة بأنى قد اطلعت على قوائم الكتب المودعة فى مكتبتهما قائلة لهما : « ان لدى قائمة بأسماء المؤلفات الخاصة بنيوتن ، هنا فى حقيبتى . »

وفى طريق القاعة توقفت لأبحث فى حقيبتى عن القائمة ، وقد أسندت الحقيبة الى ركبتى . وضحك الأمينان ، وأخذا بذراعى ودفعا بى الى الأمام . قال جودفرى دافيس : « انه من الخطأ أن يغالى المرء فى تحمسه ، غير أن مستر تشاد سوف يصحبك الى الكتب . »

ولمدى ثلاثة أيام قصيرة ممتعة كنت أجلس فى شهر مارس هذا من عام ١٩٥٠ ، أمام نضد فى حجرة الكتب النادرة بمكتبة هنتنجتون ، بينما كان الساعى يحمل الى ما أطلب من كتب ، كان الكتاب الأول الذى اطلعت عليه هو كتاب « البصريات » . وان اطلاع كاتب الترجمة على المخطوط الأصلى أو الطبعات الأولى من الكتب التى نشرها المؤرخ له ، لهو أمر عظيم الأهمية بالنسبة لكاتب الترجمة . لقد اطلعت على هذه الكتب فى بلدى فى وقت متأخر وكانت طبعاتها فاخرة منسقة بصورة تبلغ حد المبالغة . ولم أكن أبحث هنا عما تحويه هذه الكتب ، بل انى كنت أبحث عن

شىء آخر ، وكنت كلما وضع بين يدى كتاب قديم عزيز ، أطيل النظر اليه سعيدة بأنى أجلس بمفردى وأستطيع أن أقضى معه من الوقت ما أشــاء .

وكتاب البصريات يبدأ بصفحة العنوان التى طبعت باللونين الأحمر والأسود . وتاريخها الذى دون بذيلها هو لندن ١٧٠٤ وكان نيوتن اذ ذاك فى الخمسين من عمره . وكتب يقول : « لقد نشرت هنا ما أعتقد أن من اللائق أن أنشره فى الخارج ، ولى أمل فى ألا يترجم الى لغة أخرى دون اذنى ... وليست خطتى أن أشرح خصائص الضوء بالافتراضات بل ان هدفى هو أن أثبت هذه الخصائص بالعقل والتجارب ، وتحقيقــا لهذا الغرض أورد هنا التعريفات والبديهيات التالية » :

ليس الأمر بالافتراض والاعتمــاد على ما قاله الأقدمون ، بل انهــا التجربة التى ستقرر كل شىء . هذه هى العبارة ، فى مجدها وعظمتها ، العبارة التى غيرت وجه العالم . وما من شك فى أنه لم يكن أول من عبر عنها بحال ، ولكنها كانت عظيمة التأثير اذ صدرت منه . ان الاعراض عن الكتب القديمة المعتمدة ورفض الافتراضات التى تسبق التفكير وتتقدم النتائج ، يتطلبان كثيرا من القرون ، كما يتطلبان أيضا شجاعةوبأسا . وكنت أفكر فى تلميذ نيوتن ، جريفساند ، وكتابه الذى قرأه جون آدمز عنــدما كان طالبا فى جامعــة هارفارد ، قال جريفســـاند : « لتلق جانبا بكل الافتراضات المختلفة . فلا سبيل الى معرفة خصائص المادة سلفا ، وعلى ذلك فيتحتم علينــا أن نفحص المادة نفســها . ان من يبنى تفكيره فى علم الطبيعة على الظواهر ، ويتابع هذه الطريقة حتى يبلغ قصده . هو وحده الذى يسعى الى اقتفاء أثر سير اسحق نيوتن ، أما هــذا الذى يتبع فكرة أى شخص آخر دون تجربة فهو غريب عن منهج السير اسحق نيوتن » .

وكانت لدى مكتبة هنتنجتون النسخة الأولى من مؤلف جريفساند ،

وكانت الأشكال الهندسية واضحة بها كما لو كانت قد رسمت بالأمس ، وقلبت صفحاته ونقلت اقتباساتى فى حروف تاجية وانتهيت منه . أما عن كتاب فولتير بعنوان : « مبادىء فلسفة نيوتن » فقد وقعت فى حبه من النظرة الأولى . وكانت بصفحة العنوان صورة رسمت بلونين فى دقة بالغة، تمثل فولتير جالسا الى مكتبه ، يرتدى اللباس الرومانى القديم المؤلف من التوجا وهى كالعباءة تثبت بدبوس عند الكتف والصندل ... يتوج رأسه اكليل من الغار . ويرى فى الفضاء المحيط حوله ، نيوتن حاملا الكرة الأرضية ، وسيدة قريبة منه تحمل مرآة لينظر فيها وتحيطها الملائكة . وما من شك فى أن هذه السيدة ايميلى صاحبة ڤولتير ، « وتلميذة نيوتن والحقيقة » . وكانت هناك قصيدة عصماء طويلة كتبت على النمط السائد فى القرن الثامن عشر ، تصف خلال السيدة الحميدة وخلال نيوتن أيضا . كم تبدو هذه القصيدة رشيقة وكم هى تحمل الطابع الفرنسى الخالص !

لقد كان يكتنفها ضرب من السحر ، كما كان هذا السحر أيضا يحوط كل هذه الكتب والكتيبات التى تشمل تعليقات وتفسيرات كتبت بيد معاصرين لنيوتن . لقد جددت هذه الكتب من سيرة اسحق نيوتن ، وكشفت عن عالم أصابه الذهول والعجب من النظريات التى خرج بها . لقد دهش العالم فى وقتنا الحاضر وفى هذه السنة ١٩٥٠ وفى الوقت الذى كنت أقرأ فيه عن نيوتن ، دهش منذ فترة غير طويلة من نظرية النسبية التى وضعها أينشتين . لقد نشرت معادلة أينشتين منذ أشهر قلائل ، وقبل أن أرحل الى كاليفورنيا ، فى الصفحة الأولى من صحيفة نيويورك تايمز فى صبيحة يوم مشهور وكانت أشبه بتعاويذ ساحر . وراح الناس يتناقلون أحرفها التى لم تكن تزيد عن الثلاثة . ويسائل بعضهم بعضا قائلين : «هل تفهمها ، هل تفهم معناها ، انها سوف تغير كل شىء ؟ »

وكان فى مفكرتى وأنا جالسة فى مكتبة هنتنجتون قصيدة ساحرة كنت قد نقلتها من قبل من مصدر لا أذكره ، نظمت هذه القصيدة قبل عهد نيوتن بزمن طويل ، كتبت على وجه التحديد عام ١٥٧٠ أى عندما كان عامة الناس ما زالوا يتصارعون من أجل قبول الفكرة الغريبة المقلقة التى تقول بأن الأرض التى نعيش عليها كروية الشكل وأنها تتحرك . ويبدو أن ناظم هذه القصيدة قد فكر فى هذه المسألة ، ولكنه رأى وهو الشاعر المطبوع أنه ليس من شأنه الا أن يرى ما اذا كان مثل هذا الاستكشاف قد جلب على البشر السعادة أو الشقاء ، فكتب يقول :

ان الأرض تقف ساكنة الى الأبد

لا يتحرك صخرها أو تهتز جبالها

(هذا برغم أن بعض المتفكهين الظرفاء من أهل العلم يقولون ان السماء ثابتة وان الأرض هى التى تتحرك فى سرعة تحت أقدامهم) .

ولكنه برغم أن الأرض تبدو ساكنة دائما

فان الرقص قد كان يدور منذ الأزل فوق صدرها الرحب .

أما توم تلسكوب فقد أثبت عندما جاء دور كتابه أنه بدوره رجل خفيف الظل . فعنوان الكتاب كان يجرى على النحو التالى : « النظام النيوتونى للفلسفة ، مشروع بوسائل مألوفة ، وبطريقة مسلية ، وضع خصيصا للفتيات والفتيان من النبلاء ، بقلم توم تلسكوب » . وأمام الصفحة الثامنة بعد الخمسين ، رأيت يدا صغيرة قد قصت صورة كتبت تحتها هذه العبارة : « مستر بلانشارد ومستر جفرييس فى منطادهما ، الذى عبر بحر المانش من دوفر الى فرنسا » .

وفى الفصل الذى يتحدث عن « المادة والحركة فى الكون » ترى صورة بركان فيزوف وهو ينفث حممه فى سخاء ، أما عن نظرية المرآة فقد شرحت

بطريقة الصور ، فيرى فى احداها طفل يقول : « هذا أبى وهذه أمى وهذه مربيتى » وهو ينظر الى مرآة . أما « مرونة الهواء » فقد شرحت عن طريق سرد قصة السيد كورتيس الذى سقط فى النهر ، وأنقذه أحد الفرسان الذى كان مارا بالمنطقة ، وأعاد اليه وعيه بأن نفخ الهواء فى رئتيه .

لقد كان كتابا واضحا محببا الى النفس ، والحقيقة أننى لو درست على هذا النحو المعقول فى بداية حياتى ، لماكنت قد لقيت تلك الكوارث الرياضية التى نزلت بى وأنا فى سن السادسة عشرة . وما ان انتهيت من توم تلسكوب ومن ڤولتير ، حتى أظلم الطريق أمامى . فما ان أخرجت أول كتاب من كومة الكتب التى طلبتها حتى أدركت أن التعليقات المتأخرة لن تكون فى مثل ما كان عليه كتاب ڤولتير وكتاب توم تلسكوب من طرافة . وقبل أن أعالج قراءتها ، بعثت فى طلب الطبعات الأولى من دراسات نيوتن الانجيلية ، وهى « تواريخ الممالك القديمة معدلة » « ملاحظات عن نبوءات دانيال ورؤيا يوحنا اللاهوتى » .وكان هذان الكتابان مجلدين أجمل تجليد ومطبوعين على نحو آية فى الأناقة ، ساحرين فى كل شىء ماعدا المادة التى يحويانها . كيف حدث أن كتب نيوتن مثل هذين الكتابين — وهو العبقرى الذى نصح العالم بألا يؤمن بما يقال له بل أن « يثبت كل شىء بالعقل والتجربة » ؟ ومن الواضح أن القرن الثامن عشر توصل الى أن يمتد بلفظة « عقل » بحيث شملت مناحى كثيرة . لقد بدأ نيوتن كتابه قائلا : « وعندما أقام منسى تمثالا منحوتا فى هيكل الرب . » لقد كانت مثل هذه الكتابة فى نظر أبناء القرن العشرين محض هذر وهراء ، ولكنه مما يدعو الى الدهشة أن شخصا كنيوتن هو الذى كتب مثل هذا اللغو . هل هناك مثل هذه الثغرات العقلية وذلك الجفاف الذهنى وتلك الخرائب التى ينعق عليها البوم والقبور التى تنهش فيها الذئاب والغربان جثث الخزعبلات ،

فى مخيلته جميع العباقرة ؟ وهل تحول نيوتن بذهنه بهذه الصورة الشاذة الى تآريخه الانجيلية لأنه قد ضاق بالقائلين بأنه ملحد وأنه خطر يتهدد الدين القويم ؟ كان هذا الرجل يجلس يوميا فى شارع جرمين ، حيث تقوم ابنة أخته اللطيفة على خدمته ، يباشر عمله اليومى فى دار سك النقود الملكية ، وينفق أمسياته فى تقدير أبعاد فلك نوح ... أيعقل أن هذا هو الرجل الذى غير من قاعدة التفكير فى العالم ، قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ؟

هل من الممكن أن يكتب انسان ترجمة لحياة هذا الرجل ؟ ان قصة حياته سوف تفيض بالألغاز المحيرة والنقاط الغامضة المبهمة ، ولسوف تنتهى هذه القصة بعلامة استفهام كبيرة . واتجهت الى المعقبين المحدثين على حياة نيوتن لعلى أجد لديهم الحل . واجتذبنى كتيب بذاته . كان عبارة عن محاضرة ألقاها أحد الروس الماركسيين فى المؤتمر العام سنة ١٩٣١ . وكان عنوانها هو « الجذور الاجتماعية والاقتصادية لنظريات نيوتن » ، وهى بهذا العنوان قد بزت كتاب نيوتن عن « ملاحظات عن رؤيا يوحنا اللاهوتى » فى خياله الخصب . كتب مؤلف هذه المحاضرة يقول : « ان عظماء الرجال لا يبلغون هذه العظمة الا على أكتاف البروليتاريا » . والعظماء ان هم الا تعبير عن القوى الاقتصادية . وتذكرت ما قاله نيوتن بنفسه عن عظمته مرجعا الفضل كل الفضل فيها الى من سبقوه ... لا الى البروليتاريا قال : « واذا كانت بصيرتى قد نفذت الى مدى بعيد ، فما تيسر لى ذلك الا بوقوفى على أكتاف العمالقة » .

وكانت ساعة المكتبة تعلن الثالثة مساء . وهى النظير أو الغاية السفلى للحياة . وتطلعت فيما حولى . لم يكن هناك من يحرك ساكنا فى حجرة الكتب النادرة بمكتبة هنتنجتون . ولم تكن هناك ذبابة واحدة تطن فى

سمائها المكيفة الهواء ، وطرأت على ثمة فكرة تقول اننى لو أطلت المكوث فى هذه الحجرة ، لأصبت بعدوى الخلود ، وستجدنى الأجيال المقبلة هنا بين الكتب ، كل قطعة من جثتى المحنطة سليمة لم يصبها أذى ! وكان واحد من القراء فى النضد المجاور قد راح فى سبات عميق ، رأسه منثن الى المخطوط الذى يقبع أمامه . وكان شابا هزيلا ذا شعر بنى ، وظهرت قدماه من تحت المنضدة يكسوهما جورب صوفى أحمر . وكان يصدر عنه فى اغفاءته صوت خافت . ونظرت الفتاة الشقراء الجالسة فى مكتب الأمين اليه هنيهة ، ثم أعادت النظر الى ملفاتها . ولو سقط هذا الشاب على الأرض لتجاهلته هذه الفتاة فى اعتقادى . ثم سمعت صوت آلة كاتبة .

قال الدكتور جيمس برايانت كونانت ، ان العلم انما هو حالة ذهنية . عدت الى فيلادلفيا وعدت الى عملى . وما ان مضت بى الأيام حتى أصبح من الواضح لدى أن الدكتور كونانت كان حالته ذهنية ليس باستطاعتى أن أبلغها ، رغم أنى بذلت فى ذلك محاولات متكررة . كنت أقرأ طول النهار ، وفى الليل كنت أضع على مكتبى قصاصات من الورق عليها أسماء الكتب التى سأطالعها فى الغد . الكتب التى أستعيرها من المكتبة والكتب التى أشتريها والكتب التى سأرسل الى انجلترا فى طلبها والكتب التى لا أستطيع الحصول عليها الا بالتبادل بين المكتبات . ثم ان عناوين هذه الكتب ذاتها كانت تثير فى الاشمئزاز ، مثلا كتاب بعنوان « الأسس الميتافيزيقية لعلم الطبيعة الحديث » . وطفقت أسأل نفسى : « ما هذا الذى أفعله ، أتخبط فى دياجير العلم ، ثائرة النفس مكفوفة البصر ؟ كنت كلما أبصرت الكتب تتكدس على مكتبى أكواما يوما بعد يوم ، أشعر بالغثيان والرغبة فى القيء . وتذكرت نصيحة لورد بدفورد الى أبنائه اذا قال لهم : « يجب أن يكون اقبالكم على الدراسة مثل اقبالكم على

الطعام ، فى نهم . وان من ليس له معدة تقبل الكتاب سوف لا يستفيد منه » .

الحقائق ، الحقائق ... كم أمقتها . يبدو أن هذه الحقائق ، وهى مكدسة مفهرسة ، هى كل ما يهتم به العلماء . ان هؤلاء الرجال الذين طالما نادوا بأن العلم فن ، قد اتجهوا بكل جوارحهم الى الحقائق ، كما لو أن الحقائق قد وجدت اجابة شافية لسر الكون ... وهى فكرة يعلم كل شاعر أنها سخيفة تدعو الى السخرية . كتب هنرى آدمز يقول : « لقد سعيت جاهدا ألا أميل الى الحقائق أو ألقنها لغيرى ما استطعت الى ذلك سبيلا ، اذ كانت لدى تلك الكراهية للحقائق التى لا يستطيع أن يصل اليها سوى المغفلين أو الفلاسفة » .

لقد كانت قراءة هذه الفقرة مدعاة لشعور بالراحة كنت أفتقده ، وانتهيت الى أنه من العسير أن نجد مؤرخا أفضل من هنرى آدمز « بعض الناس يولد للأسف ميالا الى العلم » قائل هذه العبارة فى هذه المرة والتر باجهوت . وكنت كلما مضيت فى دراستى ، لا تلبث أن تقفز هذه العبارات الى ذهنى الواحدة بعد الأخرى ، عبارات وأقوال صادقة تلمس مكمن الداء فى نفسى . ولعلنى كنت أحمل نفسى عناء لا طاقة لى به فى محاولتى أن أتعلم ؟ لعله يجدر بى أن أضيق الحدود ، وأرسم النطاق الذى يجب ألا أخاطر بالخروج عنه فى بحثى هذا عن نيوتن . وتذكرت حادثة وقعت لى عندما كنت أكتب ترجمة لحياة تشايكوفسكى . ولما كانت هذه أول ترجمة لى فقد كنت أتصور أن علىّ الالمام بكل شىء وأن من واجبى أن أبدأ بدراسة الأسس الأولى لفن الموسيقى . وقد سيطر على هذا الوهم وملك على أقطار نفسى . (ولطالما سألنى زوجى قائلا : وكيف لك أن تكتبى عن موسيقى ان لم تكونى تدركين طبيعة الصوت ، وان لم تكونى ملمة بالأصوات والتغيرات الهارمونية ؟) . وعولت على الانتظام فى معهد

لدراسة الموسيقى وبينما أنا فى مثل هذه الحال قابلت فى احدى الحفلات واحدا من أقطاب صناعة الألبان ، كان قد كون متحفا خاصا بتاريخ الألبان. سألته قائلة : وأين تبدأ مثل هذه المجموعة ؟ أتبدؤها بالحيتان والثدييات الكبيرة ؟ فأجابنى فى بساطة : « لا ليس كذلك ، اننا لن ندخل الحيوانات فى مجموعتنا على الاطلاق » .

ما من شك فى أن هذا القول نوع من الوضعية ، والخطة المعروفة ، ولكن كم كنت آمل أن أصادف هذه الخطة ! لعلى بهذا الكتاب الخاص بنيوتن قد غصت الى أغوار بعيدة ، ووضعت لنفسى خطـة لا طاقة لى بتطبيقها . هل كان باجهوت أو السير فردريك بولوك الذى لاحظ عادات الشعب البريطانى وموهبته الغريبة فى وضع كل فكرة موضع التنفيذ ، لقد قال : « ربما كان من نعم الله ألا يستطيع المرء أن ينظر الى مدى بعيد أو يرى مشهدا كبيرا دفعة واحدة . فقد ينقذه ذلك من أن يتصارع مع الآلهة ».

ان ما يجب على أن أكتبه هو كتاب حول نيوتن لا يذكر فيه نيوتن على الاطلاق . وقفزت هذه الفكرة الى ذهنى محوطة بألم واكتئاب ، ولكنى ما لبثت أن تأملتها فى مزيد من المتعة والسرور . فان القراءة عن القـرن السابع عشر تظل ممتعة جذابة حتى يصطدم المرء بنيوتن . ان أئمة القـرن السابع عشر هم جون دون ، وسير توماس براونى وجون بونيان وسير والتر رالى . لقد كنت أعب فى تاريخ هؤلاء مجتمعين مرة واحدة ، وتسللت الى انجلترا فى القرن الثامن عشر وصادفت هناك جواهر نادرة مثل كتاب ديفوى بعنوان « مذكرات سنة الوباء » . وكان هذا الكتاب يتصـــل بموضوع بحثى لأن على كاتب ترجمة لحياة واحد من أبناء القرن السابع عشر ، أن يدرس حادثة الوباء دراسة وافية . وكان ديفوى متحدثا لبقـا

لعباراته وقع ما يقال فى الوقت الحالى ، فمن عباراته : « واعتقد الجميع أن الخطر قد زال الى غير رجعة » .

ولم يكن هناك ما يشبع نهمى فى هذا المجال . كنت أريد أن أستشف الصورة التى كانت عليها لندن خلال القرن السابع عشر ، وماذا كان يأكل أهلوها ، وما هى المعتقدات التى كانت سائدة بينهم . وأصبح لدى الآن ستة ملفات سميكة تحوى مذكرات تحت عنوان « ما كانوا يعتقدون » مقسمة الى أقسام تختلف باختلاف الزمان والمكان . ولم يكن بين هذه المذكرات ، مع ذلك ، ماله علاقة بالرياضيات أو البصريات أو نظرية الجاذبية . وساءلت نفسى قائلة : « هل سأظل أمضى فى طريقى على هذا النحو أدرس المواد فيما حول الموضوع وحول محيطه الخارجى دون أن أصل الى لبه ؟ »

وبدا لى أن يدىّ ستظلان مغلولتين عن الكتابة الى الأبد لقلة المعلومات التى تجمعت لى ، كما أتوهم . لقد كنت فاترة العزم مترددة لا أستطيع أن أحزم أمرى على أى نحو من الأنحاء ، كان يداخلنى شعور بأنى قد ربطت الى طاحونة ، لا تفتأ تدور وتدور وتدور . ودونت فى مفكرتى هذه الملاحظة : « ان هذه المرحلة الانتقالية شديدة الوطأة على نفسى فى واقع الأمر ، انى أحارب نفسى آناء الليل وأطراف النهار وأجاهدها تارة تجاه الموضوع وتارة بعيدا عنه . كنت أشعر وأنا بالمكتبة جالسة تحيط بى الكتب من كل جانب أننى سعيدة آمنة مطمئنة ، قد أعمانى البحث عن العالم الخارجى . بيد أنى كنت كلما أعود الى البيت أدرك أنى لم أظفر بشىء على الاطلاق يمكننى الاستناد اليه » .

وأخذت هذه الحيرة تتضخم وتستفحل فى نفسى ، وبدت على أعراض

جسمانية ، أشبه بالخوف الذى أقض مضجعى وأفسد معدتى . لقد كتب سير ادوارد كوك ، المحامى والقاضى العجوز لدى الملك چيمس يقول : « ان عقل الانســـــان نفسه كلما تلقى المزيد من المعلومات ، حاول أن يتخلص منها ، ويفر من عقالها . غير أن الأعباء يجب أن تتساوى مع قوة الحاملين لها » . والمعضلة هنا أن عقلى لم يتلق شيئا بل انه دأب على لفظ كل ما يتلقاه . وما الذى دعانى الى أن أنفق هذا الوقت كله مع نيوتن ، كيف انى لم أتبين منـــذ البداية أن موضوعه لا يناسبنى ؟ ان الفــكرة الرئيسية التى سيطرت على كانت بالطبع فكرة طيبة ، فقد كان نيوتن دون شك رمزا للتغير ، وشعارا على التحول من استبداد العصر الوسيط الى التحرر الاجتماعى والعلمى الذى نشهده فى الوقت الحاضر . كنت أتبع النجم الصحيح ، غير أنى نظرت اليه خلال منظار فاسد اتجه بى الى الجنوب بينما كان من واجبى أن أنظر الى الشمال .

وضربت بنيوتن عرض الحائط ، وأعدت كل ما استعرته من كتب ، ووضعت الكتب التى اشتريتها حديثا فى مكان بعيد عن الأنظار وشعرت بالراحة تسرى فى بدنى والهدوء يعود الى نفسى ، كنت أشبه بامرأة قد غادرت فراش المرض ، أو امرأة كسر كعبها ثم جبرت وأصبحت تستطيع المشى من جديد واتجهت فى التو الى ترجمة حياة سير ادوارد كوك ، فى متعة روحية لم أكن لأستطيع الاحساس بها مالم أكن قد مررت بمحنة نيوتن هذه . ان قوانين العصور الوسطى واللغة اللاتينية التى كانت سائدة اذ ذاك واللغة الفرنسية الدنيا لاتقاس جميعها على الاطلاق بالدوامة الرياضية التى كنت قد سقطت اليها بيد أن الجهد الذى بذلته فى العام الماضى لن يضيع . فانى لم أقتصر فى قراءتى على فترة حياة نيوتن فى التاريخ فحسب أو جددت قراءاتى بكرومويل وميلتون ، فان معرفتى الجديدة بآل ستيوارت

من ملوك انجلترا ، وبحركة الاصلاح الانجليزية ، وبالثورة الكبرى يمكن أن تتخذ نقطة بداية . لقد كان تاريخ كوك أسبق من نيوتن . غير أن ذلك لن يمنع من أن يكون للملفات المعنوية بعبارة « مايعتقدون » نفع كبير .

والحقيقة أن كل شيء بدا لى سهلا طيعا ، ما ان استقر رأيى على موضوع بعينه . ان كتاباتى عن هولمز وآدمز كانت بمثابة مقدمة ، ولم أكن لأستطيع أن أتصدى لكتابة ترجمة لحياة كوك مالم أكن قد بدأت هذه البداية . وقفزت الى ذهنى لفظة « ثلاثية » فقد كان كوك وهولمز وآدمز يؤلفون قصة واحدة تنقسم الى ثلاثة أجزاء . لقد قال ميتلاد . « ان القانون العام قد اتخذ صورته الملموسة المحسوسة على يد كوك » . ولم يطأ كوك قط الأرض الأمريكية الا أنه ينتسب الى تراث الأمريكيين وتقاليدهم ، لقد سعى اللورد كوك فى زمنة الى تحقيق حرية الرأى والحصانة البرلمانية وحق المواطن فى المثول أمام القاضى لبحث شرعية احتجازه فى السجن ، وحقه فى رفض الاعتراف بجريمة لم يقترفها ، حيال الاستجواب الرسمى ، وقد ورثنا نحن الأمريكيين ما حققه هو من انتصارات.

قلت لنفسى : انه ينبغى لى أن أرحل الى انجلترا . ولم يكن هدفى من ذلك أن أطلع على الوثائق ، فان مخطوطا ينتسب الى عصر اليزابث من السهل أن ينقل الى واشنطن أو نيويورك فى عصر الأفلام الصغيرة والطبع بالصور . اننى سوف أعبر المحيط لأشعر وأحس بهذا البلد القريب الى أمريكا من حيث المسافة ، البعيد عنها من حيث العادات والتقاليد . ويجب على أيضا أن أذهب بمفردى ، فلفظة « نحن » مغرية ولكنها يجب الا تتدخل فى مهمتى ، فيجب أن أتعرض وحدى للتأثير دون حماية ، فلا يحق للكاتب أن يقف خلف درع واقية ، وبعض التجارب يضعف أثرها بالمشاركة . وسألنى زوجى فى اكتئاب : « معنى ذلك أنك تنوين الكتابة

عن محام آخر » . وقال : « كنت أعتقد أنك قد اتجهت الى العلم » . وهل أنت على يقين من أنك لا تريدين محـاولة الالتحاق بفصـل المبتدئين فى الطبيعة فى كلية سمارتمور ؟ » . ان جامعة شيكاغو قد دبرت فترة دراسية خاصة بنظريات نيوتن ، وفى استطاعتى أن أدرسها بالمراسلة .

ونظر الى زوجى ثم انفجر ضاحكا . قال لى : « أرجوك لا تكتئبى هكذا . لقد استقر رأيك على الرجل الذى ستترجمين لحياته . والآن اذهبى الى انجلترا . وابحثى عنه وهاته الى الوطن فى احدى السلال » .

١٣
لندن والسير إدوارد كوك

« ان لندن تقع فى أجمل مكان وأمتعه من نهر التـايمز ، تتوافر لها جميع الضروريات فى غزارة ووفرة . أما مناخهـا فهو صحى ، وهى كثيرة السكان غنية ، بديعة ، كما أنها مخلصة وفية كريمة » .

چون نوردن

ان لأسماء « فليت ستريت » و « أولد بيلى » و « التاور والتـايمز وقصر سنت چيمس » و « الجرين بارك » و « هولبورن » و «بيكاديلى» و « سنت جون وود » بريقا وسحرا فى نفوسنا ، بريقا وسحرا يتجددان كل يوم . ان لندن لا تبلغ لها نهاية فى نظر المؤرخ ؛ فهى خضم هائل من الذكريات والأحداث التاريخية الهـامة . ان طرقاتها الضخمـة المتعرجة القائمة الساحرة تمتد الى الأسوار الرومانيـة الحجـرية المدفونة تحت الأرض ، والى السراديب التى حفرها النورماديون تحت أطـوارها . ان المؤرخ الذى يجوب لندن لا بد أن يؤخذ بما يرى وأن تستبد بنفسـه أحاسيس مختلفة متضاربة .

ان تسعة ملايين نسمة يعيشون داخل حدود المدينة وخارجها ، لقـد استولت علىّ رهبة وهيبة وأنا أقطع بعربة الأجرة الأميال من الطرقات التى اصطفت على جوانبها الدور المتشابهة التى بنيت من الآجر على أطراف لندن . وكيف لى فى المتاهة التى يكتنفهـا الدخان أن أهتدى الى ذكرى اللورد كوك الذى تفصل بينى وبينه وأنا فى صيف عام ١٩٥١ ثلاثة قرون وسبعة عشر عاما فقط ! لم أذهب الى انجلترا منذ حداثتى ، والرسـائل التى أحملها موجهة الى أغراب ، كما أنها تختص جميعها بمهمتى فى البحث

والتاريخ . ولم تكن هناك أمامى سوى عشرة أسابيع لأتم فيها عملى فى زيارتى الأولى . وكان علىّ فى هذه الفترة الهينة من الزمن أن استكشف لدى المكتبات البريطانية ما يكفى من المصادر والمراجع الخاصة بالموضوع ذاته والموثوق بها لوضع ترجمة لحياة كوك على أساسها ، وكان علىّ أن أتبع كوك فى جميع أنحاء انجلترا ، وأن أتفقد ، ان أمكن ، كل بيت أو مكان حل به .

ان دليل الرحلة لا يعدو خريطة مرسومة ، ومجموعة من أرقام التليفونات ، على المرء أن يتشبث بها فى بلد أجنبى . ولكنى كنت أود أن أعرف ، خارج نطاق الرحلة ، أهذا العالم الانجليزى هو بحق غريب عنى هكذا أنا الأمريكية ؟ وكان اللورد كوك ينتسب كما يروى التاريخ عن طريق أعماله ومؤلفاته القانونية الى بلدى أمريكا انتسابه الى انجلترا . ولقد صرح علماء القانون بأن كوك حقق « الجنسية المزدوجة » . ولهذه الفكرة أهمية كبرى بالنسبة لكاتب التراجم . فتروى الوثائق أن لورد كوك لم يسافر قط الى ما وراء انجلترا ، ولم يستثمر أمواله فى الأراضى المستكشفة الجديدة ، ولعله كان يعتبر أمريكا أرض متوحشين همج لا خير فيهم . ولكنى كنت أعلم أننى ان كنت وأنا فى لندن سأشرع فى النظر الى سير ادوارد على أنه غريب لا يحمل جنسية بلدى ، فانى لن أراه قط عن كثب . وكان علىّ أن أصل الى أساس أرتكز اليه لا فى تاريخ انجلترا الماضى بل وفى حاضرها أيضا .

كانت هذه فكرة غير واضحة المعالم ولكنها لم تكن صادرة عن عاطفة مجردة ، بل عن منطق وفكر . قيل ان « القانون العام قد تجسد فى صورة ملموسة على يد كوك » . وعلمتنى كتابتى عن چون آدمز والمستشار هولمز أن نفسية الشعب تظهر واضحة فى قوانينه وفى دياناته .

لقد كافح لورد كوك كفاح الأبطال من أجل قوانين ما زلنا نعيش فى ظلها . ولقد نطق سير كوك عندما كان فى منصب المستشار الأول لكرسى الملك بمجلس العموم بكلمات كان لها أعظم الأثر فى نفسى عندما قرأتها لأول مرة، وما زالت حتى اليوم تهزنى . قال : « انه مما لا يتفق والقانون أن يحكم على انسان بالسجن دون سبب معلن .. ولا يستجوب انسان عما يجول فى خلده ، أو عن رأى يكتمه صدره » .

وعلى ذلك فان ترجمة حياة كوك ، سوف تتجاوز فى نهاية الأمر نطاق الحديث عن قصة حياة شخص واحد . لقد أصبحت القصة فى يدى بشمولها نهاية العصور الوسطى ، وفجر العصر الحديث ،ملحمة كملحمة هومر حيث يخلع أوليس على نفسه حلة القاضى القرمزية ، ويقوم بأسفار لا حدود لها فى نطاق المحكمة والبرلمان ، ولن تكون قصتى الى جانب ذلك قصة « الرجل الطيب » كما يفهم من هذه العبارة . فلقد كان كوك طموحا ، وقضى حياته فى أوقات عصيبة مضطربة قلقة ، بين رجال ونساء كانت بغيتهم الوصول الى كراسى السلطان والحكم . وكانوا يسعون الى ذلك بقوة غاشمة وقسوة وعنف شديدين ... ومن أمثال هؤلاء الملكة اليزابث ، وسير ولتر رالى ، ولورد اسكس ، وسير فرانسس بيكون ، وجاى فوكيس ، ورتشارد توبكليف الذى احتفظ بحجرة التعذيب فى قلعته ، وليدى هاتون الجميلة ذات الارادة ، واللورد برجلى بلحيته ومرض النقرس الذى كان يعانيه ، وجيشه من المخبرين ، وابنه الحاذق الماهر الصبور الأحدب سير روبرت سيسيل .

ولما كان كوك قد ولد فى عهد مارى تيودور فقد عاصر فى حياته أربعة ملوك ، وكان فى آخر برلمان يحضره يجلس الى جانب اوليفر كرمويل . وليس هناك فى حقب التاريخ ما يزخر بما تزخر به هذه الحقبة من أحداث

وتقلبات خطيرة جليلة . فهناك المستعمرات التى أسست ثم ما لبثت أن ضاعت فيما وراء البحار ، وهناك الديانة البروتستانتية التى استتب لها الأمر أخيرا بعد صراع دموى ... وهناك الملكات اللائى لقين حتفهن على حد المقصلة ، والشهداء الذين حرقوا من أجل عقائدهم . وحدث أيضا أن أخذ عامة الناس فى ادراك مالهم من حقوق ، وأخذ مجلس العموم فى تبوىء المركز اللائق به ...

وهكذا حارب العالم الذى عاش فيه كوك مقدراته وطارد مصائره . فوقت أن كان سير ادوارد صبيا ، انتزع العالم من أركانه الأربعة ، وقيل انه يدور فى الفضاء الى ما وراء الدوائر التى رسمها بطليموس . وقاوم العقلاء هذه الفكرة . (فتساءل الدكتور ريكورد فى كتابه قائلا : ولو أن الأرض كانت تدور الى مالا نهاية ، فأين اذن يكون الاستقرار والهدوء).

لقد كانت هذه القصة ملحمة أشبه بالالياذة ... وبينما كنت جالسة أتقلب يمينا ويسارا صاعدة هابطة على مقعد سيارة الأجرة القادمة من المطار ، صك سمعى صوت العجلات والعربات فى حى بيكاديلى ، اذ كنا قد اقتربنا من فندق برون . وعقدت أصابعى وأخذت شهقة طويلة ، مبتهلة الى الله أن يكون صيدى طيبا وأن أوتى حظ كاتب التراجم . وقرأت فى اللوائح المكتوبة والخاصة بالمتحف البريطانى هذه العبارة : « لا يسمح بدخول قراء أقل سنا من ٢١ سنة » .

وما من شك فى أن حجرة المحفوظات فى المتحف البريطانى ليست المكان الذى يجلس فيه الأطفال والغلمان . ومبنى المتحف البريطانى ضخم وتضم قاعة المطالعة الكبرى مقاعد تسع خمسمائة قارىء . وقد ضللت طريقى فيه ثلاث مرات على وجه التحديد . ونبهنى أحد الشرطة بأدب فى القاعة التى تحوى مجموعة كتب الملك جورج السادس . قال لى :

« أتريدين دليلا يا سيدتى ؟ يبدو ذلك » . والسبب فى ذلك هو أننى دخلت من الباب الخلفى . وقد اعتدت ذلك نظرا لأنه كان لدى بعض الأعمال اليومية فى الصباح فى جامعة لندن ، أن أعبر ميدان منتاج عند مغادرتى الجامعة لأدخل المتحف من جهة الشمال . وفى المرة الأولى التى ضللت فيها طريقى كنت أبحث عن قاعة الصور فى الطابق العلوى . وكنت أريد الاطلاع على صور للندن كما كانت أثناء حياة كوك ، صور أستطيع منها معرفة جسر لندن ، وقصر جرينوتش ، والقلعة ، والسفن الراسية فى أحواض ديفورد ، ومضايق تمبل ، ونهر التايمز ، كما كان يراها جميعها كوك فى زمانه . وأفضى بى درج طويل شاق الصعود الى ممرات من الحوافظ الزجاجية المليئة بآثار أشور وبابل . وما لبثت أن عدت الى الطابق السفلى لأبدأ من جديد . وقد كتبت فى رسالة الى أمريكا حانقة قانطة هذه العبارة : ان دخول المتحف البريطانى للبحث عن صورة عن القرن السادس عشر ، هو كدخول الطبقة السابعة من جهنم للبحث ثمرة فراولة .

واذا ما بلغت قاعة المخطوطات فانك تجدها فى زاوية مجهولة غامضة خلف قاعة المطالعة الكبرى . وهذه القاعة ليست هى أيضا بمكان المتكاسلين المتسكعين ، ثم ان مجرد معرفة طريقة البحث عمل معقد ومهمة صعبة . وأمناء المخطوطات من العلماء الدارسين وهم على قدر عظيم من الأدب وحسن الأخلاق . وقد همس فى أذنى أحدهم وهو يحمل لى كتابا ، قائلا : « ان السيد الجالس قبالتك أمريكى أيضا — وهو أمين الرسومات فى جامعة برنستون » .

ولقد أطلعنى مستر أولدمان ، أمين الكتب المطبوعة على نسخة كوك الخاصة بكتاب القاضى ليتلتون بعنوان « نظام الملكية » والتى تحمل

ملاحظات كوك التى كتبها على متون الكتاب ، كما أطلعنى أيضا على النسخة الشهيرة من كتاب « الاداة — الجديدة » الذى اهداه مؤلفه فرانسس بيكون الى سير ادوارد . وكان هذا مجلدا ضخما بغلاف أبيض مذهب ومختوم بشعار أسرة بيكون ، ألا وهو الرب الذهبى . وكان لورد كوك يكره بيكون . وكتب بيكون فى الصفحة الأولى عبارة لاتينية بخط ردىء تقول : هدية من المؤلف ، وكتب تحتها بيتين ينمان عن الغضب ، وكأنما أراد بيكون أن تنقلهما الأجيال عنه يقولان :

لا يستحق هذا الكتاب أن يقرأ فى المدارس ،

بل أن يشحن على سفن البلهاء

كم كان هذان الرجلان العظيمان يمقت أحدهما الآخر ! لقد كانت معركة بين عملاقين .... كانت المنافسة محتدمة علانية بينهما على منصب النائب العام وعلى طلب يد الليدى هاتون ، كانت لكوك الغلبة فى كلتا الحالتين . وتذكرت أن بيكون بذل منذ هذه الساعة قصارى جهده لجلب الخراب على كوك وتحطيمه ولم يكن ما فى وسع بيكون بالجهد الذى يستهان به . وكانت ألاعيب بيكون هى التى أضاعت على سير ادوارد فى النهاية منصبه كقاضى قضاة انجلترا ... ثم مثل المشهد الساخر الأخير فى مجلس الشيوخ ، فاتهم اللورد بيكون بالرشوة فى مجلس النواب ، وثبتت ادانته واستمع الى اعترافه الكامل فقال : « دون مواربة اعترف وأقر ذلك مخلصا صادقا » . ووقف كوك العجوز مع زملائه وراء قفص الاتهام ليستمعوا الى النطق بالحكم الصادر على بيكون صامتين .

هل بلغ الحقد والعداء فى وقت من الأوقات هذه القسوة والعنف ؟ ان قصة هذين الغريمين تحمل كل عناصر المأساة الدرامية المفجعة ، فهاك عظيمين يصطرعان ، يرى فيهما بيكون الخصم القوى العظيم ، والعبقرى

الذى لا يشق له غبار ، وقد قهره ضعف شخصيته الذى استعصى على كل علاج . وكيف السبيل الى أن أروى هذه القصة فى كتابى وكيف سيكون وقعهـا ؟

لعله كان من المستحسن الاطلاع على ما كتب عن فرانسس بيكون حتى هذا التاريخ ، الاطلاع على كل ما كتب عنـــه . ودخلت قاعة المطالعـة الدائرية الكبرى ، وأخذت طريقى الى قوائم الكتب التى لم تكن مرتبة على نحو يجعلها سهلة الاستعمال وفى متناول اليد . وأخرجت المجلد الذى يبدأ بحروف اسم بيكون ، واستدرت متجهة الى مقعدى الذى كنت قد تركته منذ هنيهة ، ولكنى تعثرت فى لا شيء على الاطلاق وسقطت مطروحة على الأرض متشبثة بالمجلد الذى بين يدىّ ، واعتـــدلت ثم نهضت على قدمىّ ونظرت مرتبكة ناحية أمناء القاعة الذين كانوا يجلسون فى منتصف القاعة خلف متاريس القوائم . ولم يعرنى هؤلاء أدنى اهتمام ، وربما كان السبب فى ذلك أنهم رأوا أن المجلد الذى بيدى لم يصب بسوء . وأنا فى طريقى محتاطة حذرة الى مقعدى نظرت نظرة عابرة تنبؤية فى قلوب هؤلاء السادة ذوى الاحساس الجـــامد ، الذين ينكبـــون على عملهم خلف متاريسهم . وقلت لنفسى لا بد أن أسماء هؤلاء ستقسم فى النهاية الى قوائم تحكمها الحروف الأبجدية التى قد تقوم بتقديم بعض العون وان كانت فى الوقت ذاته عاملا يحد من حرية الباحث .

وكانت النبذة الأولى فى القائمة التى بيدى وتحت اسم بيكون عن ليدى آن ، والدة سير فرانسس .وكانت ليدى آن ، زوج سير نيكولاس بيكون ، تنفرد وتتميز بشخصية خاصة ، فهى امرأة متعالمة تقرأ اليونانية واللاتينية وواحدة من شقيقات ثلاث شهيرات . وذكرت القائمة أن ليدى آن ترجمت عن اللاتينية كتاب الأسقف جيويل بعنوان « دفاع عن كنيسة

انجلترا » وترجمت عن الايطالية أيضا كتاب « صـلوات فورتينى » . وتذكرت تعصب الليدى آن الشديد للمذهب البروتستانتى وقد بلغت فى تعصبها حدا لا يفوقة غير تعصب البيوريتان ، وكانت دائما ما تضرب على وتر المذهب البروتستانتى وسموه لأبنائها .

وقفزت بى القائمة بعد اسم ليدى بيكون ، أربعة قرون ، لتبلغ شخصا باسم بيكون فى مؤسسة بحوث الطاقة الذرية وضع كتيبا بعنوان «الكشف عن اليورانيوم بالمقياس الطيفى ذى الدقة المتناهية » . وكم كانت ستكون دهشة بيكون لو أنه اطلع على مؤلف كهذا . ان الدقة المتناهية لأى شىء لن تعدو فى ذهن الرجل الذى عاش فى عصر النهضة غير اللحوم المقـددة والشراب . ورغم ذلك فلم يكتب أحد فى التاريخ القدر الذى كتبه بيكون، ولم يحظ أحد بمثل ما حظى هو به من اهتمام الكتاب والمؤرخين .وأخذت أقلب صفحات القائمة بأقصى سرعة ممكنة ، فلو لم أسرع لحلّ بى موعد اغلاق المكتبة قبل أن أصل الى حرف الكاف لأقرأ عن كوك .

وعثرت هنا على الخطب التى ألقاها بيكون فى البرلمان فى قضيتين . وكان كوك قد وقف موقف المعارضة فى كل منهما . ووقفت هنا أيضا على خطاب بيكون تحت عنوان « بيان المؤامرات وأعمال الخيانة التى دبرها واقترفها روبرت ايرل اف اسكس » . انه لعمل شائن ومجلبة للخزى والعار، أن يقف بيكون فى قاعة المحكمة وعلى مسمع من الملأ ليفشى سر صديقه، ثم لا يكتفى بذلك بل يخذله ويخون أمانته بكتيب مطبـوع . كل ذلك بغية ارضاء الملك وتقربا وزلفى اليه ، كيف يحمل هذا العبقرى العظيم قلب جبان رعديد ؟ ان الحية الأولى كانت كامنة فى هذا الرجل . لقـد كتب أوبرى يقول : « ان له عينين رقيقتين متألقتين عسليتين ، قال لى الدكتور هارفى انهما مثل عينى الحية الرقطاء » .

لم يكن هذا اللورد بيكون ذا شخصية محببة . ولكنى حدثت نفسى قائلة : انى على استعداد لأن أضحى بكل ثمين غال فى سبيل أن أراه وأسمع صوته حين يتحدث . لقد كتب عنه أحد المعاصرين قائلا : « انه شخصية نادرة ، واعتقادى أنه أبلغ من ولد على ظهر هذه الجزيرة » . وهل فى استطاعة أى كاتب للتراجم أن يكتب عن اللورد كوك دون أن ينحرف عن طريقة ، ويغريه سحر الحديث عن آل بيكون وآل رالى وآل اليزابث ؟ واستغرقت أسماء التراجم التى كتبت عن بيكون جانبا كبيرا من القائمة ، كان من بين المؤلفين لها آبوت وموتتانى وسبيدنج . ثم جاء دور المعقبين الألمان ، الذين يقدسون الدراسة والبحث فقرأت عن كتاب بعنوان « بيكون ومكانته فى تاريخ الفلسفة » بالألمانيــة ... شىء يروع الناظرين فى الحق . الواقع أن بيكون نفسه ربما سخر من هذا العنوان . ولكنى أعود فأقول ان غروره ربما قاده الى استحسانه . وفى النهاية قائمة تستغرق ثلث القائمة تقريبا ، تضمن أسماء « الباكونيين » أو من هم على استعداد لأن يستشهدوا فى سبيل اعتقادهم أن بيكون هو مؤلف ما يسمى « بمسرحيات شكسبير » ولقد كان بيكون بالفعل ، كما قرأت ، ابن اليزابث وايرل ليستر ... كان يضع خاتما ذهبيا ..

وانتزعت نفسى انتزاعا مما أنا فيه . فلم يكن لدى وقت للتنزهات ، مهما كان سحرها . وكان الجرس الأول الذى يعلن عن انتهاء وقت القراءة يدق فى قاعة المطالعة . كانت الساعة الرابعة ، أى انه لم يبق أمامى سوى نصف ساعة فقط . وكنت قد تقدمت ببطاقات طلب استعارة الكتب التى أحتاج اليها فى الغد ، ولسوف تعد لى الكتب لتكون فى انتظارى فى الصباح. بيد أنى كنت موقنة بأن علىّ أن أحدّ من هذه القــراءة وأن أقطع ذلك البحث والتنقيب الممتع فى بطون القوائم ومصنفات الكتب . كانت الأيام

تمرق بسرعة ، ولم يكن مقدرا لى أن أفعل غير استطلاع ميدان العمل انتظارا للعودة . فضلا عن أن المكتبات القانونية فى تشانسرى لين كانت على استعداد لأن تقدم الىّ عن طيب خاطر نفائس الكتب التى كانت فى حوزتها . وكنت قد حصلت منها بالفعل على عدد كبير من المجلدات ، ولم يكن هناك شك فى أنه كان فى مقدورى أن أقوم بالجانب الأكبر من دراستى للقانون فى بلادى . كان باستطاعتى أن أحصل فى وطنى فيما وراء المحيط على الكتب الخاصة بالسلطة القضائية للمحاكم والتى كتبت حول صراع كوك الطويل مع تشانسرى . والاجراءات المقارنة فى المحاكم الجنائية بالقارة الأوربية ، ومناهضة مجلس العموم لهذا الامتياز . ولقد قابلت فى لندن بالفعل علماء بريطانيين ينوون قضاء سنة بواشنطن ، لدراسة تاريخ انجلترا فى القرن السادس عشر فى مكتبة شكسبير .

ودق جرس المتحف مرة أخرى . كانت الساعة الرابعة والنصف . وخرجت الى الرواق ذى العمد حيث كانت أسراب الحمام تخطر فى خيلاء ، ثم هبطت الدرج الطويل الى شارع راسل العظيم ثم الى قلب المدينة .

وطفت بنهر التايمز مصعدة فيه وهابطة فى السيارات العامة المائية ، باحثة عن لندن التى عاصرها كوك . لقد كان نهر التايمز فى زمن سير ادوارد هو الطريق الرئيسى للندن ، ولم يكن شارع « ستراند » سوى طريق موحل . حتى أمر سير روبرت سيسل برصفه لمسافة ميل ، طلبا لراحته . أما اليوم فان حافة النهر كئيبة ترتفع على امتدادها المصانع بمداخنها السامقة ، على حين أنها كانت فى زمن كوك مخضرة جميلة ، تحاذيها القصور ذات الأسوار الضخمة حتى وستمنستر . وكانت أسماك السالمون تظهر على سطح المياه فى الربيع ، وكان لحمها طريا شهيا . وعلى الرغم من ذلك فما زال نهر التايمز فى قلب لندن ، فعلى بعد ميل من الداخل

يمكن للمرء أن يحس بوجوده وأن يسمع ، اذا ما واتته الريح ، الصفير الخشن الذى يصدر عن صفارات وأبواق السفن النهرية .

لقد كانت الصور القديمة التى اطلعت عليها فى المتحف صورا حية واقعية ؛ فاحداها كانت تصور ملابس الملاحين تتأرجح على حبل مربوط الى « غليون » يرسو الى جانب سور قلعة لندن الشهيرة ، كما تبين صورة أخرى قوارب صغيرة تتجاذبها التيارات التى تجرى بين أعمدة جسر لندن. أما اليوم فقد أصبح من السهل عبور الجسر كما أن جميع الغلايين قد أصبحت تسير بوقود البترول . ولكننى شعرت وأنا على صفحة النهر بالماضى السحيق يقترب من مخيلتى بصورة لم أعهدها فى أى موضع آخر من لندن . وكانت السفينة الترفيهية التى أقلتنى بالنهر تسير مع التيار فى سرعة محمودة . وكانت الأمهات وأطفالهن يزدحمون على ظهر السفينة وقد جلس الشبان ملاصقين لعشيقاتهم بجوار السورالحديدى الخارجى . وكان الأوز الملكى يسبح فى النهر الى جوار السفينة عليه طبقات سوداء من البترول والطين ، فانالمشرفين عليه لا ينظفونه غير مرة واحدة فى العام . ولا بد أن كان هذا الأوز فى عهد كوك أبيض كاللبن ، وغير مسموح لأحد بصيده أو أكله غير البلاط الملكى .

وحصلت على كتيب صغير مقابل شلن واحد ، يعرف بدليل النهر ، به خرائط تذكر أسماء أماكن الرسو القديمة ومحطاته ، مثل بيلنجس جيت وايجيت وكوين هايث وبلافرايرز ومضايق تمبل . كم كنت آلف هذه الأسماء ! هذا هو المبنى المعروف « بالاينار تمبل » حيث كان كوك يدرس القانون ، وحيث كان يستأجر بعض الحجرات المفروشة عندما أحالت زوجته الجميلة الثانية ليدى هاتون بيته الى حانة لا تصلح للسكنى . وما زالت حدائق التمبل طويلة يسودها الهدوء قائمة على الشاطىء ، حيث ما فتىء

المحامون يتريضون مثنى مثنى ، حاملين حقائبهم الخضراء . وكان قصر ايسكس يرتفع يوما فيما وراء مضايق تمبل . وفى هذا القصر اجتمع المتآمرون من أصدقاء أيسكس ، هابطين النهر ليلا وتاركين قواربهم عند المرسى ، وكان هؤلاءشبانا طموحين أشداء يدبرون خلع الملكة ، وان كانوا لا يدركون فى الواقع ما هم يتآمرون به . واعتقادى أنه لم يخلق فى الوجود من يبارى أيسكس فى وجاهته ووسامته ، وفى عينيه المتألقتين وأكتافه العريضة القوية ، وفى يده الرقيقة الموضوعة على مقبض السيف المرصع بالجواهر ، على استعداد كل الاستعداد لاستلال السيف فى غضبة جامحة . قال أحد المعاصرين : « هكذا صوره الرسامون تنم ملامحه عن الخديعة والخبث » لقد أحبت الملكة ايسكس وعنفته وصلمت أذنه اذ أبدى وقاحة وأودعته السجن وعفت عنه ، ثم اجتثت رأسه فى النهاية !

لقد كان سير ادوارد كوك المدعى العام الأول فى قضية ايسكس حيث جرت المحاكمة فى قاعة وستمنستر . لقد كان ايسكس أعظم لوردات انجلترا . غير أن النائب العام كوك ، افتضح أمره أمام هذه الجمهرة الكبيرة من النظارة دون أن يراعى أدنى قواعد التأدب ، وكان يرتدى عباءته الصوفية السوداء . والحقيقة أن أيسكس كان من الأشخاص الخطرين ، فلم يكن مستبعدا أن يخلع ايسكس الملكة عن عرشها ويتولاه هو . لقد ضحت ابنة عمها ، مارى الاسكتلندية بعرشها فى سبيل عشيقها ، ولذا فان حكم اليزابث ضد عشيقها هى كان عنوانا على شجاعتها ، وعلى رجحان عقلها ، وتعبيرا عن ولائها الأول الذى كان لانجلترا وحدها . وان الشعور بالفخر ليغمرنى دائما كلما تذكرتها . لقد قال عنها البابا : « انها ليست سوى امرأة ، وهى لا تسيطر على أكثر من نصف الجزيرة ، غير أنها استطاعت أن تلقى الرعب فى قلوب الاسبانيين والفرنسيين ورعايا

الامبراطورية، بل أن ترهب الجميع ... » وقال أحـد الرعايا الانجليز : « انها أبرع فنانة فى أصول الملك ، حملت الصولجان فى البلاد الشمالية » وقال أحد الزوار القادمين من أوربا : « أقسم بالله ان هذه الملكة حكيمة الى أقصى حد ، ثم ان عينيها نافذتان » .

وكان من الرائع أن أعلم أن كوك قد استضاف الملـكة اليزابث فى قصره الريفى عندما كانت تقوم بجولتها الرسمية مع حاشيتها ، وقدم اليها كوك فى ذلك اليوم من أيام الصيف هدية من الجواهر «بلغت قيمتها مايربو على ألف جنيه » . وتذكرت ذلك عنـدما مررت بمكان قصر ايسكس . وكان أحد الشبان يعزف على الأوكورديون فى السيارة المائية العامة التى كانت تقلنى فى رحلتى ، وما ان بدأ العزف حتى نهضت فتاتان للرقص ... وهنا على شاطىء النهر كان يقوم فيما مضى قصر سومرست ، وهناك كانت تقوم أسوار وقلاع قصر درهام ، حيث قضى سير ولتر رالى عهده الزاهر قبل أن يقلب له القدر ظهر المجن ، وحيث كان يكتب ويتأمل فى حجرته العالية التى خصصها للقراءة والبحث ، وهى الحجرة التى وصفها أوبرى بقوله : « البرج الصغير الذى كان يطل على نهـر التايمز ، والذى كان يتمتع بمنظر بهيج رائع قد لا تجد له نظيرا فى العالم ، منظر لا يمتع النظر فحسب بل يبهج الفؤاد ، واعتقادى أنه يخصب مخيلة العبقرى أيضا . » وكان رالى يحتفظ بحظيرة تضم أربعين جوادا فى قصر درهام . ولا بد أنه كان لوقع أقدام الخيل وصهيلها وصيحات السياس والجنود صدى جميل ممتع على صفحة مياه نهر التايمز .

ولم يقم السير ادوارد كوك ، وهو فى منصب النائب العـام ، بادانة ايسكس فحسب ، بل انه كان أيضا عندما تولى منصب النائب العام لدى الملك جيمس ، هو المدعى العام الأول فى قضية الخيانة العظمى التى قدم

فيها للمحاكمة السير ولتر رالى عام ١٦٠٣ . وكان لا يسمح للمتهم بالخيانة العظمى أن يوكل محاميا للدفاع عنه ، وكانت المحـــاكمة أشبه بمبارزة استغرقت اليوم كله بين كوك فى منصة المحكمة ورالى الواقف فى قفص الاتهام ، وقسوة كوك الظاهرة فى ادانة رالى لم تلبث أن أصبحت مثلا ذائعا فى الأوساط القانونية ، وكثيرا ما صادفت هذه العبارة فى صحف المحامين فى أمريكا وفى خارج أمريكا : « أيتها الحية الرقطاء ... وعنكبوت جهنم.. سأثبت أنك أحط خائن فى انجلترا » . كان دفاع سير والتر أشبه بصيحات وأنات لها طابع الشعر . وكانت الملكة اليزابث قد ماتت قبل عقد المحاكمة بثمانية أشهر ،امرأة عجوز فى شعر مستعار أحمر اللون . غير أن رالى وهو فى قفص الاتهام ، لم يذكر قط أنها عجوز . لقد تحدث عنها قائلا : كانت امرأة فاجأها الزمن. وسواء أكان سير والتر مذنبا أم بريئا ، فان كلمـــاته لا بد أن تهز المشاعر . لقد تحدث عن انجلترا وعن الاسبان وعن المعركة البحرية فى عبارات تليق بشكسبير .

وماذا عساى أن أفعل حيال هذا المشهد ، الذى يصور قســوة كوك ووحشيته فى جانب وجرأة رالى وشجاعته فى جانب آخر ؟ وسألنى أهل القانون فى فليت ستريت : وكيف لك أن تصورى الأمر . قلت ليس فى نيتى الا أن أقول الحقيقة سافرة وأروى القصة دون تنميق كما سردتها المصادر ، وأدع للقراء حرية الوصول الى وجهات نظرهم حولها . وأغرب شىء بدا لى فى قصة رالى هو شعور السخط البــادى نحــوه بين شعب انجلترا فى ذلك الحين . لقد كان سير والتر مكروها محتقرا ، ألقت الجماهير على عربته وهو فى طريقه الى المحاكمة الحجارة والطين وشبك التبــغ ، وصرح سجان سير ولتر بأنه كان محتملا أن يقضى عليه فى هذه الرحلة . وكان رالى يزدرى كل هذا ويهزأ منه : قال : « طالما نبحت الكلاب على من لا يعيرونها التفاتا » .

هل كانت كبرياء رالى هى ما كان يمقته الشعب فيه ، أم كان ارتقاؤه السريع فى سلم الثراء والسطوة تحت رعاية الملكة وفى ظل تأييدها ؟ لقد بلغ هذا الرجل العادى الذى نشأ فى دينون درجة كبيرة من الثراءالفاحش، وجمع من المال قدرا لا تحدثنا به غير الأساطير . وكان يقف بباب الملكة فى درعه الفضية يطرد الضارعين خاسئين فى صلافة وكبرياء نادرتين . قال عنه أحد معاصريه : « كان مغرورا غرور الشيطان » . وقيل ان الشعوب قد قتلت بعض الأمراء لتأدبهم — ولما لا يقتل العظام لكبريائهم ؟ وليس الأمر لغزا مغلقا ، ان حاولنا فهم الأسباب التى قربت رالى من الملكة . فلقد أسرها وخلب لبها ، لا لشىء الا لتلك الكبرياء التى كانت تسيطر عليه ، ثم لحيته ذات الخصل ، وصوته الرقيق الخفيض ولثغة لسانه الريثونية ، وخياله المكتئب الشرير الذى لا حدود له . ومما يذكر أن أشعارا قد كتبت وتغنى بها الشعب حول صلف رالى وكبريائه .

وألح أصدقائى من طلبة العلم فى معرفة السبب فى حبى للنهر . فسألونى قائلين : ماذا تفعلين على نهر التايمز فى مركباتك المائية ؟ لماذا لانراك فى دار الوثائق العامة فى الصباح بين طلبة العلم الآخرين ، أو مطلعة على الوثائق الرسمية الخاصة باليزابث وجيمس ، أو على تقارير اللجنة التاريخية ؟ قلت لهم ان علىّ أن أتعرف نهر التايمز ، علىّ أن أدرسه من جرينوتش حتى ديفورد حيث ترسو السفن ثم الى سنت بول والتمبل والى وستمنستر وساحة القصر القديم .

وكان علىّ قبل أن أقدم على الكتابة عن لورد كوك — ولو أننى لم أصرح بذلك الى الأساتذة العلماء — أن أرى كيف تظهر الشمس خلف وستمنستر آبى وفى كنيسة سنت مرجريت ، وعلى صفحة المياه الى الشرق تحت قلعة لندن الشهيرة . كان علىّ أن أشعر بوجود هذا النهر شعور

المواطن الذى عاش على ضفافه ، وأن أشعر بوجود البحر على مسافة غير بعيدة منه . لقد ولدت الى جوار المياه ، وأشعر بما يشعر به هؤلاء الناس جميعهم من احساس باتجاه الريح والتنبؤ بما يهدد به أو يعد به الطقس . وراقبت صفحة السماء وكف تبدو فى مختلف أوقات النهار فوق صفحة النهر . والسماء تظهر دائما ملبدة بالغيوم على نهر التايمز ، ودائما ما تعصف الريح ، وتبرق السماء وترعد بعد انهمار المطر . ويعيش الأمريكيون طوال حياتهم فى قارة شاسعة صلبة السطح . بيد أن سير ادوارد عاش على ظهر جزيرة من الجزر ، وقد أثرت الجزيرة فى دمه وفى عظامه كما تؤثر فى أى انجليزى ، وامتد أثرها فى كل دقيقة من دقائق حياته ، فى مأكله ، وفى نظرته الى سياسة حكومته الخارجية أيضا . وأذكر أحد الشبان الانجليز الذى اضطره عمله الى الاقامة فى الولايات المتحدة فترات طويلة . كان يحب الشمس غير أنه كان يضيق بها فى بعض الأحيان. كان يقول : « ان لنيويورك سماء صلبة زرقاء ... انى مشتاق الى الغيوم ، لقد ولدنا نحن الانجليز فى الغمام » .

والحقيقة أن زملائى فى الدراسة كانوا عطوفين علىّ الى حد كبير ، فى دار الوثائق الرسمية . وقد مهدوا لى السبيل الى الاطلاع على تقارير اللجنة التاريخية ، وعلى وثائق الدولة الداخلية ، وعلى تقاويم الوثائق الخاصة بالبندقية التى كانت تحوى الكثير مما يتعلق بموضوع بحثى والكثير من الطرائف أيضا . وكان هناك عالمان أمريكيان كبيران يطالعان فى ذلك الصيف ، وهما الأستاذان كوينرز ريد ولورنس جيبسون . واعتدنا أن نخرج معا بعد العمل للبحث عما نتناوله من الغداء فى شارع فليت ستريت القريب من دار الوثائق ، وكنا لا نكاد ننبس ببنت شفة أثناء تناول الطعام . بعد أن تكون أعيننا قد أجهدت من القراءة . وتساءل

الأستاذ ريد يوما ما قائلا : « لماذا نشعر بكل هذا الاجهاد فى دار الوثائق هذه ؟ » وكان فى هذه اللحظة يخلع نظارته ويمسح عينيه . قلت : « الأمر لا يعدو أننا فى ضائقة من الوقت » ... فلن تمضى لحظات حتى نكون جميعا فى وطننا بنسلفانيا ، وهناك نأسف لأننا لم نسرع فى انجاز عملنا » .

ان الشعور بالعجلة وضيق الوقت جعلنا أشبه ما نكون فى حلقة سباق . كانت الحجرة الدائرية فى دار الوثائق الرسمية أروع مكتبة رأيتها فى حياتى . ان بها مقاعد تسع ستين عالما ، وهم يجلسون عادة للكتابة أمام أنضاد طويلة على ضوء الشمس . ويرتدى أمناء المكتبة أردية بيضاء ، تشبه أردية أطباء المستشفيات المقيمين ، ويبدون حذقا ومهارة فى عملهم . وكان الطقس باردا رغم أن الشهر كان يولية والساعة الثالثة . وكنت أرتدى جوربين من الصوف وملابس داخلية صوفية وصديريتين ومعطفا للمطر لا أخلعها جميعها طوال النهار ، وكنت .. مع ذلك أشعر بالبرد . وتفتح الحجرة الدائرية أبوابها فى الساعة العاشرة . ولو تأخر المرء ربع ساعة عن ميعاد فتحها ، فلن يجد مقعدا واحدا خاليا ، وكنت أخشى دائما من أن يطلب منى أن أخلى مكانى لواحد من العلماء الزائرين ممن يبزوننى دراية وعلما ومكانة .

وكانت القاعة المستديرة تلقى فى نفسى رهبة دائمة منذ اللحظة التى أدخلها حتى اللحظة التى أغادرها فيها .

فلست أعرف مكانا مأهولا يسوده هذا الصمت المطبق . غير أنه كان هناك صوت غريب يصدر خافتا متقطعا ، كصوت الفأرة فى دجى الليل . ومصدر هذا الصوت هو الجلد الذى كان يكتب عليه فى القرن الثالث

عشر . اذ كان يفض ببطء شيئا فشيئا كلما تابع القارىء سطرا بعد الآخر على صفحة الجلد .

ثم ان المواد التى يمكن للمرء الحصول عليها فى الحجرة المستديرة مواد ثمينة نادرة الى حد يفوق التصور . وغير مسموح بالمطالعة لأحد الا بعد الحصول على شهادة معتمدة من السفارة التابع لها — ولا عجب من ذلك. فان مجرد التقليب فى هذه المجلدات مثير للمشاعر . وكنت أعلم أن تاريخ حياة كوك سيشمل أربع محاكمات رسمية بتهمة الخيانة العظمى ، وهى محاكمة ايسكس ومحاكمة رالى ، والثمانية المتآمرين فى قضية المفرقعات عام ١٦٠٦ ومحاكمة ايريل وكونتس سومرست (بجريمة قتل وفضيحة فى الأوساط العليا) . وبحثت عن اسم السير رالى فى فهرس خاص بمجلد الوثائق الرسمية الداخلية ثم عدت الى النص الأصلى . واستخرجت رقما حملته فى التو الى مكتب الأمين وما هى الا لحظات حتى كان بين يدى مجلد مغلف بالجلد يحمل عنوان : كتاب رالى . ومن أربطة منفصلة من المخطوطات قرأت القصة كما حدثت بالفعل . ورأيت خط يد سير ولتر . ورأيت شهادات قد أخذت من مسجونين ، كتبها أو وقعها النائب العام كوك ، تحمل اقتراحات وتوصيات كوك موجهة الى مساعديه القانونيين ليهتدوا بها فى قاعة المحكمة ، وتوضيحا لما يقرأون وما يهملون قراءته . ويا لها من اقتراحات مفزعة ! فبعضها يقول : « لا تقرأ هذه الفقرة » . وكانت هذه الفقرة تتعلق بالملك چيمس الأول ، ولم يكن ما بها مما تحمد ذكراه ولا يمكن بحال أن يذاع على أسماء الحاضرين فى المحكمة ، حيث قد ألصقت الذات الملكية أذنها الى أنبوبة سمعية لمتابعة كل ما يجرى فى المحكمة .

هل كان المحامون فى عام ١٦٠٣ يحذفون أو يغفلون ذكر كل ما لا يتفق

وقضيتهم ، فيلقى السجين حتفه لانعدام القرائن التى تقف فى صفه وتدعم قضيته ؟ ما من شك فى أنهم كانوا يفعلون ذلك . فهاك عبارة واضحة تقول : — «ولا تقرأ هذه الفقرة» وعندما بلغت فى قراءتي عام ١٦٠٦ وكان هذا هو تاريخ محاكمات — المفرقعات ، رأيت فى السجلات ما أثار دهشتى وأصابنى بذهول . رأيت توقيع جاى فوكيس قبل تعذيبه وبعد التعذيب، ولم تكن هناك حاجة الى خبرة بالخطوط فى عهد اليزابث لكى يتبين المرء الخلاف الواضح المفزع بين التوقيعين . لقد فاخر كوك فى كتبه المطبوعة بأن انجلترا ، بخلاف دول أوربا ، تعتبر التعذيب أمرا غير مشروع قانونا ، وهو يقول ان القانون العام لا يقره على الاطلاق .

بيد أنى أقرأ هنا أن فوكيس قد عذب بالمخلعة ، وأن الأب جيرارد ، الجزويتى علق بالاغلال فى جدار سجنه ، فى حين امتد استجوابه الى ثلاثة أيام ، ولكنه رفض الاجابة طيلة هذه المدة وأصيب بالاغماء فأنزل عن الجدار ، وعندما أفاق علق من جديد .

ودلنى بحثى الدقيق لكتاب كوك بعنوان « كتاب القوانين » انه قد أمر باجراء هذا التعذيب بناء على سلطة الملكة والامتياز المخول لها لا بناء على القانون العام . وفضلا عن ذلك فلم يكن الغرض من التعذيب العقاب لذاته بعد المحاكمة والادانة ، بل أريد به تأكيد استجواب المشتبه فى أمرهم الذين يلقى عليهم القبض حديثا . والخلاصة أنهم يقصدون أن هذا كان تعذيبا يتم بأمر الملكة وتحت رعايتها ، من أجل الدفاع عن المملكة ولأسباب يسميها الناس « أسباب تتعلق بالدولة » . اما عن حقيقة أن كل ذلك لن يخفف البلية على السجين ، فقد تغافلوا عنها كلية . ان « تذوق المخلعة » كان يعد أمرا مرغوبا فيه لو ثبت عناد المشتبه فى أمره . وكثير ما يحدث أن يكون مرأى المخلعة كفيلا بحمل المتهم على الاعتراف . وشعرت وأنا

جالسة فى الحجرة المستديرة والوثيقة بين يدى ، بألم فى معدتى واضطراب كبير . لقد كان العنف السائد فى هذه الأزمنة مخيفا مرعبا . الى أى وهدة سقطت فى هذه السيرة عن كوك ؟ هل كان البشر قساة بطبيعتهم ؟ أم أن العصر كان يتطلب مثل هذه القسوة ؟ وهل حقا أننى قد عشت هذه الأعوام الطوال على اعتقاد كاذب بأن العالم الغربى يعيش فى ظل القانون ، على حين أن المتسلط عليه هو العاطفة والكراهية والخوف ؟ هل هذا هو الدرس الذى يلقننا التاريخ اياه ؟ لقد نصحنى تشارلس بيرد مرة قال :

« يجب أن تكون معدتك قوية يا سيدتى لكى تدرسى التاريخ .وتأملت أيضا عبارة لورد اكتون التى تقول : « ما من قس ألف الاعترافات تلقى بين يدى ، وما من مؤرخ يحسن الظن بالطبيعة البشرية . »

وكيف استطاع السير ادوارد كوك أن يبقى على قيد الحياة وسط كل هذا العنف مدة اثنتين وثمانين سنة ، اذ مات ميتة طبيعية فوق فراشه فى ستوك بوجيس ؟ هل كان ذلك عملا من أعمال القوة والبأس ؟ أو كان حظا سعيدا محضا ؟ أو كان نتيجة لدهاء كوك ومكره ؟ كان من واجبى أن أكشف عن ذلك وسط هذه الدوامة من المؤامرات ، والمؤامرات المضادة ، وهذا الخضم الزاخر من الخيانة والفضائح الذى كان طابع العصر فى ظل حكم ستيوارت لانجلترا . وتذكرت الشفرة التى وضعها لورد برجلى قرابة سنة ١٥٩٠ . وكانت اسبانيا قد أنفذت الى انجلترا حملة بحرية مؤلفة من ثلاثة أساطيل خلال العشر السنوات التى تبدأ بهذه السنة ، وما ان ازدادت جحافل الجيش حتى بحث برجلى عن ألفاظ للشفرة فى كل حى وجماد مبتدئا بالمملكة الحيوانية ومنتهيا بالأبراج الفلكية . فعرف ملك اسبانيا بالعقرب « والامبراطورة بالشك » ولقب الأب بارسونز الجوينى هو حيوان « ابن مقرض » .

وكان يجب أن يحمل عنوان سيرة كوك لفظة الخيانة ، ولعلى أعنون كتابى : « الخيانة والسيادة والقانون العام » . وتركت الحجرة المستديرة فى دار الوثائق الرسمية وسرت فى طريق تشانسرى ، ثم خلال فليت ستريت ، ثم الى رام آلى فحدائق التمبل ، ومن هناك قصدت الى المرسى وجلست على مقعد مرتفع بين مجموعة مختلطة من الشخصيات المحببة التى تفوح من أفواهها رائحة الخمر . وكنت أرقب مجرى النهر الشاسع الداكن اللون يتدفق أمامى والريح تعصف على سطحه ، والقوارب وسفن النقل رائحة غادية على صفحته . وتذكرت هؤلاء البؤساء الذين كانوا يلقون فى سجن التمبل — كان كوك يقوم باستجوابهم ، لا مثنى مثنى ، بل مئات مئات . لقد كان يقضى ليله ونهاره فى هذا العمل . وقد أرخ رسائله التى كان يبعث بها الى وزير الدولة ونوود بالتاريخ التالى : « من القلعة والساعة الثالثة صباحا » . وقفزت الى ذهنى فكرة بذيئة حدثتنى بأن كوك لا بد أنه استعذب هذه المهمة .

هل كان سير ادوارد كوك رجلا عظيما ؟ قلت لنفسى سأعلم ذلك عندما أنتهى من كتابى . ان صيغة « الرجل العظيم » فى التاريخ لا يمكن تحديد معالمها بالضبط . فالأذواق تتغير بتغير العصور . فبعض الأجيال تعبد قديسيها الشهداء ويأتى الجيل التالى فيرغب بكل جوارحه الى القواد العسكريين . غير أن الناس لا يلبثون أن يضيقوا بالقواد العسكريين ، فهم متناهون فى الصلابة والصرامة . وتتجه الأنظار الى أشخاص أقرب الى الواقع — فيختار واحد مثل لنكولن بوجهه المكفهر وجبينه المقطب من فرط حكمته . ويحدث مرة أو مرتين كل ألف عام أن يعتبر العالم واحدا من فلاسفته بطلا ، غير أن ذلك لا يحدث قبل أن يطمئن الى أن التراب قد واراه منذ ستة أجيال على أقل تقدير . وكيف كانت معالم

شخصية كوك ؟ ان كوك لم يخلف لنا أية رسائل شخصيـــة ذات بال ، وهكذا نجد أن المذكرات والرسائل والسجلات المنزلية التى يعتمد عليها كتاب التراجم الى حد بعيد غير موجودة .

بيد أن كتب القانون التى وضعها كوك — وهى كتاب القوانين الذى ينقسم الى أربعة مجلدات ، والتقارير القانونية التى تستغرق ثلاثة عشر جزءا — تكشف عن شخصيته فى كل سطر منها . لقد أخذ اللورد بيكون على كوك هذه الزلة ؟ قال بيكون ان تقارير كوك تنطوى على الكثير مما يخرج عن حدود اللياقة ، الكثير من الأحاسيس الفردية الذاتية . ويحدث أن كوك فى سرده لقصة قانونية لا يلبث أن يطغى عليه احساسه ، فيتوقف عن السرد قائلا : « والخطب الجلل الذى أسفرت عنه هذه الحادثة ، أدع مهمة الحديث عنه للمؤرخين ، لأنى أغتم وأكتئب كلما أذكره » . وكانت الملكة اليزابث قد ماتت منذ وقت طويل قبل صدور كتاب القوانين لكوك، غير أنه يذكرها فى حماسة . ولم يكن هناك من انسان يحمل للقانون ما كان يحمله كوك من شغف ووله ، فقد كان كوك يتحدث عن القانون كما كان يتحدث ستدنى أو دريك أو رالى عن مجد انجلترا كمـــا كان حب كوك للقانون وشغفه بالعلم شيئا واحدا . لا يمكن أن يوجد أحدهمـــا دون الآخر . قال فى صراحته التى عرفت عنه : « حقيقة انى كنت راغبـــا على الدوام فى أن أستزيد علما . وانى مدين لمهنتى بجانب كبير من الدراية التى لم أستطع أن أجنيها من جهدى الصادق فى الدرس والبحث » .

ولا يسمح كوك فى هذه الكتب التى وضعها فى القانون ، بأن يكون القارىء فى شك ولو للحظة واحدة من ميول كوك السياسية . فهو حين كتب عن سلطة المحاكم المشروعة ، ذكر ان أعظم قاعة للمحكمة على الاطلاق هى البرلمان — كما أن البرلمان الذى عقد فى العام الثالث من عهـــد سيدنا

وعاهلنا الملك تشارلس كان برلمانا مباركا والأسباب ما زالت عالقة فى أذهاننا .

وكانت هذه هى الحال حقا فان الذكرى ما زالت ماثلة فى أذهان كل من يعيش اليوم فى ظل تقاليد القانون العام البريطانى . وكان هذا البرلمان الذى تحدث عنه كوك هو البرلمان المنعقد سنة ١٦٢٨ الذى رفع الى الملك تشارلس الحاقد الملتمس الشهير المعروف بملتمس الحقوق . وقد كان نموذجا احتذاه مؤسسو أمريكا الأوائل ، فى وضعهم للاحتجاج الذى رفعوه الى الملك جورج الثالث . وكان كوك هو الروح المحركة لهذه المظلمة ، وكان قد بلغ من العمر اذ ذاك ستة وسبعين عاما .

وسألنى المحامون فى فليت ستريت قائلين : « ولكن هل تحبينه ، هل تحبين لورد كوك ، ذلك البخيل العجوز ؟ » أجبت : وما بالكم تسألوننى ؟ وما شأن حبى أو كرهى له ؟ لقد كانت شعلة النشاط تستعر فى عروقه ، كان قويا أمينا ، وكان حقيقا بالاجلال . لقد وصفه كارليل بأنه قاس فقال عنه « كوك الكهل القاسى » . ولكنه كان قاسيا وعادلا . بيد أن كوك لم يكن قاسيا على الدوام . وقد أيقنت ذلك ، فهناك حادثة وقعت له بعد زواجه ، حادثة صادفت ذكرها فى الحجرة المستديرة ، كان كوك فى سن السادسة والأربعين عندما توفيت زوجته الأولى ... بريجيت باستون الطيبة التى أنجبت له سبعة أولاد . ولم يمض وقت طويل على وفاة بريجيت حتى تزوج بليدى هاتون ، التى كانت فى سن العشرين . واحتفظت ليدى هاتون بلقبها واسمها . (وما الداعى الى أن تهبط بمستواها بعد كل هذا السمو لكى تصبح مسترس كوك فحسب ؟) ولم تكد تنقضى خمسة أشهر حتى قضى على هذا الزواج ، وعلم أهل لندن جميعهم بالأمر وبدا كوك وهو ماض الى عمله بعباءته السوداء التى يرتديها النواب

العموميون وكأنه قد أصابه مس من الجنون . واطلعت على تقرير باسم مارى برهام . كتب فى شهر ابريل من عام ١٥٩٩ يقول : « ولم يكن غريبا أن يبكى السيد النائب العام وهو جالس بين القضاة ، لأنه منذ أن قضت زوجته وهو يمضى رائحا غاديا كالجثة بغير روح ، فى هم وكرب بالغين » .

قيل كوك الكهل القاسى . ولا بد للرجل من القساوة وهو يقضى حياته بين هذه الصحبة . كنت أفكر فى كوك وأنا جالسة فى مكان مرتفع يطل على نهر التايمز . وكنت أفكر فى القلعة وفى السجناء . هل قضى بألا أعثر على كلمة عاطفية حانية كتبها كوك بخطه ، لا تخاطب القـــانون بل تخاطب انسانا ما ، شخصا له به صلة وثيقـــة ؟ ثم ما الدافع الى حبى له ؟ ... والحقيقة أنى أحبه ... هكذا كانت تجرى مذكراتى . ومن الخطل الاعتقاد بأن كوك كان يستمتع بعذاب هؤلاء التعساء المصفدين بالأغلال . لقد نعى فى كتابه عن القوانين قسوة الاجراءات الجنائية فى القانون الانجليزى .. « لو أن هناك بصيصا ضئيلا من النعمة أو الكرم فى الانسان لدمى قلبه شفقة وألما » .. ثم انه من العبث أن نحكم على لورد كوك بمقاييس العصر الحاضر فان الأنسان يعمل فى اطار زمنه ، وهذه من القواعد الأساسية فى كتابة السير ، وهذه قاعدة صعبة التطبيق . هل كان هذا هو ما قصـــده الأساتذة العلماء فى وطنى حين قالوا « بالتحيز فى العرض ؟ فاذا كان الأمر كذلك فانى أقدم لهم اعتذارى » .

الخيانة ! ان هذه اللفظة والحقائق التى تحيط بها قد تكون مفتاح فهم الأسباب التى دعت الى وصف كوك التقليدى بالقساوة — فليس هناك فى قائمة القضايا الجنائية ، جرم أدهى وأشد غموضا وأغلق على الفهم من هذا الجرم ، وليست هناك من جريمة تثير مشاعر الانسان مثل هـــذه الجريمة . ولقد ابتليت البلاد — منذ الوقت الذى ولد فيه كوك الى أن

مات قبل أن يتزعم كرومويل الثورة فى انجلترا بسبع سنوات — بالاعتداء فى الخارج والخونة فى الداخل . كان هناك الخونة الحقيقيون ، والخونة الوهميون الذين كانت الدولة تعذبهم أو تحطم كيانهم أو تجزيهم ، ثم كان هناك من يسمون بخونة الدين الذين كانوا يرغبون فى أن يتولى كاثوليكى عرش انجلترا ، ودعوا مطلبهم هذا « التسامح فى الدين » . وتذكرت السؤال الاجرامى الخطير الذى كان يوجه الى الجزويت أثناء محاكمتهم : لو أن البابا قد جرد حملة ضد انجلترا فالى أى جانب تحاربون ؟ أتحاربون الى جانب روما ، أم الى جانب انجلترا ؟ فى صف البابا أم فى صف الملكة؟.

ولم يكن فى وسع الكاثوليكى المخلص وهو فى الوقت ذاته رعية انجليزية يكن الولاء لانجلترا ، أن يجيب على أى نحو عن هذا السؤال . ولقد وجه اللورد كوك هذا السؤال مرات ومرات . ولم يستغرب قط الاجابات التى حصل عليها . فقد كان الجزويت من المتحدثين اللسنين ، كما أن دربتهم كانت عظيمة . كتب كوك عنهم يقول : انها آراء غريبة تلك التى تصدر عن هؤلاء القساوسة الصبيان وهؤلاء الآباء الرعاة الشياطين . ولكن هل كان هذا السؤال بأقل جرما من الأسئلة التى يوجهها « المحققون » فى هذا الصيف من عام ١٩٥١ ؟ وغادرت مقعدى على الشاطىء ، ومشيت متجهة صوب الغرب بازاء التايمز حيث كانت تشاهد أبنية البرلمان شامخة ترتفع فى كبد السماء .

وتذكرت أبناء وطنى أعضاء مجلس الشيوخ . لقد أقدم هؤلاء وقد استولى عليهم الذعر من روسيا والشيوعية على سلسلة من المطاردات والتحقيقات ، التى كانت تدين العاطل بالباطل وتأخذ البرىء بجريرة المسىء ، فيقاضى رمنتجتون لحنثه بالقسم ويلقى بألجرهيس فى غياهب السجن ، ويطرد أعضاء هيئة التدريس بالجامعات بالعشرات لرفضهم

الادلاء بأسماء أصدقائهم الذين يشتبه فى عطفهم على الشيوعية ... وتقض مضاجع أشخاص عاديين اذ يستدعون لحلف يمين الولاء — هذه اليمين التى اعترض عليها أبناء وطن كوك بشدة « يجب ألا يحاكم انســان من أجل الأفكار التى تجول بخاطره ، فان الشيطان نفسه لا يعلم بما يجرى فى خلد الانسان . ولقد صرح قاض انجليزى بهذه العبارة قبل عهد كوك بزمن طويل . ولقد كانت الحجة الرسمية التى يتذرع بها لمثــل هـــذا الاستجواب فى عهد سير ادوارد هى « الأسباب التى تتعلق بســلامة الدولة » . ولقد احتج كوك فى البرلمان على هذه العبارة مغضبا محنقا . قال : « ان الأسباب التى تتعلق بسلامة الدولة تحد من عمل « العهــد الأعظم » وتشل من حركته . أما فى أمريكا فقد اختلفت الأسباب . غير أن قسوة الاستجواب ظلت واحدة . ان الشعب يشتم رائحة الخيانة فى كل ركن بعد الحروب أو الثورات . لقد تألق نجم ماكارثى الداعى الى العنف .

وليس من حق كاتب التراجم أن يعقد المقارنات التاريخيــة غير أنه يدركها مع ذلك ، وهى تجذبه عادة الى متعة البحث والاستقصاء حــول الموضوع الذى يتصدى له . لقد كان كوك فى حاجة الى الشدة والقسوة . لقد عرفت هذه الحقيقة داخل لندن وخارجها .

ولكن كيف تعود سير ادوارد هذه الصفة ، ومن أين أتته لأن الشخص لا يولد وقبضة يده مشدودة تهدد وتتوعد . أو أنه كان فى الحقيقة كذلك. هناك أسطورة تروى عن مولد كوك — كيف كانت أمه تجلس فى الطابق الأرضى فى يوم من أيام شهر فبراير الباردة ، تتدفأ الى جوار نار موقدة ، عندما دبت آلام الوضع بجسمها وقبل أن تفعل شيئا غير النهوض من جلستها كان الطفل قد ولد . وكان يطيب للريفيين من أهل المنطقة المجــاورة أن يقصوا هذه القصة ، بعد ذلك بفترة طويلة عندما تألق نجم كوك وذاع

صيته . وظنوا أن فى الأمر شيئا ، فان الرجل القوى يقفز طفلا الى جوار المدفأة دون سابق انذار مطلقا صيحاته الغضبى المحتجة .

ورأيت وأنا واقفة أستند الى الحاجز محدقة فى النهر الى حيث يرتفع القصر الملكى سامقا أن من المستحسن أن أزور نورفولك ، وهى البلدة التى ولد فيها كوك وأشهد بنفسى البقاع الهادئة التى شب بين ربوعها .

« نور فولك ، بلدى العزيز ومسقط رأسى »

كوك : من كتاب القوانين (الجزء الاول)

انها بلدة وعرة عاصفة تلك التى ولد فيها كوك . فترى فيها طيور البحر تحوم فوق المزارع صائحة ، وترى الغمام منحدرا من يارموث . وترى حيوانات « الصيل » المائى فى الجرف الواقع جهة الشمال الغربى تتزحلق أو تستلقى معرضة أجسامها لأشعة الشمس ، وعلى طول المجارى المائية الداخلية الشهيرة تشق القوارب وسفن النقل طريقها ، وتخرج ثعالب البحر زاحفة عند قدوم الليل لتجوب الشواطىء باحثة عن طعامها . ويكتنف المحيط ثلاثة أرباع بلدة نورفولك ، وتطلق الترع فى حرية كما تسبح الحيتان على هواها قادمة من جزيرة جرينلاند . اما فى كرومر الواقعة على بحر الشمال ، فيرى المستحمون يتسابقون على الحصى والريح المبتلة تهب عاصفة ، وهو أمر لا يقوم عليه غير الاسكيمو والانجليز ، ولا تبعد لندن عن هذا المكان بأكثر من مائة ميل الى الجنوب ، غير أن الفارق بين أحوال هذه وتلك من حيث المناخ وطبيعة الأرض فارق كبير .

واستأجرت عربة صغيرة من أحد المتعهدين فى بيكاديلى ، وخرجت من لندن متخذة الطريق الشمالى الشرقى قاصدة عبور حدود سافولك عند مدينة ثتفور القديمة . وما كنت أبحث عنه فى هذه الآونة ، هو ما يتصل بنشأة كوك الأولى ، وما يتعلق بطفولته . وكل ما استطعت الحصول عليه كشف عن أحوال والديه ، والمساكن التى تربى فيها حتى شب عن الطوق ، والمدرسة التى تلقى فيها قواعد اللغة اللاتينية . كنت قد

زرت فى لندن ولامبث وبكنجهام شير ، المشاهد التى أحاطت بكوك فى أواسط حياته وفى شيخوخته ، وكانت هذه المشاهد متعـددة الجوانب معقدة البناء ، تنطوى على مسحة من العظمة والجلال ، وتنم عما فى حياة عظماء الرجال من جليل الأحداث ... فرأيت مثلا مجلس العموم البريطانى فى احدى جلساته وقد جلس الأعضاء فى صفوف دائرية يواجـه بعضهم بعضا . كما كانوا يفعلون تماما عندما كان كوك رئيسا لمجلس العموم ، على هيئة فرقة « جوقة » كنسية على وشك الترتيل ... وشاهدت قصر كوك الريفى فى سلوك بوجيس حيث قضى نحبه ، وأسلحة هاتون معلقة فوق المدفأة والبوابات الهائلة فى الحديقة يزينها شعار كوك .

وكنت أسعى فى نورفولك وراء أحوال مغايرة تماما لما ذكرت ، وعن صفات وخصائص تختلف عن تلك كل الاختلاف — وهى أحوال كانت سائدة قبل أن تحل بزمن طويل تلك الملكيات المنكوبة التى رأسـها الملك جيمس والملك تشارلس الأول .

ولقد قيل ان العصر الحديث قد بدأ منذ السنوات الأخيرة من حياة الملكة اليزابث . ولكننى سرت الآن الى ما وراء العصر الحديث ، عائدة الى العصر الاقطاعى ، الى تلك الأزمنة العصيبة التى سايرت عهد الملكة مارى تيودور ، التى تبوأت العرش فى السنة التى ولد فيها كوك ... واعتقادى أنها كانت أتعس ملكة حملت فى الوجود على رأسها تاجا . وكانت الأحوال السائدة فى نورفولك ابان طفولة كوك ما تزال تحتفظ بكثير من مظاهر العصر الوسيط بالنسبة للأرض . فكان هناك العبيـد والاماء فى المزارع الاقطاعية . وكان اللورد يعقد محكمته فى القاعة العظمى ، حيث يفصـل فى القضايا . وكانت ثلاثة أرباع بريطانيا الى جانب ذلك ، ما زالت تدين بالكاثوليكية الرومانية ، ولم تكن حركة الاصلاح الانجليزية قد استجمعت

قواها بعد ، ولم تكن قد أسفرت بعد عن اراقة الدماء وأعمال الارهاب واستشهاد أبطالها ورجم قديسيها . ولم يكن أثرها قد ظهر بعد فى قانون انجلترا العام .

ولم يشهد شباب كوك ورجولته الأولى ثورة فى النظـرة الى الدين فحسب ، بل ثورة فى النظرة الى الأرض وملكيتها . فقد تدفق «الأغراب» كما كانوا يسمون ، الى نورفولك من قناة ضيقة الى ميناء يارموث . وكان هؤلاء من أهـل انتويرب وامستردام من الوالوانيين والهولنديين الذين توصلوا الى اقامة السدود على مستنقعات نورفولك ، والى غزل الصوف الذى جلب الثراء على نورفولك ورفع من شأن بلدة نوريوتش عاصمتها بحيث عدت المدينة الثانية فى انجلترا .

لقد فاخر كوك بقوله : « وهى تبلغ اتساع لندن من الداخـل » . وكانت الأغنام تلتهم العشب فى الأراضى العامة وتحرم الفلاحين مما يسد رمقهم . وشـهدت نورفولك الثـورات المسلحة يوم حطمت الأسـوار وأصبحت الأغنام ترعى الأعشاب فى مراع كانت فى الأصل أرضا زراعية ، وجرى اعدام الأهلين بشنقهم بالسلاسل الحديدية المعلقة فى أسـوار نورويتش القديمة ... ومضى قرنان وأصبحت الأغنام ، بعد أن كانت نقمة على الفقير نعمة له . ونال سليل كوك شهرة كبيرة فى القرن الثـامن عشر للتجارب التى أجراها فى تربية الأغنام . وكان هذا السليل يدعى « كوك النورفولكى » . ولقد تردد ذكره كثيرا على سمعى منذ حلولى بانجلترا .

وجعلت من مراحل رحلتى الفعلية زيادة دور سير ادوارد ومزارعه فى نورفولك ، والمدرسة التى كان يتعلم فيها عندما كان صبيا فى نورويتش ، وكتبه ومكتبته فى قصر هولكهام فى البحر الشمالى ، وقبره فى كنيسـة نيتيلشال بالقرب من قرية ميلهام ، حيث ولد . وكنت أريد أن أشـاهد

قلعة برانشفلور القديمة التى ترتفع على تل شاهق ، ودار المقاطعة القريبة منها حيث استودع كوك عام ١٦٠٧ أصدقاءه القدامى ومواطنيـــه فى نورويتش بعد أن عين قاضيا قائلا لهم : « لأن من يصبح قاضيا لا يعتبر بعد ذلك صديقا ، فليس فى القضـــاء معـــارف ولا ذكريات للماضى ، ان الصداقة الماضية أو المقبلة تؤثر فى الحكم » .. وقيل لى ان هناك لوحـــة قديمة للسير ادوارد فى قاعة النقابة فى نورويتش ، رسمت له عندما كان شابا ، وتقول الوثائق ان دار كوك فى نورويتش مازالت قائمة على نهر ونسوم ، نصفها على طراز العصور الوسطى بناه آل باستون ، والنصف الآخر على النمط الاليزابثى ، وهو الجزء الذى أضافه كوك .

وكنت أريد أن أشاهد الدار الريفية الجميـــلة التى تدعى بليكلنج ، والتى بناها صديق كوك وزميله فى القضاء ، سير هنرى هوبارت ، ورغبت فى أن أسير بحذاء الصخور المحاذية للمحيط بالقرب من كرومر ، حيث كانت لكوك ووالده بعض الممتلكات .

وكنت آمل فى سعيى هذا أن أعثر على أكثر مما وعدت به الوثائق ... كنت آمل فى العثور على موقعة ترجع صدى أشياء لم تذكرها الوثائق . وكنت قد رسمت لنفسى خلال الأسابيع التى قضيتها بانجلترا ، صـــورة للماضى لعلها صورة واهمة ، ولكنها على أية حال ذات فائدة . وقد بت أنظر للتاريخ على أنه دائرة تتألف من قوسين عظيمتين . القوس السفلى هى الماضى والقوس العليا هى الحاضر الذى ينمو على أســـاس من الماضى . وليس للمرء أن يتفهم التاريخ ويعقد صلة قصيرة حية بالماضى الا عنـــدما يتلامس طرفا هاتين القوسين .

لقد كانت هذه فكرة خيالية ، ولكنها كانت بالنسبة لى هى العمـــل الحقيقى الذى لا جدال فيه . وقبل أن أعبر حدود نورفولك عثرت ، بعد

محاولات يائسة ، وبعد أن ضللت الطـريق بعربتى مرات ومرات ، على دار كوك الريفية القديمة فى هنتجفيلد ، حيث عاش فى سنى رجولته الأولى وحيث ولد له كثيرون من أبنائه . وكانت الدار فى عهد كوك بديعة ساحرة، فالقاعة العظمى كانت مقامة حول أشجار بلوط حية كانت تحمل السقف كلما نمت . أما على فروعها وأغصانها فقد كان رماة السهام يعلقون أقواسهم قبل أن يهرعوا لتناول الغداء . ولم يكن هناك أى أثر للدار القديمة عندما جئت الى هذا المكان . وشاهدت فى مكانها فيلا شائهة بنيت من اللبن يقطنها زوجان شابان قد استأجرا الثلاثمائة الفدان وعملا فى فلاحتها .

ولكنى عندما تجاوزت أثاث المنزل الذى صنع بوساطة الآلات وحجرة المطبخ الحديث ، وخرجت الى الأرض العشبية المرتفعة التى كانت فى زمن كوك ، شاهدت القطعان رابضة فى المستنقعات الموصلة الى أسفل الهضبة ، حيث كانت قطعان كوك تقف دون شك وعلى هذه الصورة منذ أربعة قرون . ورأيت على القناة الصغيرة القنطرة المقوسة التى قرأت عنها . وقال لى المزارع الذى صحبنى : «تعالى معى نصعد الجبل ، فسترين عجبا» وكان هذا المزارع طيارا متقاعدا فى سلاح الطيران ، فى العقد الرابع من عمره وكان يتميز بشارب أحمر كبير ، وعينين زرقاوين نافذتين ، وضحكة عالية محببة لم أسمع مثلها قط فى حياتى . ويبدو أنه عندما بذر شوفانه فى احدى السنوات لم تلبث أن نمت على هيئة دائرة هندسية .

وكانت هذه البقعة منذ عشرة قرون موضع معسكر للانجلو ساكسونيين ... وأطلعنى المزارع على ما جمعه من القطع الأثرية والشقافات فى سلة عنب . وكان المسئولون فى متحف نورويتش قد أكدوا له أن هذه آثار ساكسونية أصلية . وقلت له بدورى : « انه على بعد مرمى السهم من هذه الدار كانت هناك شجرة بلوط جاءت لزيارتها الملكة اليزابث وجلست بها وكانت تصيد الغزلان بقوسها » .

وأومأ المزارع دون أن يضيف شيئا ، ثم اقتادني نجتاز أربعة حقول . وكانت شجرة البلوط هذه عظيمة الضخامة عند قاعدتها . أحدثت بجذعها عواصف الزمن شقوقا . كما كانت فروعها الكبيرة مهشـــمة . وكان من الواضح الجلى أن عمرها لا يقل عن أربعة قرون بأى حال . وأخرج المزارع منشاره وقطع لى لوحا كبيرا من الخشب ، أطول مما تستوعبه عربتى . ونفذ اللوح فى ظهر السيارة عندما سرت بها . (وعندما شــاهد موظف الجمارك فى نيويورك هذا اللوح قال لى انه لا يهمه أمر الملكة اليزابث . ولكنه سيسمح لها باصطحاب هذا اللوح ان كانت تهتم به كل هـــذا الاهتمام) .

هذا هو الحاضر والماضى ، هذا هو اليوم والأمس . ولو أن الآثار التى تشبثت بها كانت مدعاة للسخرية الا أنه يجب أن نضع فى أذهاننا أننى لم أحاول فى رحلتى الى نورفولك أن أسعى وراء المعابد المتداعية التى كانت تعبد لجمال بنائها . أو وراء لوحات فنية اجتذبت الناس لما فيها من حذق وأبداع . بل كل ما سعيت اليه هو تلك الأشياء التى تحمل شبها كبــيرا للماضى وما تثيره هذه من شتى الأخيلة والأحاسيس .

وعثرت على مدرسة كوك الثانوية فى الكاتدرائية القريبة من نورويتش. فى ظل المسلة العظيمة التى تشرف على المدينة . وكانت هذه المدرسة قبل زمن كوك بمائة عام كنيسة أحد الأديرة . كان الرهبان يقيمون به المقدسات على أرواح الموتى . أما الآن وفى منتصف القرن العشرين فانهــا ما زالت تستخدم على الدوام . كما قال لى ناظر المدرسة ، ولو أن الوقت كان عطلة ، وكانت الحجرة خالية من الطلبة . وتبين لى وأنا أقف عند مدخل الحجرة، وأشعة الشمس الباهتة تتسلل اليها من نوافذ مقوسة ضيقة ، أن الأمر لن يتطلب منى قوة خيـــال أو تصور لكى أصف هذه الحجرة فى كتابى .

وما كان على فى هــذه اللحظة غير اخراج قلمى وتدوين أبعاد الحجرة كما أراها .

ولكننى تساءلت عما اذا كان كوك قد لقى فى هـــذه المدرسة من أساتذته تعنيفا وضربا . ان القصص التى تروى عن التلاميــذ الانجليز الذين كانوا يضربون بالسياط فتدمى أجسادهم ، تثير الرعب حقا . لقـد قرأت أن كثيرا ما تخرق طبــلات الأذن عند هؤلاء التعســاء أو عن صبى أرسل الى بيته فى ايتون مكبلا بالأغلال يصحبه كلبان من كلاب الصيد .

وقد قص علىّ صديق انجليزى فى متعة ظاهرة قصة العلقــات التى تعرض لها وهو فى المدرسة ، مضيفا أن العلقة التى كانت مصدر خير له ، لم يكن يستحقها قط ، وأنه ضرب من أجل جرم لم يرتكبه قط . وأضاف هذا الرجل قائلا ان الحياة تكيل للانسان قبل أن يعركهــا صفعـــات لا يستحقها ، ولعله من الخير أن يدرك المرء منذ البداية أن العــالم قاسى كثيرا وأن معظم صنوف العقاب التى يتوقعهــا على البشر ليست عادلة . ولكن الجروح لا تلبث أن تندمل حتى وان كانت غير عادلة ، ولا تلبث الأنسجة الحية أن تنمو حول آثار الجروح .

وقد يكون من العسير فى بعض الأحيان أن يقرر المرء أيصبح العــالم عالما لأنه تلقى من التعليم ما يؤهله لذلك ، أو أنه يصبح عالما برغم ما يتلقاه من تعليم .

ولقد كان اللورد كوك عالما أصيــلا ، الأمر الذى لم ينكره أعداؤه أنفسهم . بيد أن عالم الدراسة كان خلال السنوات التى قضاها كوك فى المدارس الثانوية وخلال الثلاث السنوات التى قضاها بجامعــة كمبردج مشغولا بالخرافات الدينية الصاخبة . والمعارك الناشبة بين الكنيســـة العليا والكنيسة الدنيا . ولقد شهد كوك وأصدقاؤه تماثيل القديسين فى الكاتدرائية تهشم وتحطم . لقد قيل لهم ان اللغة اللاتينية هى لغة السادة

وان عليهم أن يتعلموها ، ثم حرم عليهم قراءة صلواتهم باللغة اللاتينية لأنها كانت تفوح برائحة روما والكرسى البابوى . وكانت كل من نورفولك وكامبريدج شاير من أقوى مراكز البروتستانتية وأعتاها .

وكان الشهداء يحرقون فى عهد الملكة مارى بانجلترا فى خندق خلف أسوار نورويتش . وكان أسقف نورويتش ذاته واحدا ممن نفتهم الملكة مارى ثم سمح لهم بالعودة الى أرض الوطن . وعندما توفيت الملكة مارى وخلفتها علي العرش الملكة اليزابث البروتستانيته شرعت نورويتش فى أن تنتقم لما أصابها من عسف واضطهاد .

ولكن كم هى ساحرة خلابة تلك القوس الكبيرة الهائلة التى تظهر عليها الكاتدرائية . وتلك القاعة الداخلية الممتدة ذات العمد الرخامية التى تدخل الروع فى قلوب الناظرين . (لقد كتب چون آدمز يقول : انى لأعجب كيف انتزع لوثر سحر الديانة الكاثوليكية) . ولم أشعر فى أية كاتدرائية من كاتدرائيات انجلترا بقوة صراع حركة الاصلاح وعنف نضالها ورهبة المعركة التى كانت تخوضها مثلما شعرت فى كاتدرائية نورويتش . ولعل مرد ذلك أنى قضيت فى هذه الأخيرة الساعات الطوال وأمضيت وقتا طويلا فى التريض بمفردى فى فناء الكاتدرائية . ولم يكن اللورد كوك من البيوريتان المتزمتين ، بل كان رجلا عظيم الولاء لكنيسة انجلترا .

ولم يكن الاضطهاد الدينى فى نظره شرا الا اذا كان مصدره الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أو الكنيسة «الاسبانية» ، وقد أصبحت الصفتان مترادفتين .

ولم يكن مبدأ «التسامح» فى نظره الا مطية المستضعفين المتخاذلين ، لأن على الحكام والقضاة أن يدعموا قوة الدولة ضد الأعداء ، وضد الأساطيل البحرية ، وضد تسلل ارساليات اليسوعيين فى الداخل . ولو

تيسر لى أن أقضى سنة فى نورويتش وأن أرى هذه المدينة الجبلية بالنهار وبالليل ، فى الغمام وفى ضوء الشمس ، فى الصيف وفى الشتاء وأن أسمع الأجراس تدق كل واحدة فى هذه المجموعة من الكنائس لكان فى وسعى دون شك أن أتفهم حقيقة ما تلقاه كوك فى مقتبل حياته من تعليم . وطريقتى فى ذلك ستكون استيعاب الماضى شيئا فشيئا فى ضوء ما أرى وما أسمع من الحاضر .

بيد أن كوك لم يكن ابن المدينة ، بل كان ابن الريف ، اذ كان يقضى عطلته الصيفية الطويلة فى بيرجوود وهى الضيعة التى يملكهـا أبوه فى أبرشية ميلهام ، التى تقع على بعد خمسـة وعشرين ميلا غربى نورويتش وعلى مسافة مماثلة الى الجنوب من مستنقعات هولكهام وبحر الشمال . وأرسلت الى نورويتش تحية الوداع واتجهت بعربتى الى الغرب . وكان المحصول قد جمع معظمه من الحقول ، وكان الهشيم مصفرا ،كما غطيت جوالق القش استقبالا للشـتاء . وكانت السحب تتسـابق عبر الأراضى القاحلة ، وعندما أقبل المساء شعرت بالريح باردة قارسة . ولقد كان والد كوك ، محاميا وكان يشتغل بالزراعة أيضا ، وقد علمت ببعض المشـاكل التى تعرض لها فى أراضيه الرملية القليلة الخصب . لم يكن يزرع فى انجلترا فى زمن كوك البرسيم أو الجزر أو الكرنب أو اللفت ولذلك فلم يكن هناك غذاء للقطعان فى فصل الشتاء .

وكانت الأبقار ذات القرون الصغيرة وهى عادة ضئيلة الحجم تذوى وتعجف فى الربيع . لقد ذكر تاسر فى كتابه المدرسى « بين عيد الميلاد وشهر مايو ، تهزل القطعان الضعيفة » ولا بد أن والد كوك قرأ كتـاب تاسر ، كما أن كوك قرأ هذا الكتاب أيضـا ، لقد كان انجيل الفلاح فى القرن السادس عشر . وكان من الصعب الحصول على اللحوم فى هذه

الآونة . ولقد شاهدت فى متحف نورويتش عائلة من الطيور يزيد حجم الواحد منها عن حجم الديك الرومي . ويسمى هذا النوع من الطيور « الحبارى » . وكانت تجوب المنطقة جميعها صيدا حلالا وغذاء طيبا . وفضلا عن ذلك فلم تكن لدى أهل البلاد خرافة عدم صيد الطير فى عشه.

ولقد أوحت لى لندن بصورة لمظاهر الترف التى كانت سائدة فىعصر اليزابث ، رأيت ذلك فى هامتون كورث وفى قصر جرينويتش وفى ضيعة كوك نفسه فى ستوك . وكانت هذه قصورا تظهر من أسطحها عشرات من المداخن ، وتحوى خمسين حجرة . ولقد شاهدت بدائع من السجاد والستائر الأرجوانية التى يقدر ثمنها بثروات .

أما هنا فى نورفولك فقد كانت مظاهر الحياة بسيطة . ولا بد أن طفولة كوك قد شبعته بروح الجد وضبط النفس ودربته على العمل الشاق والأجواء القاسية . بيد أن كبار السن فى عهد كوك طالما حذروا أبناءهم الشبان من حياة الدعة ومن تلك الميوعة الايطالية التى تسربت الى انجلترا من وراء جبال الألب .

وعندما بلغت تيتلشال بدأت السماء تمطر ، وانتشر الضباب الذى كان يقشعر له البدن . وهرعت من عربتي عند كنيسة تيتلشال وأخذت طريقى الى الداخل ، على أمل أن أجد هناك بعض الدفء والراحة .

ان زيارة قبر الشخص الذى يؤرخ الكاتب لحياته ليثير فى نفسه الألم والحسرة . ووجدت قبر كوك فى الجانب الشرقى من الكنيسة ، وكان ضخما كثير الزخرف ، تركع فى كل ركن من أركانه الأربعة صورة امرأة فى زى رسم على الطراز الكلاسيكى القديم . ووقفت أحدق النظر فى ذهول وكل لحظة تمر بى تقبض من روحى وتشيع الاكتئاب فى نفسي . كنت أحاول هنا جاهدة أن أبعث الى الوجود بإدوارد كوك التلميذ الحديث

السن الذى يلهو فى ضيعة أبيه . أما الآن فانى أجـده مسّجى أمامى فى صورة منحوتة على قبره الرخامى . ملتحيا ، يضع على رأسه غطاء الرأس الذى يلبسه القضاة .

وكانت هناك فيما حولى قبور أخرى لا تخص أسلاف كوك فحسب بل تخص سلالته أيضا خلال القرون ، وهم آل كوك الذين أصبحوا سادة على ليبستر وبناة القصر المعروف باسم « قصر هولكهام » ...

اما عن « كوك أوف نورفولك » فقد كان قبره أضخم من قبر السير ادوارد ، والحقيقة أنى قد ضقت ذرعا بهذا الكوك النورفولكى ، صاحب قصر هولكهام وصاحب التجارب العديدة على تربية القطعـان . يبدو أن شهرته قد طغت تمـاما على صيت كوك .. ولم يحدث قط حين كنت فى لندن ونورويتش أن اتفق أن قلت لمواطن انجليزى أصيل انى أكتب عن كوك الا وبادرنى على الفور بالقول « آه ! ما من شك فى أنك تكتبين عن « كوك أوف نورفولك » لقد كان شخصا رائعا .. أتى بالمعجزات فى تربية القطعان كان صديق ترنيب تاونسند ألم يكن كذلك ؟ لقد كان معجبا أشد الاعجاب برئيسكم جورج وشنطن . هل زرت قصر هولكهام على بحـر الشـمال ؟ .

بيد أن سير ادوارد كوك — لا كوك أوف نورفولك — هو الذى أسس هذه الأسرة وأتاح لها هذا الثراء . لقـــد قيل لى ان كل شبر من الأربعين فدانا التى لأيرل ليبستر فى الوقت الحاضر كان ملكا للســير ادوارد كوك ، وهو الذى حصل عليها . ولذت بالفرار من الكنيسة ، ودلفت الى سيارتى ، وصفقت الباب فى وجه المطر ، وسرت باحثة عن « جودويك » حيث دار كوك الريفية الصغيرة أو باحثة عما تخلف منها من أثر . وكان اسم القرية كما ذكرته الخريطة « تيتل شـال كوم جودويك » . وكانت

خادمتى العجوز فى فند برون بلندن من أهل هذه القرية . ولقد قصّت علىّ كثيرا من القصص المحلية حتى انى أصبحت أعرف القرية معرفة أهلها لها ، كما أعرف ساكنيها جميعهم بما فيهم تلك الأسرة المنبوذة التى كانت على خلاف مع أسرة خادمتى هذه .

وكان الطريق اليها ضيقا . وكانت حقول الشعير تمتد على جانبيه والأبقار واقفة تحت الأشجار . وكانت الأبقار مبتلة بالمياه . وكان هذا هو الحال مع ما بقى فى الحقل من محصول الشعير ، وكانت الأشجار تنضح بالمياه . أما السماء فكانت قاتمة داكنة . ولكنى مع ذلك كنت أشعر بتحسن حالى ، وكان يداخلنى شعور بالبهجة كلما تقدمت فى طريقى .. ولو أنى عدت الى وطنى فهل سأشعر بأن المعلومات التى عثرت عليها تفوق فى قيمتها المعلومات التى لم أستطع الوقوف عليها ؟ !

ومن بين هذه المعلومات مثلا أنه كان لكوك سبع شقيقات . فهنا فى نورفولك . شبّ الصبى بين سبع شقيقات لا ينقصن واحدة . كان من بين أسمائهم وينيفريد وأورسولا ودوروثيا وايثلريدا ، وهى أسماء سكسونية رومانيكية . وحاولت أن أرسم صورة نفسية لما كان لوجود هؤلاء الشقيقات من أثر على شخصية كوك . ماذا فعلن له أو فعل هو لهن ؟ ولكنى لم أستطع أن أكشف شيئا عن هؤلاء الشقيقات السبع فيما خلا شخصية أزواجهن .

ورأيت أنه قدر على قرائى أن يظلوا على جهل بهؤلاء النسوة ، وتذكرت كتاب « تاريخ البرلمان فى القديم » الذى درسته فى وطنى ، والذى يتألف من أربعة وعشرين جزءا كتبتها أقلام عدد من المؤرخين المعاصرين لا يعلمه الا الله . لقد كتب أحد هؤلاء المؤرخين قائلا : « ولدينا الآن ثغرة زمنية تقرب من أربعة أعوام — وليس لدينا من المعلومات ما يسدها» .

وكان من الواضح أنه لا بد أن تكون هناك ثغرات زمنية فيما سأكتبه عن طفولة كوك . غير أن ذلك لم يثر أسفى . فهناك مادة غزيرة أستطيع الاستفادة منها ، ان مشكلتى كانت مشكلة غنى فى المواد لا قحط . ولقد عثرت هنا فى لندن بصورة الماضى تبدو لناظرى واضحة قوية الخطوط والمعالم ، بدرجة أثارت فى نفسى الرعب والفزع ، وليس من السهل على الأمريكى أن يألف الأحوال السائدة فى بلد لا يعرف لفظة « حدود » .

فان أسماء الأهلين فى نورفولك كان لها نفس الطابع الانجليزى ، كما أنهم متجانسون فى الوقت الحاضر نفس التجانس الذى كان فى زمن كوك . ولا تحفل انجلترا كثيرا بتجنس أجنبى بجنسيتها . والحقيقة أننى كنت أستاء كثيرا كلما ردد الانجليز اسمى بعد أن أذكره واضحا ، استنكارا له ، كنت أسمعهم يرددون : « باون ؟ ولكنه لا يبدو عليك أنك أمريكية . ولماذا تهتم أمريكية بالكتابة عن سير ادوارد كوك » .

كنت أمريكية ، وأمريكية سأبقى أبدا . وكتابى نفسه لو واتانى الحظ سوف يخبر هؤلاء بأن الأمريكية التى صادفوها كانت عاقلة حكيمة عندما رأت أن تكتب عن المستشار كوك .. أما عن سير ادوارد فقد كان مواطنا انجليزيا أصيلا ، غير أنه كان مواطنا لنورفولك أيضا قلبا وقالبا . لقد تيقنت من ذلك تماما خلال الأيام التى قضيتها فى الريف ... وعلى مسافة غير بعيدة من كنيسة « تيتلشال » عثرت على ما تبقى من دار كوك فى جودويك . وكان عبارة عن جزء من المدخنة وحدود حجرة من الآجر . وكان كوك يكن لهذا البيت المتواضع حبا يفوق كل ما كان يكنه لذلك الطود من الست والتسعين الضيعة التى ملكها واحدة فواحدة قبل وفاته . وكان كوك عندما كان سجينا فى قلعة لندن كهلا وحيدا فى زنزانة باردة رطبة ، يشعر بحنين بالغ الى وطنه ، فكتب بقطعة من الفحم معبرا عن

تعاسته باللاتينية قائلا : « واحسرتاه لهذا المكان الذى ينتشر فيه الرعب ! أدعو الله أن يعيدنى يوما ما الى بيتى الصغير فى جودويك » .

وكانت زوج الفلاح التى أرشدتنى الى آثار دار كوك ، قد تركتنى لقضاء أمر عاجل خاص بها . فوقفت بمفردى ، وضباب نورفولك يعلو وجهى ، وأجراس الكنيسة التى تبعد ميلا عن هذا المكان تدق فى خفوت مرة وارتفاع مرة أخرى وفقا لاشتداد الريح أو ضعفها .

وكنت قد اطلعت فى لندن على خطاب مرسل من كوك الى اللورد برجلى ، يعرب فيه كوك عن قلقه من حالة قمحه فى هذا الطقس المطير . كتب يقول : « سوف يفسد القمح ويتعفن فى الحقول مالم يرأف الله بنا ويرسل مناخا يسمح بنضج المحصول » . وكان تاريخ الرسالة : أغسطس ١٩٥٧ : أى عندما كان كوك النائب العام لدى الملكة اليزابث . ولا بد أن كان يشغل باله من المهام الجسام ما يخرج عن نطاق القمح والمحصول ، بيد أن من طبع الرجل الانجليزى أن يجل الأرض ويوليها اهتمامه الأول ويفضلها على الزوج وعلى الولد أيضا .. وكانت هذه البقعة ، وهذا الحقل الموحل الذى أقف فيه من بين أراضى كوك .

وكانت أبواب الحديقة التابعة لقصر هولكهام تبعد ميلين عن القصر ، وقصر هولكهام هو من أضخم وأفخم البيوتات الريفية فى انجلترا ، غاص بالتحف والنفائس التى قد يعجز عن اقتنائها الملوك . ولم ير سير ادوارد كوك قط هذا القصر أو تلك الحديقة . فالذى بناه سليل له يدعى توماس الايرل الأول على ليسستر ، وذلك بعد مضى قرن على وفاة كوك . والشىء الذى أردت أن أراه فى هذا القصر هو مكتبة سير ادوارد ، فان معظم كتبه قد حفظت بها . وكان الدكتور هاسال ، أمين المكتبة لدى سيد القصر ، فى انتظارى ، اذ كنت أراسله قبل ذلك فى هذا الشأن . وأبلغنى هاسال أن

اللورد والليدى الشابين مقيمان فى الدار ، فكان ردى أنى لا أرى داعيا لازعاجهما بطلباتى أو زياراتى .. كنت أحتاج الى عالم ليرشدنى الى الكتب ، لا لورد .

(ولقد دلتنى تجربتى بأن اللوردات النبلاء هم أدرى بشئون الخيول والجندية وطيور الصيد أكثر من درايتهم بالكتب والمخطوطات القديمة) .

كان هذا صباح يوم السبت عندما قرعت جرس البواب عند أبواب حديقة قصر هولكهام للمرة الأولى . وخرج رجل عجوز أشيب مقطب الجبين من بيته وطلب منى اذن المرور ، فليس فى وسع أحد أن يدخل الحديقة بسيارته دون اذن كتابى من سيادة اللورد . قلت : « ولكنى على موعد مع الدكتور هاسال فى مكتبة اللورد فى الساعة التاسعة والنصف » وأضفت الى هذا : « انى قادمة من قارة أخرى هى أمريكا . »

وأوضح لى البواب أنه لا يبالى بأمريكا ، ولا يهمه أمر الدكتور هاسال على الاطلاق . وان شئت تركت سيارتى عند الباب ومشيت على الأقدام الى القصر . وكان اليوم هو يوم السبت واللورد لا يرحب بالزائرين فى عرباتهم . ومددت يدى باحثة عن كيس نقودى ، ولكنى تذكرت تحذير الدكتور هاسال قال : « ان هذا سيعقد الأمور بالنسبة لنا جميعا » .

واستدرت بسيارتى وهرعت الى الفندق ، وهناك عثرت على طالب لاهوت بجامعة كمبردج . كنت قد حادثته مصادفة هذا الصباح وقت الافطار ، فاستعرت منه دراجته وعدت مصعدة فى الجبل الى البوابات . على استعداد هذه المرة لأخوض غمار حرب مستعرة . وخرج البواب حال أن قرعت الجرس وتفحصنى ثم نظر الى الدراجة وهمهم وفتح رتاج الباب الحديدى الضخم الهائل .

وكانت متعة كبيرة لى أن أتسلل بدراجتى بين صفوف من الأشجار السامقة والسندس والحقول فى ذلك الصباح الجميل .

ولم أكن قد ركبت دراجة منذ أعوام طوال ولكننى لم أتعثر بهـا . وعندما أقبلت على القصر رأيته ضخما .. مبنيا من الأحجار الرمليـة الصفراء ، قد جرى تصميمه على النمط الكلاسيكى الخاص بالقرن الثامن عشر بكل تفاصيله ، له أجنحة واسعة وشرفة مرصوفة يرتقى اليها درج كبير . ورأيت أمام الطريق الدائرى مجموعة من الغزلان ترعى الكلأ فى اطمئنان . وقد رفعت بصرها الىّ دون رهبة عندما مررت بهـا . وكانت الأغنام ترعى الكلأ فى كل مكان ، وكان البط يخرج مصفقا بأجنحته من بحيرة صغيرة قريبة من القصر .

وكان الدكتور هاسال فى انتظارى عند الباب الجـانبى . وابتدرنى بقوله : « لقد أبطأت » ثم قادنى دون أن ينتظر ردى الى داخـل القصر قائلا انه يحسن الصعود الى المكتبـة عن طريق الدرج الخلفى لأن ذلك أسرع . ومما يذكر أننى لم أتمكن قط من أن أهتدى بمفردى الى المكتبة فى الطابق العلوى فى كل مرة زرت فيها هذا المكان الساحر الخلاب . وكان الدكتور هاسال يسرع الخطو فى حماسة ونشاط . وكان الدكتور هاسال فى العقد الرابع من عمره ، يتميز بشعره البنى المنسدل على جبينه ، وعينيه الواسعتين المطلتين من خلف، نظارته الطبية . وكان يعمل فى الشتاء أمينـا لمكتبة الدوق همفرى فى جامعة اكسفورد . وكان قد صحبنى بالفعل هذا الصيف الى مكتبة بودليان ذات النفائس من الكتب النادرة والتى تحمل عبارة شهيرة تقول : « ليكن خطوك هينا وكلامك قليلا » .

وطفقت أتبع هاسال خلال عدد لا حصر له من الممرات والدهاليز التى امتلأت بآثار وأثاث القصر العظيم .. كانت بينها اللوحات القديمة لأبنـاء

العمومة ، وصور رفقاء الصيد والخدم وكلاب الصيد . ولمحت فى مسيرى دهاليز الصور الزيتية والحجرات الرسمية التى ترفل فى الديباج القرمزى وتزخر بالشمعدانات الذهبية . ومررنا بتماثيل حجرية مقامة داخل فجوات فى الحائط ، وبأنضاد أسطحها من الرخام ، وبأوعية وتماثيل نصفية .

وفجأة وجدت نفسى حيال صورة زيتية لجورج واشنطن فى أسفلها لوحة تحمل توقيع « كوك أوف نورفولك » .

« كنت أشرب نخب جورج واشنطن فى كل يوم من أيام الحرب الأمريكية باعتباره أعظم رجل على وجه الأرض » .

وأخيرا بلغنا المكتبة فوجدت جدرانها تختلف ، عليها اللونان الأبيض والذهبى ، وعلى أبوابها أقواس مدببة . وكانت فى الواقع من أجمل القاعات التى شهدتها فى حياتى . وكانت تضم عشرين ألف كتاب ، أما عن كتب كوك الخاصة فقد كانت تربو على الثلاثمائة . وكان يحتفظ بها فى حجرة مربعة صغيرة مجاورة للقاعة الكبرى . وكان بالمكتبة نوافذ متسعة تطل على الحديقة . وكانت هناك على المدفأة صورة زيتية لتشارلس جيمس فوكس الذى كان ينم مظهره عن سخرية وعن متعة دنيوية .

وأبلغنى الدكتور هاسال أن جانبا صغيرا فحسب من مكتبة كوك هو الذى وضع فى هذه الحجرة . أما الباقى فقد احتفظ به فى البرج فى الطابق العلوى ، حيث سيصحبنى قبل أن ينقضى النهار . وكانت أعظم الكتب وأثمنها موضوعة فى الرفوف العالية كما قال لى الدكتور ، اذ لم يكن ثمة ما يدعو للسماح للزوار بالتقليب فيها .

ولقد كانت مأدبة حافلة بأطايب الكتب . وكان الكتالوج الخاص بكوك والمكتوب على الجلد يبلغ فى الطول اثنتين وأربعين قدما ، ويرى فيه توقيع كوك بين الحين والآخر . وكانت هناك أيضا كتب القانون —

فهذا هو « السجل القصير » الذى قيل ان الملكة اليزابث قد أهدته لكوك. ثم كانت هناك المجموعة الكاملة لكتب الأدب التى كان كوك يقتنيها . والتى أردت بها أن أدحض حجج المتعالمين الذين كانوا يستطيبون القول بأن كوك كان أميا فى كل شىء خلا القانون . فوجدت بين مجموعته الأدبية قصص آيسوب ، وكتاب ديكاميرون لبوكاشيو ، وكتاب الأمير لماكيافيلى، والسياسة وأرلاندو فوريوزو للكاتب نفسه ، وكتاب السير لبلوتارخ .

وكانت هناك كتب تمثل نسخا من مؤلفات فى التاريخ والقانون مهداة من أصدقاء كوك الذين أصبحت أعرفهم كما لو كانوا أعمامى ، من چون سلدن ، العالم القانونى النابه ، وهو مخلوق وسيم وساحر للنساء ، ومن وليام كامدن ، المؤرخ الذى أحببت مؤلفاته ومن روبرت كوتون ، عالم الآثار الذى كان مشغوفا بالسجلات القديمة فى قلعة لندن حتى انه عندما كان يرفض أمين المكتبة أن يعيره بعضها لا يتورع عن أن يخفيها تحت صديريته ويحملها هكذا الى بيته وينسى أو يتناسى أن يعيدها ثانية .

ودفع الى بسلم يبلغ فى الطول عشر أقدام . وثبت السلم على قوائمه الأربع ثم ارتقيته . وقلمى خلف أذنى ومفكرتى بين أسنانى . وما ان علقت فى نهاية السلم حتى نسيت العالم ومن فيه .

فهنا الملاحظات التى دونها كوك بخط يده تمهيدا لمحاضراته التى كان يلقيها فى « اينرتمبل » عام ١٥٩٢ ، حول « قانون المنافع » وكانت هذه تضم سبع محاضرات مكتوبة بخط واضح أنيق ومغلفة بالجلد وكان خط يد كوك فى العادة مهوشا غير منسق .

وعلقت على ذلك فأجابنى الدكتور هاسال بقوله : ان هذا هو خط كوك المنسق ، واستفسر عما اذا كنت قد شاهدت فى المتحف البريطانى النسخة القديمة من كتاب ليتلتون عن « الملكية » التى تحمل ملاحظات

كوك التى تكشف عن الحقائق الجوهرية فى حياته ، فأجبته بالايجـاب . ولكننى لم أكن لأستطيع أن أفك طلاسمها اذ لم أكن قد حفظت ما تدل عليه عن ظهر قلب قبل أن أقدم الى انجلترا . وذكرنى هاسال بقوله : « ان بعض من هم أقل علما منه كانوا يكتبون خطوطا أجمل .. والحقيقـة أن الكتابة لم تكن الا من مهام النساخين .

وكانت بالرف ملاصقة لكتفى «مجموعة حيثيات الدفاع» مغلفة بالجلد ومنسوخة بخط أنيق و « القضايا المتهم فيها اللورد بيكون عام ١٦٢٤ » وهى قد كتبت بدورها بخط نساخ ماهر . ورأيت كتبا تحمل شعار سير كرستوفر هاتون وعثرت أيضا على ما يقرب من ثلاثين كتابا يحمل شعار سير ادوارد وهو اليمامة التى تحمل بمنقارها « حدوة حصان » .

وبينما كنت أقلب الصفحات وأطالع وأدرس فى مكانى العالى ، كان الدكتور هاسال يجلس من تحتى أمام نضد صغير ينسخ على الآلة الكاتبة لا يكاد يلتفت الىّ . قال لى انه يجيب عن بعض الأسئلة الموجهة اليـه من لوس انجيليس بكاليفورنيـا حـول نسخة كوك الخاصـة بكتـاب « المختصر » لفترهربرت . وقلت لهاسال انى قد صادفت منذ هنيهـة حسابات البيت التى كانت تشرف عليها زوج كوك الأولى بريدجيت باستون بين عامى ١٥٩٦ و ١٥٩٧ .

ومددت ساعدى الى المجلد الذى عثرت عليه وضممته الى صـدرى وعدت أهبط السلم ثم جلست الى النضد فى مواجهة الدكتور هاسال أنسخ فقرات محاولة ألا أفصح له عن غبطتى لما عثرت عليه .

وكانت هذه الفقرات تتعلق بالحاجيات التى يتطلبها القصر يوما بيوم . وقد كتبت بخط الخادم . وكانت زوج كوك تراجع ما كتب كل أسبوع وتعتمده بتوقيعها . كان توقيعها يحمل هذه العبارة : « أمرت بهـذه أنا

بريدجيت كوك » وكان الخادم قد حاول أن يختبر نفسه فى الكتابة الأدبية بما خط على الجوانب البيضاء من الصفحات . فكتب فى خطوط دائرية كالتى تميزت بها الخطوط فى القرن السادس عشر « دوروثى ... دورو ... دورو ... غاية بهجتى وغاية ... » ولم تكن اللفظة الأخيرة مقروءة . وسألت نفسى ومن تكون هذه الدوروثى ؟ هل كان الخادم هائما بها صبًا الى هذا الحد . وماذا كان شعور بريدجيت كوك عندما كان بصرها يقع على سطور هذا المحب ؟ قال لى هاسال : « ربما كانت هذه الدوروثى كلبة من كلاب الخادم . واعتقادى أن اسم دوروثى من الأسماء التى تليق بالكلاب . ولكن عليك بالحيطة وأنت تنسخين — ربما كان توتيفيلس ينظر الى ما تكتبين من خلف ظهرك » .

وقال لى هاسال : « ان توتيفيلس قد أصبح بمضى الزمن شيطانا يجمع قصاصات الورق الطقسية والخاصة بالطباعة التى كان يكتبها الرهبان أثناء نسخهم للمخطوطات .

وقد ظهر توتيفيلس لأول مرة فى القرن الثالث عشر . ولكنه لم يظهر هناك دليل على أنه لم يطرد بعد بالرقى والتعاويذ فى العام الميلادى ١٩٥١ .. ورأيت بعد دفتر الحسابات الخاص ببريدجيت نسخة صغيرة مغلفة من « العهد الأعظم » تفيض هوامشها بالملاحظات التى دونها كوك .

وكانت بالحجرة نافذة تطل ناحية الجنوب . وشاهدت على بعد نصف ميل من القصر وفى قلب الحديقة سلة مرتفعة بناها الايرل الأول بين الأشجار . وكانت الأبقار تقف على حافة البحيرة فى حين يسبح البط الى الشرفة .

وكانت كتب سير ادوارد فى هذا البرج قد وضعت على الرفوف بحيث تتجه أطرافها الأمامية الى الخارج على النمط المتبع فى القرن السادس

عشر . ولاحظت عند أطراف أغلفة الكتب آثار سلاسل كانت توثق بها الكتب الى الرفوف خوفا من اللصوص والمغيرين . وجلست على صندوق مقلوب وشرعت فى القراءة ، مؤملة ألا يتعجل الدكتور هاسال خروجى من هذه الحجرة . وكانت هذه هى المرة الأولى التى أستشعر فيها الدفء طوال اقامتى فى نورفولك « كم أشغف بالرجل الذى يهتم بأمر كتبه الى الحد الذى يدفعه الى أن يكتب تعليقاته عليها . وان هذه التعليقات لهى كنز ثمين بالنسبة لكتاب السير » .

كانت هذه هى الحال مع الكتب التى عثرت بها فى هذه الحجرة . كان من بينها كتب للتاريخ وكتب فى اللاهوت فى أغلفتها الجلدية الأصلية . وكانت هناك المخطوطات وكتب القانون التى جمع منها معلوماته الغزيرة واستخرج من بطونها (كتاب القوانين) . وكانت هناك أعمال بيلارمين الذى كان من دعاة الكاثوليكية المبرزين . وتذكرت المناقشات الطويلة التى دارت بين الملك چيمس الأول وبيلارمين ، تلك المناقشات التى سجلتها يد الملك ونشرتها فى الخارج . واعتقادى الجازم أن چيمس ستيوارت كان أغرب شخصية يمكن أن تتبوأ عرشا . وكان مما يزيد من غرابته ذلك السروال الهولندى التى يشبه الجوالق ، وتلك المشية المتخبطة واللغو والثرثرة التى زادت الطين بلة . كان رجلا طيب الخلق فى الأصل ، كان يمكن أن يصبح أسقفا ممتازا لكنيسة انجلترا ، لديه من الوقت ما يسمح له بأن يصطاد الوعول بين مهامه وواجباته الكهنوتية .

ووجدت بين يدي كتابا عن السحر طبع فى باريس عام ١٥٠٨ وكان السير ادوارد كوك يؤمن بالساحرات والعرافات بطبيعة الحال . وكان هذا هو الحال مع سير توماس برونى الطبيب النوريتشى ، الذى عاش بعد كوك بنصف قرن . وكان الايمان بالعرافة أمرا منطقيا لا غرابة فيه بالنسبة

لامؤمن ، فاذا لم يكن المرء مؤمنا بالساحرات فكيف له أن يؤمن بالملائكة ثم يؤمن بالله الذى تعبده الملائكة ؟ .

وقد أفرد كوك فى قانونه الثالث فصلا عن « جناية التعزيم أو السحر أو العرافة أو تحضير الأرواح . »

ولقد وجدت كل كلمة ذكرها كوك آسرة ساحرة ؛ فقد ذكر كوك أنه من الاجرام تحضير روح شريرة حتى وان لم يطلب من الروح القيام بأى عمل . ثم ان أى أعمال يقصد بها التسبب فى مرض جار أو هزاله تعد أعمالا جنائية . وكذلك بالنسبة لاستخراج جثث من القبور لاستخدام جلودها أو عظامها فى السحر أو التعزيم . وليس هناك من بين كتب القانون ما يمتع القارىء مثل قانون كوك الثالث ، لقد شهد المرء بين سطوره وعلى صفحاته صورة كاملة شاملة للحياة فى عصر اليزابث .

وأحسست أن بوسعى أن أمكث طوال حياتى فى هذه الحجرة العالية الهادئة .. التى زينت جدرانها بصور من العهد الفكتورى ، وكنت أقطع حديقة قصر هولكهام كل يوم ذاهبة آيبة على دراجتى المستعارة . وكنت أقود سيارتى اذا ما كان اليوم مطيرا . فقد كتب لى خادم الايرل اذنا بالمرور لقى قبولا من البواب . وقد دعيت أنا والدكتور هاسال الى الغداء مع ايرل ليسستر والكونتيس الشقراء الجميلة ونانى الطيبة العجوز التى كانت تعنى بأطفالهما الثلاثة .

وكان اهتمامى بالسير ادوارد كوك بالنسبة للايرل ، أمرا عسير الفهم كل العسر . فما الذى يدفع أمريكيا وامرأة فى مثل هذه السن الى الكتابة عن حياة سير ادوارد كوك . ؟

ولم أحاول أن أوضح ذلك ، بل تحدثت مع اللورد عن تسيير القوارب

الصغيرة . وهو موضوع كان لى المام به منذ حداثتى . وعن العنايةبالغزلان وتربيتها . وكان هذا موضوعا غريبا على حتى ذلك الصباح عندما تصفحت كتابا فى هذا الموضوع وجدته على نضد الصيد . وفى أصيل أحد أيام الثلاثاءخرجت على دراجتى من حديقة قصر هولكهام للمرة الأخيرة وحزمت ملابسى التى كانت فى أفضل حجرة من حجرات مديرة البريد ، حيث أقمت طيلة هذه المدة واتجهت فى صبيحة اليوم التالى بعربتى الصغيرة صوب الجنوب الغربى الى كمبردج .

وكان كل ما صادفته فى طريق عودتى من نورفولك يذكرنى باللورد كوك ... فهذه هى قلعة آكر ، ذات البوابة النورماندية الكبيرة والكنيسة والمقبرة الساكسونية . وكانت قلعة آكر من أملاك كوك التى اشتراها وقت أن كانت أراضى الأديرة ما زالت عرضة للبيع والشراء ... وهذه هى قرية ستيفكى التى ولد بها ناثانيال بيكون شقيق سير فرانسس بيكون . والذى كان من أعضاء مجلس الشيوخ . ولم يكن أحد من أهل ستيفكى يعلم شيئا عن بيكون ..

ستيفكى ذات الأبراج الدائرية العالية والحدائق الوطيئة والأسوار الباهتة الجميلة المصنوعة من الآجر ... ثم كمبردج وطريق هاى ستريت الضيق ... والبوابة العظيمة فى كلية اللاهوت حيث كان كوك الشاب يمر تحت الطريق ذى القباب . وعباءته القصيرة تهتز باهتزاز قامته الطويلة . وجامعة كمبردج لا ترحب بالنساء . ولا ترحب بوجه خاص بالأمريكيين الذين يدرسون التاريخ الانجليزى .

وكنت خلال ذلك اليوم وطوال اليوم التالى نهبا لسهام الاستنكار والسخرية تصوب الى فى كل حين . وكنت أقف فى كلية اللاهوت مع

عضو بالجامعة وتتطلع الى صورة زيتية للسير فرانسس بيكون معلقة على الحائط . قلت « لم يظهر على وجه الأرض من هو أكثر غرابة فى الأطوار من هذا الرجل . لقد وقف كوك أمام منصة مجلس الشيوخ لكى يوجه اليه الاتهـام » .

وكنت أتحدث فى اعتقادى الى نفسى متسائلة عما اذا كنت سأستطيع أن أفى فى كتابى ممثل الادعاء هذا حقه . فأجاب عضو الجامعة فى اكتئاب : « أخرج من ذلك أنك تنتوين تأليف كتاب شعبى عن المستشار كوك ؟ .. ومن المحال على أن أصور مدى اليأس والقنوط الذى عبرت عنه شفتاه وهو ينطق لفظة شعبى » .

وقال لى آخر : « على أية حال كنت ماهرة بحق اذ استطعت أن تتبينى أن كتابا عن اللورد كوك سيلقى رواجا فى السوق ... » . وقال لى ثالث ، وكنا نشرب الشاى فى فترة ما بعد الظهر فى قاعة تطل على صالة كليـة اللاهوت العظيمة : « حقا ان مسز باون تتمتع بقدر من الشجاعة فيمـا أعتقد . وعلينا أن نذكر أن على المرء أن يبدأ تعليمه فى موضوع ما » .

وصلافة البريطانيين وكبرياؤهم تنطويان على خدعة وحيلة عجيبة ، ان ما يبدو عليهم من انعدام الوعى والغفلة فى الظاهر يضاعف من تأثير هذه الصلافة وتلك الكبرياء .

فهؤلاء الذين حادثتهم من أبناء الجامعة كانوا يعلمون تماما ما يفعلون ويعلمون أيضا أن تلميحاتهم اللاذعة لا يمكن أن يغلق فهمها على . ولكننى على أية حال كنت جافة خشنة فى ردى عليهم . وكنت أرد سـهامهم الى نحورهم المرة تلو المرة . وفى الأمسية التالية من اقامتى فى لنـدن قابلت عضوا آخر من الدارسين فى كمبردج . وهو أستاذ للقانون الجنائى وعالم كبير فى تاريخ القانون . ولم أرو له ما حدث لى فى كلية اللاهوت .

ولكننى تحدثت عن اللورد كوك ، وعن القانون العام الانجليزى وعن حياة كوك البرلمانية ، وعن الامتنان الذى أشعر به باعتبارى أمريكيـة ، تجاه هذا الرجل .

ولما كنت ما زلت أتوجع من وخزات البارحة . فقد طلبت من هـذا الأستاذ أن يوضح لى فى اسهاب ، رأيه فى طريقة معالجتى للمشـكلة ولترجمة حياة اللورد كوك .

ويخيل الىّ أن الأسئلة التى وجهتها خرجت بصوت مضطـرب لأن الأستاذ استدار الىّ ووضع يده ، مشفقا ، على يدى .. وقال لى بنبراته البولندية الحادة : « أسوف تكتبين عن اللورد كوك ؟ ما من شك فى أن هذه ستكون مغامرتك الكبرى » .

وفى الليلة ما قبل الأخيرة من زيارتى لانجلترا . وكان القمر بدرا .. أخذت عربة أجرة الى تل القلعة أو ماورخيل . وخرجت من العربة وسرت بمفردى فوق الأسوار والخنادق الجافة . ولقد كان مشهدا مخيفا مفزعا . الحصن الأبيض فى الوسط والسحب تتحرك من فوقه والنهر الى الجنوب متسع مهيب يكتنفه الغموض فى ضوء القمر الساطع . وعدت الى البواب فى الساعة العاشرة فى الوقت الذى كان يخلى فيه الحارس مكانه لحارس آخر . وخرج الحارس بمعطفه القرمزى وحلقة المفاتيح فى يده . وترددت فى الفضاء أصوات الحراس ما بين مناد ومجيب على الطريقة التى تميزت بها الجندية البريطانية .

كان اللورد كوك منذ ثلاثة قرون ونصف قرن مضت يسـمع هـذا الصوت فى دجى الليل ، وهو رهين زنزانته فى القلعة كهل طاعن فى السن... كيف لى أن أغادر هذه البلاد التى يذكرنى كل حجر فيها بالماضى السحيق

الذى أكتب عنه ؟ وكيف لى أن أعود الى وطنى وأكتب عن اللورد كوك فى عالم يختلف عن هذا العالم مثلما تختلف برمنجهام عن بغداد . ؟

وعاد السؤال يلح علىّ ويتأكد صداه فى سمعى بين آونة وأخرى . ما هو الدافع الذى يدفع أمريكيا الى الكتابة عن اللورد كوك — لقد وجه الىّ هذا السؤال مئات المرات فى انجلترا ... وأخيرا دلفت الى عربة الأجرة وصفق السائق بابها ومضينا فى طريقنا .. وتذكرت قول المؤرخ القديم : « انى أحمل نفسى كل هذا العناء ، اختبارا لقوتى . فى أن أرفع نصبا يحيى ذكرى رجل واحد » .